تفكيك منظومات الاستبداد

مجموعة مقالات

جاسر عودة

(نشرها تباعاً بين عامي ٢٠١٣ و ٢٠٢٥ م موقع: الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين)

<https://iumsonline.org/>

4	تفكيك منظومات الاستبداد (١): تفكيك مفهوم الدولة الوطنية
7	تفكيك منظومات الاستبداد (٢): الفرق بين الانتماء للوطن وجنسية الدولة
10	تفكيك منظومات الاستبداد (٣): مقاصد الشريعة لكسر تحالف الاستبداديين السياسي والديني
13	تفكيك منظومات الاستبداد (٤): الاستبداد الاقتصادي (الاحتكار والفساد)
16	تفكيك منظومات الاستبداد (٥): شورى المستبد والإعلام الكاذب
18	تفكيك منظومات الاستبداد (٦): الاستبداد كثقافة مجتمع
21	تفكيك منظومات الاستبداد (٧): الاستبداد وثقافة العنف والإرهاب
24	تفكيك منظومات الاستبداد (٨): حول الثورة والعنف وإسقاط الاستبداد
29	تفكيك منظومات الاستبداد (٩): خيار الجهاد المسلح وسؤال المآلات
33	تفكيك منظومات الاستبداد (١٠): الاستبداد والشباب - #الشباب_فين
36	تفكيك منظومات الاستبداد (١١): الاستبداد الديمقراطي على الطريقة الأمريكية
39	تفكيك منظومات الاستبداد (١٢): الثورة وخطأ الرهان على الشعوب
41	تفكيك منظومات الاستبداد (١٣): الاستبداد وسلاح السجون
44	تفكيك منظومات الاستبداد (١٤): الاستبداد وأحديث طاعة الحاكم
48	تفكيك منظومات الاستبداد (١٥): الاستبداد وعلم العقيدة
51	تفكيك منظومات الاستبداد (١٦): الاستبداد والقسوة في القتل
53	تفكيك منظومات الاستبداد (١٧): العلماء بين السلطة والمعارضة والثورة
56	تفكيك منظومات الاستبداد (١٨): الاستبداد والنفاق
58	تفكيك منظومات الاستبداد (١٩): عودة لمطلب الدولة المدنية
61	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٠) سلاح الدعاء على الطغاة
63	تفكيك منظومات الاستبداد (٢١): الاستبداد وسنن الابتلاء
65	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٢): إذا نصحو الله ورسوله
68	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٣): هدم كيانات الضرار في صورها المعاصرة
73	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٤): جذور دعم المسيحية المتعصبة لحرب الإبادة الصهيونية
76	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٥): إما اعتدلت وإما اعتزلت - دعوة لإحياء الربيع العربي!
78	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٦): ما أشبه الليلة بالبارحة
81	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٧): نحو الانتصار في حرب التصورات كذلك
84	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٨): حدود سايكس-بيكو لا اعتبار لها في أحكام الجهاد
87	تفكيك منظومات الاستبداد (٢٩): خطر المنافقين في مواقع البطانة والحكم
90	تفكيك منظومات الاستبداد (٣٠): أسطورة البقرة الحمراء ومخطط هدم الأقصى

- 93 تفكيك منظومات الاستبداد (٣١): أمريكا بين إبادة كولومبس وإنسانية كولومبيا
- 95 تفكيك منظومات الاستبداد (٣٣): الشهادة .. الشهادة
- 97 تفكيك منظومات الاستبداد (٣٤): نصائح عربية للثورة البنغالية
- 99 تفكيك منظومات الاستبداد (٣٥): دعوة مجددة إلى إحياء الربيع العربي
- 101 تفكيك منظومات الاستبداد (٣٦): لا بد من جهاد المنافقين
- 104 تفكيك منظومات الاستبداد (٣٧): هل يمنع المسلمون هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل؟
- 106 تفكيك منظومات الاستبداد (٣٨): احتفلوا بمولد الرسول المجاهد الشهيد
- 108 تفكيك منظومات الاستبداد (٣٩): حكم الافتتاح على الدولة بالقتال
- 110 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٠): فليتعاون عقلاء الأمة ضد عدو الأمة المشترك
- 112 تفكيك منظومات الاستبداد (٤١): عوائق في طريق الدعوة إلى الجهاد
- 115 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٢): ألا إن نصر الله قريب
- 117 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٢): الفعل بعدم الفعل واستغفال الشعوب
- 118 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٣): فلنستبشر بانتصارات كبرى لصالح الحق
- 120 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٤): عودة إلى خيار الجهاد على نظم الطغيان
- 122 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٥): يا ثوار سوريا .. أقيموا حد الحراية على المغتصبين
- 124 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٦): أيها الإسلاميون .. دعوها فإنها منتنة
- 126 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٧): نظامنا السياسي عصي على الإصلاح
- 129 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٨): ربح البيع يا غزة وخسر أعداؤك
- 132 تفكيك منظومات الاستبداد (٤٩): اعرف عدوك .. ضد من حاربت وستحارب غزة؟
- 134 تفكيك منظومات الاستبداد (٥٠): رمضان .. شهر الجهاد والانتصارات
- 137 تفكيك منظومات الاستبداد (٥١): في شهر الجهاد .. لن تهزم أمة مجاهدة
- 139 تفكيك منظومات الاستبداد (٥٢): ماذا حدث لشباب أمتنا العربية؟
- 142 تفكيك منظومات الاستبداد (٥٣): جماعة الإخوان وخيار الجهاد الاستراتيجي
- 144 تفكيك منظومات الاستبداد (٥٤): غزة تموت جوعاً .. رسالة إلى (أولي الأمر) من المسلمين
- 147 تفكيك منظومات الاستبداد (٥٥): صلاحيات الحكام في المال العام في الإسلام
- 150 تفكيك منظومات الاستبداد (٥٦): عاد موسم الحج .. وليسجل التاريخ
- 154 تفكيك منظومات الاستبداد (٥٧): نداء إلى أمة محمد ﷺ .. خذوا على أيدي حكامكم

تفكيك منظومات الاستبداد (١): تفكيك مفهوم الدولة الوطنية

من نافلة القول إدانة ما يحدث في عالمنا العربي بشكل عام وفي مصر بشكل خاص وبأشكال مختلفة وعلى مستويات الحكومات بل والشعوب للأسف، من استهانة بأرواح الناس. خاصة الذين يجروون على معارضة الاستبداد السياسي، ومن جو عام سادت فيه الحدة والأناية الفردية والحزبية وأشد درجات الإقصاء بل التصفية لكل من يخالف أو حتى يسكت عن التأييد للحكام، ومن انهيار سيادة القانون في دولنا جميعاً ولو بدرجات مختلفة، إذ أصبح القانون - من قانون المرور إلى قانون الجنايات - لا يطبق إلا على الضعيف ولا يطول الكبراء والأمراء والأغنياء والمتحكمين في وسائل العنف في كل البلاد إذا تعارض مع مصالحهم، وساد قانون الغاب فعلياً في عدد من الدول بل أسوأ؛ لأن الحيوانات يأكل القوي الضعيف حين يجوع وهؤلاء الأقوياء يسفكون دماء الناس ويستحلون أموالهم وأعراضهم على شبع ودون ضرورة، ومن ضياع لمعنى العدالة بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والحقوقية والاقتصادية، ومن احتكار السارقين لمال الله الذي هو مال الأمة وأتباعهم المأجورين لسياسات الإعلام وكراسي القضاة وخطط المؤسسات المدنية وألقاب المسؤولين بالدولة وأشرف المهن والرتب في مختلف الوزارات والهيئات، وأخيراً وليس آخراً ما يحدث من انفلات الناس من الحدود الدينية والأخلاقية واستباحة الثوابت والمبادئ والحرمان والعورات. ومفتاح الحل لأزماتنا أن يتفق أصحاب العقول على أن المشكلة الأساسية في عالمنا العربي والإسلامي هي الاستبداد.

والاستبداد ليس جديداً على البشرية بل هو قديم ومتأصل لدرجة أن رسائل الله تعالى الأخيرة للبشر في نصوصها المقدسة كان فيها حديث تفصيلي عن ثلاثة شخصيات هي رموز للاستبداد على مدار التاريخ: فرعون وقارون وهامان. لا يمكن أن نتقدم أو أن نقوم بثورة حقيقية دون أن نقضي على هذه الأشكال الثلاثة من الاستبداد:

(١) الفرعونية و(٢) القارونية و(٣) الهامانية، أي منظومات الاستبداد (١): السياسي و(٢) الاقتصادي و(٣) الديني. لابد في الموجة التالية من الثورة إن شاء الله من تفكيك المنظومات السياسية والاقتصادية والدينية عربياً وإسلامياً، ثم إعادة صياغتها بناء على القيم والمبادئ والمصلحة العامة. أما الاستبداد الفرعوني السياسي فأساسه في عالمنا العربي والإسلامي في نظام الدولة الوطنية المسماة بالدولة الحديثة.

نعم هناك دول وطنية حديثة ذات نظم مستقرة وديمقراطية ومتحضرة في الشرق والغرب، ولكن العالم العربي والإسلامي يثبت مع الوقت أن فكرة الدول الوطنية ذات الحدود والسيادة والعصبة القومية فيه فكرة سيئة، وذلك لعدة اعتبارات: أصل تقسيم الدولة، ونظام الدولة السياسي، وعلاقتها بالدول الأخرى. أولاً: أصل التقسيم الحدودي في غالب البلاد العربية والإسلامية هو إرادة المستعمر ومصالحته. المستعمرون في القرن العشرين كانوا ثم ما يزالون هم أكبر مستفيد من تقسيم بلاد الشام وفلسطين التاريخية، ومصر أو وادي النيل التاريخي، ودول الخليج العربي أي جزيرة العرب التاريخية، وبلاد المغرب العربي التاريخية، والقارة الهندية التاريخية، ومسلمو وسط آسيا، إلى آخر القائمة. التقسيم مصمم أساساً لخدمتهم وراجعوا التاريخ القريب. ولا يصح هنا الخلط بين حب الوطن والقوم والأرض التي ينشأ فيها الإنسان وما حولها، وبين الانتماء والتماهي مع دولة معينة ذات نظام سياسي بعينه، هذا الخلط الماكر

الذي لعب عليه الساسة منذ عقود حتى شب عليه الصغير وشاب عليه الكبير وأصبح التمييز فيه خيانة وفتنة وهلم جراً.

ثانياً: فكرة (السيادة) للدولة الوطنية لا تصح مع نظام استبدادي فاسد، ودون نظام تعددي للشراكة بين الشعوب وقياداتها وبين فئات وتيارات وأحزاب تلك الشعوب نفسها، ودون فصل حقيقي بين السلطات. وإلا اختلط مفهوم سيادة الدولة بخطيئة تأليه حكامها، وأصبحت مؤسسات الدولة نفسها أداة للفساد الأخلاقي وغسيل الأموال والجرائم ضد الإنسانية باسم سيادة الدولة، كما نرى في كل مكان في العالم العربي والإسلامي.

ثالثاً: التقسيم الوطني لا يصح أن يعزل مواطني (الدولة) عن الدول المجاورة التي تشترك معها في مساحات واسعة من الجغرافيا والتاريخ واللغة والدين، بل ولا عزلها عن الرقعة الأوسع من الدول الأخرى التي تشترك معها في مساحات من الإنسانية والثقافة والقيم العليا. ولكن دولنا الوطنية العربية كلها تقريباً تعادي وتحارب (دولاً) أخرى تشترك معها في تاريخ طويل من الوحدة: جغرافياً واحدة ولغة واحدة وثقافة واحدة بل ومصير واحد. وحدود الدول العربية والإسلامية كلها مفتوحة وبتأشيرة ميسرة لدول الشرق والغرب خاصة المستعمرين القدماء والمعاصرين، ولكنها إلا ما ندر مغلقة بين بعضها البعض ولو كان الوافدون لاجئين مساكين هربوا من الموت برصاص الطغاة من الناس ولجأوا إلى أرض ليست بعيدة فيها أهل ليسوا غرباء، وكل هذا بحجة السيادة الوطنية الزائفة والمعاملة بالمثل! وهذه الانتقاسمية الطفولية لا تهدف إلا لخلق عداوات مصطنعة تثبت أصحاب الكراسي على كراسيهم، ولا بد للموجة الثورية التالية أن تقتلعها بإذن الله تعالى.

وتفكيك الدولة الوطنية هنا لا يعني الفوضوية (الأناركية) التي ينادي بها البعض، وإنما يعني أن تعاد صياغة سياسات دولنا الوطنية العربية والإسلامية كلها هذه نحو الأولويات الاستراتيجية الإقليمية والإنسانية، لا الأجندات المحلية الضيقة، ونحو نظام للعدالة الاجتماعية على مستوى إقليمي بل وإنساني؛ ونحو توحيدات وشراكات وانفتحات على مستويات مختلفة شعبية وحكومية. لابد لعالمنا العربي والإسلامي أن يقود الإنسانية نحو نظام دولي جديد، لا على طريقة الفوضى الخلاقة التي ينادي بها المحافظون المتطرفون بل على طريقة نظام عالمي جديد يراعي مصالح الشعوب ويسمع لصوتها رأسمالياً كان أم اشتراكياً أم غير ذلك.

أما سؤال: كيف السبيل؟ فإجابته عندي في إقامة شراكات سياسية واسعة وحقيقية وليست زائفة ووصولية، تتوجه نحو إقامة (الدولة المدنية). هذا عندي من أهم هذه الوسائل اليوم. الدولة المدنية التي تشكل أرضية مشتركة بين الإيديولوجيات المتصارعة تاريخياً في عالمنا العربي والإسلامية هي عندي أول الطريق نحو تفكيك الفرعونية الوطنية التي يعاني منها الجميع. ذلك أن نظام الدولة إذا تحول إلى تشاركية تعددية لا يطغى فيه عنصر من المجتمع (ولو كان العنصر الإسلامي) على العناصر الأخرى، مع الحفاظ على ثوابت الهوية التاريخية والأخلاقية - هذا النظام هو الخطوة الأولى نحو الإصلاح السياسي والقرار السياساتي الاستراتيجي الرشيد.

وهكذا نفكك الفرعونية المستبدة المعاصرة: إعطاء أولوية لمصالح الشعوب المشتركة فوق مصالح الفئة الحاكمة، والسيادة للقانون والنظام لا للحاكم المتأله، وبناء شراكات ووحدات مدنية تعلو على الإيديولوجيات السياسية وتهدف إلى دولة مدنية تسهم في تسييل الحدود والتعصبات الوطنية الزائفة. والوسائل على أي حال كثيرة، فليعمل الجميع كل من زاوية رؤيته وحدود طاقاته.

(قل كل يعمل على شاكلته فربكم هو أعلم بمن هو أهدى سبيلاً). صدق الله العظيم.

تفكيك منظومات الاستبداد (٢): الفرق بين الانتماء للوطن وجنسية الدولة

وصلنا إلى أن أس الفساد في عالمنا العربي والإسلامي هو الاستبداد، وإلى أن منظومة الاستبداد السياسي الفرعوني تتكامل وتتضافر مع منظومتي الاستبداد الاقتصادي القاروني والاستبداد الديني الهاماني، وأنه لا بد في مرحلة تالية من الثورة من التفكيك ثم إعادة الصياغة لمفهوم الدولة الوطنية نفسه. ولكن مفهوم الدولة الوطنية مفهوم ماكر لأنه يخلط بين مفهومين مختلفين، ألا وهما مفهوم الوطن ومفهوم الدولة. زاد الطين بله أن هذا الجيل وجيلين أو ثلاثة قبله من الإنسان العربي والمسلم قد تدرّب منذ نعومة أظفاره على أن يعرف نفسه أولاً وقبل أي تعريف آخر -وفي كل مجالات الحياة المهنية والشخصية وغيرها- حسب النظام السياسي الذي يعيش تحته، أي على أنه مصري أو سوداني أو سعودي أو أردني أو باكستاني أو بنغلاديشي أو ماليزي أو ليبي أو تركي أو فلسطيني، إلى آخره، ويرى تعريف نفسه أساساً بذلك الكيان السياسي تعريفاً طبيعياً أيضاً، رغم أن كل هذه الكيانات السياسية الوطنية بحدودها الحالية هي وليدة العقود القريبية الماضية ليس إلا! فيشعر المصري مثلاً أن السودانيين وأهل غزة "أجانب"، رغم أن ما تسمى اليوم بجمهورية السودان وكذلك قطاع غزة كانوا جزءاً من ما كان "مصر" على مدار تاريخ طويل. وهكذا يشعر الأردني والفلسطيني، والباكستاني والبنغلاديشي، وهلم جراً. الوطن هو مكان ينتمي إليه الإنسان بحكم أنه عاش فيه فترة حية من حياته طالت أو قصرت أو ينتمي إليه أبواه أو أحدهما وأثر فيه، فتشكل على الانتماء إليه وجدانه ومشاعره وجسمه وكون فيه علاقات اجتماعية ومضامين لغوية وعادات ومذائق وروائح ومناظر كونت جزءاً مألوفاً من نفسيته. وبالتالي فالمحب للوطن يشترق إليه ويحن. الرسول ﷺ حين هاجر من مكة إلى المدينة اشتاق إلى مكة وحن إلى وطنه حيناً شديداً.

روى البخاري عن عائشة أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهما فقلت: يا أبا عبد الله كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول: كل امرئ مصبح في أهله * والموت أدنى من شراك نعله، وكان بلال إذا ألقع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول: ألا ليت شعري هل أبيت ليلة * بواد وحولي انخر وجيليل . وهل أردن يوماً مياه مجنة * وهل بيدون لي شامة وطفيل. قالت عائشة: فجنّت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة». وفي رواية يقول: اللهم العن عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء.

أما الدولة فهي من دال يدول دولة من التداول، كما في كتاب الله تعالى في قوله: (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)، ودولة بالضم ودولة بالفتح لغتان، ولكن يقال إن الدولة في المال والدولة في الحرب، ويقال إن الدولة هي اسم الشيء الذي يتداول بعينه، والدولة هي الفعل. وقوله جل وعلا (دُولَةً) أي كيلا يتداول الأغنياء فقط بينهم، ولكن الدولة لفظة مختصة بالأمور الدنيوية المحبوبة لا سيما الغلبة. فأصل مصطلح الدولة في لغة العرب يدل ببساطة على السلطة أو "الغلبة" كما سمّوها بالتعبير القديم ودون هياكل معينة لهذه السلطة.

إلا أننا لاحظنا أن معنى الكلمة اللغوي قد تغير في العصر الحديث ليدخل فيه المعنى النظري السياسي المعاصر، ففي المعجم الوسيط مثلاً كما في غيره من المعاجم المعاصرة أنها: «جمع كبير من الأفراد يقطن بصفة دائمة إقليماً معيناً ويتمتع بالشخصية المعنوية وبنظام حكومي وبالاستقلال السياسي»، وهذا من

تأثر اللغة نفسها بالمفهوم الذي نشأ في الثقافة الغربية وتطور في الواقع الغربي، أي الأرض والشعب والسيادة.

وبما أن مفهوم الدولة الحديثة مفهوماً غربياً فلننتابحث فيه قليلاً من مصادره الفكرية واللغوية. أما في لغات الغرب، فكلمة "الدولة" عندهم اليوم (State بالإنجليزية، Stato بالإيطالية، Estado بالإسبانية، Etat بالفرنسية، der Staat بالألمانية) فأصلها الكلمة اللاتينية Status بمعنى الحالة، ولكن الكلمة التي استخدمها أرسطو ليست هذه وإنما كلمة سيفيتس (Civitas) وهي بمعنى الحاضرة أو المدينة، وليس الدولة بمعناها المعروف الآن. وعلى الرغم من أن كلمة (ستاتوس) (Status) كانت تُستخدم في العصور الوسطى للإشارة إلى الوضع القانوني للأشخاص، إلا أنها فقدت هذا المعنى بمرور الوقت، وارتبطت بالنظام القانوني للمجتمع بأسره وأدوات تطبيقه. ثم بعد ظهور ميكافيللي في أوائل القرن السادس عشر وكتابه "الأمير" ظهر استخدام كلمة الدولة في معنى آخر قريب من معناها الحديث، والذي هو معنى ميكافيللي بامتياز. والخلفية الميكافيلية لمفهوم الدولة المعاصرة مهم في فهمها ونقدها.

فقد سعى ميكافيللي إلى استكشاف آلية لتحقيق التوازن بين سلطة الدولة وإرادة المواطنين من خلال نصين أساسيين له، ألا وهما كتاب "الأمير"، وكتاب "الخطاب". وقد رأى في كتاب "الخطاب" أنه بعد موت الأجيال التي ابتكرت الديمقراطيات القديمة برز وضع جديد: "لا احترام فيه للفرد ولا المسؤول، وكان كل إنسان يفعل ما يريد ويرتكب مختلف الانتهاكات دون رادع. وعادت الإمارة من جديد بناءً على اقتراح من بعض المخلصين بسبب الحاجة الماسة إلى التخلص من الفوضى بطريقة أو بأخرى من خلال مجموعة من التحولات"، على حد قوله. وانتهى ميكافيللي إلى أن المخرج من تلك "الفوضى" هو تنظيم الدولة حسب القوميات. وبالتالي فالدولة الميكافيلية هذه هي وسيلة للحفاظ على النظام العام وليست هدفاً ولا تستدعي انتماء في نفسها.

ومن الإضافات المهمة في هذا السياق إضافة هيغل، والذي رأى في كتابه "فلسفة الحق" أن آلية الدولة يمكنها أن تحل الصراعات الحادة بين الأفراد من خلال تقديم إطار عمل عقلاني للتفاعل في المجتمع المدني من جانب، وتقديم فرصة للمشاركة -عبر شكل محدود من التمثيل- في تشكيل الإرادة السياسية العامة على الجانب الآخر. وبفضل الدولة فقط يمكن للمواطنين تحقيق ما سماه "التواجد العقلاني". ثم ظهر مفهوم الدولة ككيان له ما سمي "سيادة" (sovereignty - souverainete)، وهذه الخصيصة مضافاً إليها صفة الإقليمية هي السمة الأبرز للدولة الحديثة. ويُقصد بالسيادة أن تكون هناك سلطة جبرية عليا، أي أن تمتلك الدولة تلك القوة في إطار حد إقليمي معروف. وقد جاء في تعريف ماكس فيبر مثلاً أن الدولة هي احتكار الحق القانوني في استخدام قوة الإكراه المادية ضمن منطقة ذات حدود محددة. ولكن ما يميز الدولة الحديثة هو هذا السلوك الذي تصور به تلك المفاهيم على أنها حقائق مسبقة (أيديولوجية)، وتقوم تلك الأيديولوجية "الأسطورة" على نظرية مجردة للسيادة، يُنظر فيها إلى الدولة كفكرة مجردة بمعزل عن الحاكم والمحكوم.

وأساطير الدول العربية والإسلامية الحديثة هي من مخلفات الاستعمار بامتياز. فبعد الحرب العالمية الأولى جلس الوزيران الفرنسي فرانسوا بيكو والبريطاني مارك سايكس ووصلا لاتفاقية سرية عام 1916 بمباركة من الإمبراطورية الروسية وقتها على اقتسام الهلال الخصيب وبلاد الشام بين فرنسا وبريطانيا، ثم كشف عن تلك الاتفاقية الشيوعيون حين حكموا روسيا بعدها بعام، مما أثار الشعوب العربية شيناً ما، ولكن التقسيم مضى قدماً بمؤتمر سان ريمون عام 1920، ثم بغيره من المعاهدات والمذكرات مثل معاهدة لوزان عام 1923. ورسمت تلك الاتفاقيات ومثيلاتها في ما تلا ذلك من عقود حدوداً ظهرت لأول مرة في

التاريخ، وهي الحدود الحالية لكل من: العراق وسوريا ولبنان وتركيا والأردن، ثم فلسطين، والتي قامت "إسرائيل" فوق أجزاء كبيرة منها سنة 1948. وهناك قصص شبيهة بهذه القصة في فحواها وتلاعبات موازين القوى العالمية فيها إلى أن وصلنا إلى كل التقسيمات والحدود الأخرى تقريباً في عالمنا العربي والإسلامي بشكل عام.

إذن مفهوم "الدولة" ليس مفهوماً بسيطاً ولا "طبيعياً"، وإنما هو مفهوم سياسي ومركب ومتغير عبر العصور والسياقات والثقافات لا يمكن إدراكه فقط عن طريق سمات طبيعية متوهمة كسمات الأرض والشعب والسيادة، لأن هذا التعريف يختزل المفهوم في هذه السمات الثلاثة التي يُدعى أنها تحدد "طبيعية" الدولة وتحولها إلى "نظام" ثابت حتمي؛ وبالتالي تمنع العاقل من إعادة النظر أو التجديد أو النقد لهذه السمات أو النظم الناتجة عنها بالإضافة أو الحذف أو إعادة الصياغة. وليس المطلوب هنا هو "تفكيك" مفهوم الدولة حتى نمسي في فوضوية أو "أناركية"، ولكن المطلوب هو فتح الباب لإعادة صياغة المفهوم، وهناك فارق بين التفكيك دون تركيب، والتفكيك مع إعادة التركيب لتحقيق الغايات والمقاصد. وبالتالي فالوطن شيء والدولة شيء آخر، الوطن ينتمي إليه الإنسان غالباً لمدينة أو قرية وما حولها في دائرة معينة وكلما اتسعت الدوائر كلما خف هذا الانتماء العاطفي، ولكن الدولة هي نظام سياسي له حدود وسيادة، وتتحكم فيه السلطة في وسائل العنف من أجل الصالح العام، ويسعى أعضاؤه إلى التواجد العقلاني الذي ذكره هيغل.

أما إذا كانت وسائل العنف في خدمة الظلم والاستبداد والمستبدين، وكان الصالح العام تائهاً في أولويات السياسة والسياسات، وغاب "التواجد العقلاني" فجنسية الدولة لا ينبغي لها أن تختلط بحب الوطن، والتخلي عن جنسية الدولة أو حتى حمل أكثر من جنسية لا يعني عدم حب الوطن، بل لعل تفكيك دولة الاستبداد هو عين ما ينبغي فعله في سبيل الوطن.

تفكيك منظومات الاستبداد (٣): مقاصد الشريعة لكسر تحالف الاستبداديين السياسي والديني

الإشكالية الكبرى التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي هي الاستبداد السياسي. الاستبداد السياسي هو أس الفساد ومصدر البلاء،

وهو السبب الرئيس وراء الحروب والاختلاس واستغلال النفوذ والعنف الأهلي وضياح الحريات وانتهاكات حقوق الإنسان والتخلف الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وغير ذلك من أشكال الطغيان والظلم والفساد في عالمنا. وهذا ليس من باب إلقاء اللوم على الآخرين بل هو من باب التحليل للواقع وفهمه، واللوم هو علينا نحن أمة الإسلام الذين سمحنا لهذا الاستبداد في التغول والتعمق، أو كما يقول المصريون في طرافتهم المعهودة: (قالوا: يا فرعون إيش فرعنك؟ قال: ما لقيتش حد يلمنى)!

والاستبداد هو تفرد فرد أو مجموعة محدودة بالقرار العام وبالتحكم في مصائر العباد دون شرعية حقيقية أو وجه حق ولتحقيق مصالح ذاتية ضيقة على حساب مصالح الناس. وفي عالمنا العربي الاستبداد السياسي يحتكر السلطات الخمس (إن صح التعبير سياسياً): السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية والإعلامية بل والمجتمع المدني كذلك.

وتبعاً لذلك فليس هناك شورى حقيقية للرعية في إدارة شؤونهم أو السماع لأصواتهم ولا يكاد يسمع إلا حجة فرعون الخالدة: (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)، ويصحب ذلك أيضاً السطو على المال العام الذي هو في المفهوم الإسلامي (مال الله) أو (مال الأمة) واحتكاره واستعباد الناس به، فهؤلاء المستبدون يتصرفون في مال الأمة كما يحلو لهم دون رقيب أو محاسب، وكأنه ملك خاص بهم. والاستبداد السياسي المذكور له أشكال ثلاثة في عالمنا الإسلامي: الاستبداد العسكري السياسي، والاستبداد القبلي السياسي، والاستبداد العلمائي السياسي على طريقة ولاية الفقيه، وهو استبداد ذو طبيعة واحدة في كل من هذه الأشكال على اختلاف الصور والألقاب الظاهرة.

أما الاستبداد العسكري فهو أن يتحكم المسؤولون عن وسائل العنف في الدولة، والتي تتمثل في الدفاع الوطني أو قوة الجيش خارجياً والمتمثلة في الشرطة أو الأمن داخلياً - يتحكمون في القرار السياسي بسلطة القهر والعنف والإذلال ودون اعتبار لضوابط القانون والأخلاق التي تعطي الشرعية اللازمة لاستخدام وسائل العنف الرسمية، بل ويساندونهم في ذلك في عدد من البلدان قوات من العصابات أو المافيا المنظمة التي تصل أعدادها لمئات الألوف في مجتمعات الملايين، والتي تتخذ مسميات لمهنة جديدة غير شريفة في مجتمعاتنا مثل: البلطجية والشبيحة والبلطجة والحشود والميليشيات وغيرها. وقد رأينا بأم أعيننا في سياق (الربيع العربي) تلك العصابات كيف تتقدم المشهد في تصفية المعارضين والمتظاهرين، فتقف وراءهم القوات الرسمية الداخلية والوطنية يؤمنون لهم المكان عن بعد، كما رأينا بأم أعيننا في عدد من شوارع العواصم العربية خلال السنوات المنصرمة.

وأما الاستبداد القبلي والاستبداد العلمائي فهو أن يرتفع فوق الناس قوم من القوم لمجرد الانتماء لنسب معين أو لمؤسسة دينية معينة، ولكن هذا الارتفاع للقيادة تكون دون حمل المسؤوليات اللازمة للقيادة، بل تصنع لهم هالات من القداسة وتنسج حول وجودهم قصص من التاريخ القديم والمعاصر من أجل تعزيز سلطة استبداد هو أيضاً عسكري في معناه ومبناه، ولو اتخذ أشكالاً أبوية وأخوية وعلمية وادعى أشكالاً من الديمقراطية والشورى وسيادة القانون ودعاوى العدالة التي لا تسمن ولا تغني من جوع. ولكن هذا

الاستبداد السياسي في أشكاله كلها لا يمكن أن يوجد أو يستمر دون ظهير من نوع آخر من الاستبداد، ألا وهو الاستبداد الديني، ورحم الله عبد الرحمن الكواكبي فقد كتب عن ذلك وأفاض في كتابه: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. والاستبداد الديني في صورته الإسلامية معناه أن يدعي أناس تمثيل الإسلام بالأشكال والصور والألفاظ والألقاب، والإسلام منهم بريئ بالمقاصد والمعاني والمبادئ والقيم. ورغم ذلك فهم يحتكرون تعريف الإسلام ويتكلمون لغة الحلال والحرام، ويستشهدون في كل أمر بظواهر من المصدرين الأقدسين: الكتاب والسنة، ولكنه استنهاد في غير محله وتلبس في غير سياقه. ثم لا يرضى المستبد بالدين بالنقد لفقهه أو فهمه أو اجتهاده، بل يخلط بين سلطانه وسلطان الله تعالى عن ذلك، ويخلط بين نقد الناقدين لرأيه هو ونقدهم لشريعة الله نفسها، فيسارع إلى التكفير والتبديع والتفسيق تحقيقاً لأغراضه، والتي هي دائماً ما تدور حول خدمة المستبد السياسي وتثبيت أركانه.

والاستبداد الديني له نوعان، كلاهما يؤيد الاستبداد السياسي على طريقته ويشرعن له: استبداد ديني مع السلطة السياسية، واستبداد ديني معارض للسلطة السياسية. فأما الاستبداد الديني الذي هو مع السلطة، فهم علماء السلطة أو عملاء الشرطة، يشرعون لهم البغي والسرقة بل والقتل باسم الفتوى، ويخلطون بين مفاهيم الدولة الحديثة ونظامها ومفاهيم شرعية مثل: الطاعة والبيعة والعهد والسمع والطاعة والتقوى وما إلى ذلك. وبالتالي فالخطاب الإسلامي (الرسمي) يدور حول مفاهيم مثل: دار الإسلام، وأهل الحل والعقد، والبيعة، وأهل الذمة، والخارج، وغيرها من المفاهيم والنظم والجماعات التي انتهت تاريخياً، رغم أنه لا يصح منهجياً ولا شرعياً ولا عملياً أن نعتبر ببساطة ودون تدقيق أن أعضاء البرلمان المعاصر خاصة إذا وصلوا إليه في انتخابات غير نزيهة هم أهل الحل والعقد بالمعنى القديم، ولا أن الانتخاب المعاصر خاصة مع التهميش للمعارضين وسحقهم هو بيعة شعبية، ولا أن دول منظمة التعاون الإسلامي خاصة مع الفرقة والاختلاف والتنازع وعدم الشرعية هي دار الإسلام، ولا أن الأقليات الدينية والعرقية في ظل الدساتير المعاصرة هم أهل الذمة، ولا أن الفرق أو المذاهب هي أحزاب سياسية ولا العكس، ولا أن الذين يدعون إلى احتجاج سلمي أو عصيان مدني أو إثارة على الاستبداد والفساد هم (خارج)، وهكذا.

بل ويرقى (أو ينحدر) الاستبداد الديني كما يشرح الكواكبي: (بعوام البشر - وهم السواد الأعظم - إلى نقطة أن يلتبس عليهم الفرق بين الاله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بالقهر، فيختلطان في مضايق اذهانهم من حيث التشابه في استحقاق مزيد التعظيم، و الرفعة عن السؤال و عدم المؤاخذة عن الافعال ... يعظمون الجابرة تعظيمهم لله، و يزيدون تعظيمهم على التعظيم لله). فنجد الخلط بين الحكام والوزراء وبين الرسل والأنبياء، وكل ذلك في خدمة الاستبداد السياسي ودعم أركانه في نفوس البسطاء.

وأما الاستبداد الديني الذي يدعي أنه معارض للسلطة أو أنه ينصحها ويقومها باسم الإسلام، فأصحابه يخدمون المستبد أيضاً ولكن بشكل مختلف، فنجدهم يعرفون (الأجندة الإسلامية) و(المشروع الإسلامي) و(الإصلاح الإسلامي) تعريفاً ضيقاً مغرضاً يسيء إلى الإسلام أكثر مما ينصفه، ويجعلون من الشريعة مشكلة تعقد الواقع بدلاً من أن تكون حلاً لمشكلات الواقع، ويعبثون بأولويات الشريعة الإسلامية وأحكامها فيشوهون صورتها عند المسلمين وغير المسلمين، والشريعة كما يقول ابن القيم رحمه الله: (عدل كلها ورحمة كلها وحكمة كلها ومصلحة كلها)، ولكن الاستبداد الديني في هذه الصورة يتجاوز العدل والرحمة والحكمة والمصلحة وبقية المعاني والمقاصد، ويقف على الحرفيات والمظاهر وسفاسف الأمور، ثم تجدهم لا يفرقون بين الذنوب والجرائم، فيجعلون من سلطة الدولة الإسلامية التي يلتمون بها أن تراقب حركات الناس وسكناتهم وتعاقبهم إذا ظنت الشرطة أن شخصاً ما يرتكب محرماً مجمع عليه أو مختلف فيه، وبالتالي

فهم يزيدون من مساحات التحكم والاستبداد والتسلط ومعهم الفساد واستغلال النفوذ، ولكن باسم الإسلام هذه المرة.

وإذا أراد المستبد أن يكسب أصواتاً في انتخابات يضطر إلى إجرائها أو تأييدها من الشارع في وقت حرج، إذا هو ينحاز يميناً إلى الاستبداد الديني، فصار المستبد بين عشية وضحاها نصيراً للمواد الدستورية التي تجعل الشريعة مصدر التشريع أو (ال)مصدر للتشريع بإضافة الألف واللام وتعظيم هذا التغيير الشكلي المحدود وتضخيمه، وصار المستبد فجأة داعياً ومطبقاً للحدود الشرعية (والتي يبدأ فيها بأشد معارضيه وينسى في تطبيقها نفسه وحاشيته على أي حال)، وأضحى المستبد فجأة كذلك حارساً للأماكن المقدسة وباكياً على أعتابها ومؤيداً للشعائر والنوافل الظاهرة في أكمل الصور، ثم يصل المستبد إلى مدى الإسلاموية المزعومة فتجده منحازاً ضد المرأة سياساتياً وقانونياً باسم أشد الآراء الإسلامية ظلماً لها وهضماً لحقوقها وباسم الحفاظ على الهوية الأصيلة والتراث العتيق، وهلم جراً.

ويا للعجب أنه بسبب ضعف هذه الأمة وعجزها وجهل معظم أبنائها، تكون النتيجة فعلاً تأييداً أوسع للمستبد وتصديقاً لتوبته المزعومة وفرحاً بحدوده المشبوهة. ولكن مقاصد الشريعة الإسلامية هي المشروع الفكري الإسلامي ضد الاستبداد بأنواعه جميعاً: العسكري منه والقبلي، والقومي منه والإسلامي، والحرفي منه والمذهبي.

قناعتي أن نشر علم وفكر ومنهج وطريقة تفكير مقاصد الشريعة في قضايا الحياة جميعاً وقضايا السياسة والشريعة بالذات، هو إحدى أنجع أدوات تفكيك الاستبداد بكل منظوماته وأشكاله.

مقاصد الشريعة هي الأهداف والغايات والحكم والمعاني التي يدرکہا كل عقل سليم، والتي هي مقصودة في كل ملة وشريعة، وهي التي تمكن الناس العاديين من سؤال: لماذا؟! لماذا تحكمونا أنتم؟ وأي شريعة تمتلكون؟ ولماذا نجوع ونجهل ونمرض وفي بلادنا كل هذه الخيرات؟ ولماذا طبقنا هذه السياسات الفاسدة؟ لمصلحة من؟ ولماذا أصدرنا هذا القانون ولو كان جائراً؟ ولماذا أفتى المفتون بهذه الفتوى ولو كانت خطأ؟ ولماذا سجن هذا المعارض دون جريمة؟ ولماذا حرم هذا الإنسان من حقه؟ ولماذا لا نكرم المرأة والطفل والكبير؟ ... وهكذا دواليك.

مقاصد الشريعة هي التي تعرف الأولويات: فالضروري قبل الحاجي، والحاجي قبل التحسيني. إذن، لا يصح أن نصرف الوقت والمال والجهد في التحسيني الذي يغطي به المستبد على فشله في توفير الضروري ثم الحاجي، ولا يصح أن تضيع حرمة الدين أو النفس أو العقل أو العرض أو المال باسم أساطير وأوهام وألقاب وأحلام، ولا يصح أن نستهن بحرمة الحياة وهدف العدل ومعنى الشرف وقيمة الإلتقان وخلق النظافة ظاهراً وباطناً.

ومقاصد الشريعة هي التي تضبط الفتوى لكي تحقق الشريعة لا لتهدمها، وتجعل الدين رقيباً على السلطان لا خادماً له، وتجعل الشريعة دافعاً للأخلاق لا مضيعة لها، وتجعل المصالح العامة معياراً لنجاح السياسات لا الصور والأرقام الكاذبة.

إذا استطعنا أن نجعل القيم والمقاصد والأخلاق والغايات الكبرى هي معايير السياسات الحكومية، وأهداف الأحكام القضائية، وضوابط العمل الإعلامي، وقيم النشاط الفني، ورسالة المؤسسات المدنية، وإطار الفتوى الشرعية، حينها نكون فككنا جزءاً كبيراً من منظومة الاستبداد ومضينا قدماً في طريق الربيع الحقيقي.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤): الاستبداد الاقتصادي (الاحتكار والفساد)

كان قارون أحد الأركان الأساسية للمنظومة الفرعونية المستبدة. فرعون كان رأس الاستبداد السياسي، وكان يقول: {ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد}، وهامان كان - حسب أبحاث تاريخية معاصرة - زعيم الكهنة في معبد الشمس وبالتالي فقد كان رأس الاستبداد الديني الذي يخضع الدين لسلطان الفرعون بل ويؤله فرعون نفسه باسم الدين ويساعده في أكاذيبه. {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِباً} أما قارون فبغى على قومه وخرج عليهم في زينته وقال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي}، وكان رأس ما نسميه هنا الاستبداد الاقتصادي.

مر معنا وحدتان أساسيتان في منظومات الاستبداد التي نحاول أن نفهمها حتى يمكن أن نفككها: الاستبداد السياسي الذي يحتكر فيه ناس من الناس القرار السياسي ويسطون على إدارة الشأن العام فقط لصالحهم الخاص وكراسيهم الزائلة ومصالح دوائرهم الضيقة، ثم الاستبداد الديني الذي أيضاً يحتكر فيه ناس من الناس الحديث باسم الدين ويحرفون الشريعة ويضيعون معانيها ومقاصدها أيضاً لصالحهم الخاص وألقابهم الزائلة ومصالح مؤسساتهم الضيقة. والاستبداد السياسي لا يستمر دون استبداد ديني يشرعن له ويفتي بحل جرائمه بل بوجود تلك الجرائم شرعاً ودينياً.

ولكن منظومتنا الاستبداد السياسي والديني لا تستمران دون دعم المنظومة الثالثة من الاستبداد، والتي هي السلاح الأتجع والخداع الأكبر، ألا وهي منظومة الاستبداد الاقتصادي. والاستبداد الاقتصادي هو كذلك احتكار قلة من الناس للمصادر والثروات، والتي هي في عصرنا الشركات والأسهم والأراضي والأرصدة والمعادن، وأهم من ذلك المؤسسات التي تستهدف الربح ليس فقط ببيع السلع الاستهلاكية، بل ببيع الخبر الإعلامي والعلاج الطبي والشهادة التأهيلية ووسيلة الاتصالات، وغيرها من السلع التي أصبحت ضرورات يهلك دونها الناس فتذل رقابهم لملاكها الذين يحتكرونها فردياً أو عن طريق اتفاقيات احتكار جماعي.

وأرباب الاستبداد الاقتصادي ليسوا فقط من أولاد المستبدين السياسيين ووارثي الثروات، بل أسوأ أنواع المستبد الاقتصادي هو الذي يأتي من الطبقات الفقيرة والمهمشة التي هي ضحية الاستبداد بأنواعه أصلاً، ولكنه يتنصل منها ويظلمها ويتعالى عليها، ويعطي بخلفيته شرعية للاستبداد الاقتصادي وكأنه يوجد نظام لآتاحة الفرص يسمح للفقير أن يصبح غنياً، والعكس هو الصحيح. قال تعالى: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم)، فقارون كان من المستضعفين من بني إسرائيل، ولكنه باع قومه ليصبح جزءاً من نظام فرعون الباغي الظالم، وكان هذا هو زواج المال بالسلطة في ذلك العصر وفي كل عصر: تعاون المال والسلطة على البغي.

ولكن المستبد الاقتصادي لا يهمله من يحكم وأي إيديولوجية سياسية أو دينية يتبناها نظام الحكم. كل ما يهمله هو ما تسميه أبقاؤه الإعلامية (الاستقرار)، والذي يعرفونه أنه إتاحة الفرصة للفساد والإفساد دون

معارضة أو احتجاج يعكس صفو الحياة الاجتماعية. أما إذا كان هذا (الاستقرار) فيه فرص أقل للفساد والرشوة والاختلاس وغسيل الأموال، فسيثور المستبد الاقتصادي ثورته الخاصة حتى يزعزع الاستقرار ويضطرب المجتمع ويتاح الفساد والإفساد.

وثورة المستبد الاقتصادي هو في التلاعب بالاقتصاد والأسعار والسلع الأساسية، والتي هي جميعاً خيوط في يديه قادر على شدها متى شاء نظراً للاحتكار، بل إن هذا هو تعريف الاحتكار. ولكن الاستبداد الاقتصادي هو الاحتكار الذي يأتي مع الفساد وليس الاحتكار الذي يستهدف الصالح العام أو تحقيق العدالة الاجتماعية. الاحتكار كوسيلة بحتة قد يُستخدم في الدول المعاصرة للصالح العام وتحقيق العدالة الاجتماعية، وذلك مثل احتكار بعض الدول المتقدمة للتعليم فلا تسمح أصلاً بالتعليم الخاص، أو للطب والعلاج فلا تسمح أصلاً بالعلاج الخاص، أو بشركات الاتصال فلا تسمح بشركات اتصالات خاصة. وهذا النوع من الاحتكار إذا حدث في دول فيها نظم مساءلة وشفافية كان هدفه الصالح العام والتأمين لتلك الخدمات الأساسية وضمان مستوى عال ومراقب من الخدمة.

هذا لا يدخل تحت حديث الرسول ﷺ: المحتكر خاطئ. المحتكر الخاطئ هو الذي يحتكر السلع والخدمات الضرورية في منظومة اقتصادية مصممة أساساً لتخدم الفساد، وهنا يركز الأفراد المحتكرون على احتكار وسائل الإصلاح في المجتمع، وهذه هي الطامة الكبرى لأن هؤلاء الأفراد يحتكرون الإعلام والتعليم والصحة والنشر والطب وغيرها من الخدمات والوسائل التي هي أساساً لإصلاح الشعوب وتقويم الخلل بها. فإذا تحولت هذه الخدمات إلى سلع محتكرة كان المحتكرون هم أول من يمنع تقدم الشعوب في أي من هذه المجالات، وهم طبعاً أول من يقف ضد الحراك الشعبي المطالب بالخير والحرية والعدالة الاجتماعية. بل ومن سمات الاستبداد الاقتصادي تقنين الفساد حتى تصبح كل تلك الجرائم التي نذكرها مشروعة بالقانون ومحمية بسلطة الدولة.

والاستبداد الاقتصادي يخدم الاستبداديين السياسي والديني بل ويمنّ عليهما عن طريق هذه الوسائل التي يحتكرها. فأبواق الإعلام، ومجالات الاتصال، ومناهج المدارس، ودور النشر، فضلاً عن السلع الأساسية والخدمات الضرورية، كلها في أيديهم، ويملكون قفلها وفتحها لخدمة الاستبداد في صورته الأخرى السياسية والدينية.

الاستبداد الاقتصادي يملك مفاتيح السلطة الناعمة التي تخدم السلطة الخشنة. ثم إن الاستبداد الاقتصادي ليس حكراً على الأغنياء والقطط السمان وأولاد ونسائب الحكام، بل هو ثقافة عميقة في الشعوب تأكل قواها وتهدمها من الداخل. كل من يحتكم على قوة اقتصادية من أعلى الهرم إلى أسفله يحتكر هذه القوة لصالحه الخاص، ويتلاعب بالمعلومات واللوائح والخدمات على مستواه من أجل تحويل الثروة من الصالح العام إلى جيبه هو شخصياً. ولذلك، فلا بد في عملية تفكيك الاستبداد الاقتصادي أن نبدأ بالمحتكرين الصغار أصحاب الأعمال الصغيرة وذوي المسؤولية المحدودة، لأن تحقيق نجاحات على مستوى المستبددين الصغار هو الذي يصنع كرة الثلج التي نحتاجها من أجل التخلص من المستبددين الكبار الذين لن يكون إخراجهم من لعبة الاستبداد السياسي والديني سهلة.

وقد يسأل سائل: هل هناك حد أقصى للغنى في الإسلام؟ هل هذا الكلام في صالح تبني الاشتراكية ونظامها مثلاً؟ والجواب: لا، ولكن هذا لا يعني أن الإسلام نظام رأسمالي بالضرورة ولا أنه يتبنى فلسفة السوق الحر كلها بالضرورة، ولا يعني إباحة الغنى في الإسلام أن يباح الاحتكار خاصة في الصورة التي تصنع المستبد الاقتصادي.

وقد يدعم قارون مشروعات هامان. قد يشترى الاستبداد الاقتصادي الاستبداد الديني عن طريق رعاية مزعومة للعمل الخيري والبرامج الدينية وبعثات الحج وترميم المساجد ومسابقات حفظ القرآن الكريم والدراسات الإسلامية الشرعية. وهذه الرعاية تضمن للمستبد الاقتصادي السلامة من النقد باسم الشريعة، بل يصور المستبد الاقتصادي في الخطاب الديني على أنه صاحب الفضل في الرعاية وعلى أنه متدين فاعل للخير، ولا يسأله أحد طبعاً من أين أتى بثروته الخارجة عن منطق الكسب المشروع؟ ولا يبحث أحد في حكم الاحتكار والمحكرين، ولا في علاقتهم بالطغاة والمستبدين السياسيين.

ولذلك فالبرامج والمؤسسات الدينية المدعومة من المستبدين لا تعلم الناس عن العدالة الاجتماعية في الإسلام، ولا عن مقاصد الشريعة في تقديم الضرورات على الحاجات، والحاجات على التحسينات والاستهلاكيات، ولا تفتي للناس أن الاستهلاكيات غير ضرورية ولا ينبغي أن يلتهي بها الناس، وأن التصنيع والإنتاج واجب شرعي لأبد أن يقوم بعدد كاف ونوعية كافية للأمة، ولا أن إنتاج الطعام الترفيهي الغير صحي حرام، ولا أن التلوث البيئي الذي تخلفه الشركات العابرة للقارات في الماء أو الجو معصية، ولا أن قطع الشجر وتجريف التربة الخصبة والتلاعب بالجينات الحيوانية والنباتية كبائر من كبائر الذنوب.

وأخيراً: فإن أسوأ أنواع الاستبداد الاقتصادي هو الذي يقوم به المستبدون السياسيون أو المستبدون الدينيون، أي بعبارة أخرى أسوأ أنواع رجال الأعمال هم رجال الدولة أو رجال الدين. لا يصح أن يشتغل رجال الدولة ذوي المسؤولية التنفيذية أو أرباب الخدمة العامة بالتجارة و(البنزس) فيخلطون بين السلطات ويستغلون نفوذهم السياسي من أجل مزيد من المكاسب في جيوبهم. بل ينبغي على صاحب المسؤولية العامة أن يتجرد لها ويجعل بينه وبين استثماراته إن كان له استثمارات مسافة لا تختلط فيها الأوراق.

والأمر أشد في حال العلماء ودعاة الإسلام وحراس الشريعة: لا يصح أن يشتغل هؤلاء بالتجارة و(البنزس) إلا في حدود لا يخلطون فيها بين سلطتهم الدينية والأخلاقية وبين التجارة، ولا يستغلون نفوذهم الديني على العباد من أجل مزيد من المكاسب في جيوبهم، بل على العكس ينبغي أن ينفقوا من ما رزقهم الله في خدمة الدين ورفع شأنه. ينبغي على حراس الشريعة ودعاة الإسلام الحقيقيين أن يتجردوا له ويجعلوا بينهم وبين التجارة والاستثمار مسافة لا تختلط فيها الأوراق. ومن أهم استراتيجيات التفكيك لمنظومات الاستبداد أن نقطع الروابط ونكشف التشابك بين تلك الأنواع الثلاثة من الاستبداد: الاستبداد السياسي والاستبداد الديني والاستبداد الاقتصادي.

تفكيك منظومات الاستبداد (٥): شورى المستبد والإعلام الكاذب

من الاستراتيجيات الفرعونية الأساسية أن يوصف فرعون وحاشيته الواقع توصيفاً كاذباً، ويستخدمون شكلاً أو آخر من أشكال الإعلام لنشر هذا التوصيف الكاذب على الناس وتأييده بأكاذيب أخرى كثيرة حتى يجعلوا من الكذب حقيقة لا مرأى فيها،

ثم بعد أن يصبح الكذب حقيقة يستشير المستبد وملؤه الناس: ماذا تأمرون؟ فقد طلب موسى من فرعون ببساطة أن يرسل معه بني إسرائيل خارج مصر وأن يكف عن قتلهم وتعذيبهم واستعبادهم. {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} الأعراف 104-105

ولكن الثلاثي فرعون وهامان وقارون قرروا التمادي في الظلم والاستكبار عن قبول الحق أو التنازل عن منظومتهم الفرعونية السياسية والقانونية والاقتصادية والهامانية الدينية الفاسدة. {وَقَارُونُ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} العنكبوت 39. بل ونلاحظ في هذه الآية أن الله تعالى بدأ بذكر قارون قبل فرعون وهامان، مما يدل على خطره ودوره الكبير في الاستكبار المذكور والدعم المادي للباطل، ولا يخفى دور المال والاستبداد الاقتصادي والمحتكرين الفاسدين في التحكم في وسائل النشر والإعلام كما ذكرنا من قبل.

ولكن في العصور القديمة كان النشر والإعلام عن طريق إرسال من ينادي في الناس في المدن والحواضر الكبرى بأخر الأخبار والتصريحات، ويجمعونهم أو يحشرونهم على فهم مشترك وتوصيف مشترك للواقع كما يريد المستبد. {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ *} الشعراء 53-56. وهؤلاء الحاشرون أيضاً كانوا يجندون الأعوان ويوظفون القدرات من المدائن المختلفة في خدمة الاستبداد. {وأرسل في المدائن حاشرين* يأتوك بكل ساحر عليم* وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين* قال نعم وإنكم لمن المقربين} الأعراف. وعمل فرعون مع الملأ بشكل لصيق وخاطبهم وأشاع باطله فيهم أولاً. قال مثلاً: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} القصص 38. وبالتالي يتجاوب الملأ أو الحاشية على فرعون بتصور متكامل لعالم كاذب، عالم يصبح فيه المصلحون فاسدين بل ومفسدين لملة الناس. {وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} الأعراف 127

ثم يتحول الملأ للناس فيصورون لهم أيضاً أن الوطن أرضهم حكر على من يؤيد فرعون فقط وأن الآخرين لا ينتمون لهذا الوطن ولا هذه الأرض التي هي أرض من يؤيد المستبد فقط. {قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}. {قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} طه 63. {قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} الشعراء 34-35.

وبعد هذا التوصيف الباطل للحقائق يدعي فرعون أنه يترك القرار للملأ ويستشيرهم، ثم يدعي الملأ بدورهم أنهم يتركون القرار للناس ويستشيرونهم وأن الأمر أمر الناس: {مَاذَا تَأْمُرُونَ؟}، وما هو بأمر الناس ولا قرار الناس وما هي شورى ولا استشارة، وإنما الإشكال هو أصلاً في التوصيف الباطل للحقيقة والواقع

مما يؤدي إلى قرار جماعي خاطئ أصلاً، قرار بالإقصاء والتهميش والقتل المعنوي لخصوم فرعون بحجة حماية الأرض والوطن.

ولكن فرعون والملأ لا يقتصرون على القتل المعنوي بل إذا سمحت موازين القوى لا يتورعون عن القتل الحقيقي نفسه، دون محاكمة ولا اتهام ولا دفاع. {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمُلَأَّ يَأْتُمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنَّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} القصة 20. {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} الأعراف 127.

ومن أجل تنفيذ القتل فالحاشية لها أعوان من القتلة المحترفين في كل عصر، والذين يعرفون في عصرنا بالشبيحة أو البلطجية أو البلاطجة أو الميليشيات أو الحشود، وما إليها من أسماء، والذين هم جزء من جنود الفرعون. {وَأَسْتَكْبِرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ}. {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنٌ وَثَمُودَ}. وكل هذه الجرائم بدأت بدور فرعون والملأ والحاشرين في التوصيف الكاذب للواقع فأيدها الناس وباركوها. {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ}. كان هذا دور (الملأ) و(الحاشرين) في قصة فرعون كما رواها القرآن، ولكن ما أشبه الليلة بالبارحة. ما أشبه المستبدين المعاصرين بالفراعين القدماء، وما أشبه قوارين وهوامين هذا العصر بقارون وهامان، وما أشبه الصفوة من المستشارين المزورين بالملأ من قوم فرعون، وما أشبه الإعلاميين الكاذبين في عصرنا بالحاشرين الكاذبين في مدائن فرعون.

تفكيك منظومات الاستبداد (٦): الاستبداد كثقافة مجتمع

مر الحديث عن منظومات الاستبداد: السياسي منها والاقتصادي والديني، وما يلحق بهن من مؤسسات تحتكر القرار السياسي والثروة الاقتصادية والرأي الديني، وما يعيب ذلك الاحتكار من فساد سياسي يحافظ على السلطة أكثر من المحافظة على مصالح الناس، وفساد اقتصادي يوظف مرافق الدولة والخدمات العامة لصالح القلة المحتكرة المتحالفة مع الاستبداد السياسي، وفساد ديني ينحرف فيه قلة من أدياء العلم بالدين ليشرعنوا ويفتوا للفساد السياسي والاقتصادي ويخضعوا الناس لهما. ولكن الإشكالية الكبرى في الاستبداد ليست فقط في المؤسسات الحكومية والحكام المستبدين، وإنما الإشكالية هي أن الاستبداد متوغل في عمق ثقافة المسلمين والعرب أنفسهم على كل المستويات، أي ثقافتهم السياسية والاقتصادية والدينية، وكما تكونون يولى عليكم. بل إن الاستبداد في ثقافات العرب والمسلمين هو الأساس الحقيقي الذي يستند إليه الاستبداد في صورته المؤسسية الحكومية. أما الاستبداد السياسي بالسلطة والتعسف والظلم في استخدامها، فقد أخذ في أيامنا شكلاً جديداً في ثقافة العرب والمسلمين بشكل عام، فنرى عياناً بياناً اضطهاداً وعنفاً وظلماً من عموم الناس لآخرين مثلهم من عموم الناس لمجرد المخالفة في الرأي والتوجه واللون السياسي، ودون جريمة ولا ذنب إلا هذه المخالفة، ولا يسود الحوار السياسي العام إلا منطق التخوين والتفسيق وتبادل التهامات، ولم يعد المناخ السياسي العام يحتمل التنوع ولا المخالفة في أدق التفاصيل، بل تتجه البلاد العربية والإسلامية بسرعة نحو الحروب الأهلية بين كل المجموعات والألوان السياسية.

والأدهى من ذلك أن الاستبداد أصبح سمة عامة لكل ذي سلطان على عباد الله ولو لم يكن في مجال السياسة بالمعنى التقليدي لها، من الرجل مع أسرته، والمرأة مع أولادها، والمدير في العمل، وصانع السياسات واللوائح في المؤسسات المدنية، ورؤساء وعمداء المؤسسات الأكاديمية والعلمية، ورموز المؤسسات الفنية، ومديري المستشفيات الطبية، وهلم جراً.

ويتجلى الاستبداد السياسي في احتكار القرار العام، والولع بالتحكم في مصائر الناس، وغياب الشفافية والشورى، وتحويل المؤسسة العامة بما فيها ومن فيها إلى ملك خاص يخدم المصلحة الخاصة لصاحب القرار العام، ثم أخيراً "توريث" المدير المؤسسة العامة لأبنائه من بعده وهم ليسوا مؤهلين للقيادة. وتوغلت هذه الممارسات في أوصال الثقافة الإدارية في العالم العربي والإسلامي على كل المستويات المجتمعية والمؤسسية. فالرجل مع أهل بيته صار يحتكر قرار الأسرة العام احتكاراً في كثير من العوائل، رغم أن الزوجة تشارك وتعطي أكثر منه في غالب تلك الأحوال وقد تكون أفهم وأوعى، والأولاد قد يكونون على درجة جيدة من الوعي والعلم على الأقل بمصلحتهم، ولكن نجد الأب المستبد يزوج البنات وأحياناً البنين حسب مصالحه الخاصة، ويرفض من يتقدم لزواج بناته حسب أهوائه الخاصة لا حسب الدين والأمانة، والأب يملئ على الزوجة والأولاد دون وجه حق ما يدرسون وفي أي مجال يعملون ومع من يتكلمون وكيف يأكلون ويشربون، ثم نجد افتقار الشفافية والوضوح في تعاملات رب الأسرة مع أسرته أيضاً كسمة مجتمعية عامة، فليس هناك مصداقية في الوعود ولا مبررات واضحة للقرارات الأسرية الكبيرة التي يحتكرها الأب دون وجه حق.

وبالتالي ينشأ الجيل الجديد لا يعرف إلا الاستبداد طريقاً والعنف منهجاً، وليس عندهم القدرة على فهم أو التعايش مع نظم أخرى غير استبدادية. وأما مديرو المؤسسات المدنية وعمداء المعاهد الأكاديمية ومسؤولو المرافق العامة فالاستبداد هو السمة العامة في الإدارة إلا نادراً، سواء من الرجال أو من النساء على كل المستويات. القرار العام لا يؤخذ من أجل الصالح العام ولا في سبيل أهداف المؤسسة المجتمعية أو أهداف الجامعة العلمية مثلاً، وإنما القرار الإداري العام هو لصالح المدير أو الرئيس أو العميد أو المسؤول شخصياً قبل وبعد أي اعتبار آخر، في صورة مال يدخل جيبه أو نفع يعود على أولاده أو دوائر قراباته، أو على أحسن تقدير يتخذ القرار العام لخدمة تحيزات المدير الجغرافية والقومية والمذهبية المختلفة. والشورى الإدارية هي ممارسات شكلية في غالب المؤسسات والشركات والجامعات والمعاهد والمرافق العامة، تماماً كما هي في الدولة نفسها. وبالتالي فعملية الشورى لا علاقة لها بمفهوم الشورى الحقيقي، بل هي بالأساس لتصنيف أصحاب الولاء للمدير ممن لديهم استعداد لدفع الثمن من قيمهم الأخلاقية وتاريخهم المهني من أجل إعطاء شرعية شكلية للقرار العام، والمقابل هو مصالح شخصية ضيقة على مستويات أهل الشورى المختلفة، كل حسب تحيزاته ومصالحه الضيقة كذلك. وبالتالي فتقييم العاملين والموظفين والمدرسين والأساتذة ومعايير الثواب والعقاب هي هي كما في الدولة والحكومة، لا تتعلق بجودة الأداء ولا إتقان العمل وإنما تتعلق بمستوى المسيرة للسيد المدير وإرضاء رغباته والولاء له. ثم يريد كل مدير في عالمنا أياً كان وفي كل مجال أن "يورث" أبنائه الإدارة من بعده، فيصبح ابن مدير المستشفى مديراً لها بعد أبيه ولو كان غير مؤهل لذلك، وأستاذ الجامعة أستاذاً بعد أبيه ولو كان غير مؤهل لذلك، والفنان فنان بعد أبيه ولو كان غير مؤهل لذلك، بل وقاضي المحكمة، ووكيل النيابة، وعميد الشرطة، ولواء الجيش، ورجل الإعلام، وهلم جراً.

التوريث الاستبدادي انتقل من الملكيات إلى الجمهوريات، ثم إلى كل مستويات الإدارة في عالمنا العربي والإسلامي! حين دعا سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن تراث ذريته الإمامة قال تعالى: (لا ينال عهدي الظالمين)

والاستبداد الإداري هو هو الاستبداد السياسي الفرعوني ولكن في صورة مصغرة، وهو بالتحديد سر وجود مؤسساتنا العلمية والتعليمية والحقوقية والبيئية والفنية والطبية والإعلامية وغيرها في ذيل الأمم وفي قاع الترتيب في عموم المعايير العالمية. وأما الاستبداد الديني فهو كذلك لا يقتصر على رؤساء المؤسسات الدينية الذين يعينهم الحاكم كامتداد له ولخدمة نظامه وتثبيت أركانه، بل الاستبداد الديني هو ثقافة عامة عند عموم الناس على اختلاف أدوارهم الدينية ونفوذهم الديني.

إمام المسجد الذي يعلم المصلين الدين ويفتيهم في الأمور اليومية مستبد صغير إلا من رحم الله، لا يقبل أن يصححه أو يقومه أحد، ولا يريد أن يسمع أو يتعلم، ولا يرحب بالمرأة ولا الطفل في المسجد، ولا يقبل الخلاف المذهبي والتنوع الفقهي، ولا يسمح للمخالفين لطريقته بدخول المسجد فضلاً عن التصدي لتعليم الناس، ولا يقبل من أصحاب الرأي أو الفكر رأياً في مسألة أو دعاء على ظالم أو توجيهاً في سبيل الله والمستضعفين.

وأما الاستبداد الاجتماعي باسم الدين فحدث ولا حرج، فباسم الدين تنتهك حقوق المرأة فلا تتبواً منصباً ولا تدخل مسجداً ولا تدلي بشهادة ولا تراث نصيباً مفروضاً ولا تستلم نفقة مشروعة ولا تختار زوجاً ولا تطلقه ولا حتى تسوق سيارة في بعض المجتمعات. ولن يبدأ التخلص من الاستبداد الديني المعاصر قبل أن نواجه قضية المرأة وتهميشها وهضم حقوقها الشرعية باسم الدين والدين من ذلك براء.

ضربنا هنا أمثلة حسب ما اتسع المقام للاستبداد كثقافة سادت عالمنا العربي والإسلامي على كل مستويات القرار العام. ولن نستطيع أن ننهض على أي مستوى حتى تتغير الثقافة الدينية العامة من أبسط صور الممارسة الدينية إلى أعلى درجات الفتوى، فنقبل التنوع والاختلاف في حدود ثوابت الشرع وقابليته لتعدد الأفهام والآراء، وحتى تتغير الثقافة الإدارية من أسفل درجات الهرم الإداري إلى أعلاه، حتى تكون العبرة بالمصلحة العامة لا المصلحة الخاصة خارج الحقوق والتشريعات، والنفع العام لا النفع الخاص، وأهل الكفاءة لا أهل الولاء. ولن نستطيع أن نتخلص من الاستبداد في صورته السياسية حتى نتخلص من الاستبداد في صورته الدينية والاجتماعية.

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). صدق الله العظيم.

تفكيك منظومات الاستبداد (٧): الاستبداد وثقافة العنف والإرهاب

لا يمكن أن نتحدث عن الاستبداد وأشكاله أو نفكك منظوماته دون أن نتحدث عن ثقافة العنف و"الإرهاب" وأشكالها ونفكك منظوماتها. فالاستبداد بأنواعه السياسي والديني والاقتصادي بينه وبين الإرهاب تشابه بل وتحالف وتآزر وتعاقد، ولو دق على الكثيرين فهمه وخفى عليهم حقيقته. أولاً، الاستبداد يؤسس لثقافة عنف في المجتمع لأنه هو نفسه يقوم على سياسات عنيفة في فرض الواقع الاستبدادي، وعلى منطق العنف في إكراه القوي للضعيف على قبول هذا الواقع أو الموت إن قال له لا. قانون الاستبداد هو قانون الغاب.

ولكننا لا بد أن نذكر مبدئياً أن الحديث عن العنف هنا ليس حديثاً عن العنف المشروع، والذي من المفترض أن تمارسه السلطة في كل دولة نيابة عن المجتمع ضد الجريمة وطبعاً في إطار القانون العادل الذي تواضع عليه المشرعون الممثلون للناس. هذا العنف المشروع ليس "إرهاباً" وإنما هو ضمانة الاستقرار والأمان في أي مجتمع، والحفاظ على مؤسسات الدولة التي "تحتكر وسائل العنف" في إطار أحكام وروح القانون هو حفاظ على المجتمع ومصالحه الكبرى وإقامة العدل فيه.

ولكن هذا العنف المشروع يشمل كذلك الدفاع المشروع عن النفس إذا اعتدى على حرمتها معتدي ولم يكن هناك وسيلة سلمية لدفع هذا الاعتداء، ويشمل كذلك القصاص المشروع شرعاً وقانوناً من القتل ومنتهكي الأعراض: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ). وهذا الدفاع العنيف عن النفس التي حرمها الله وردع من يزهقها أو ينتهك عرضها بغير حق، مكفول في كل قانون وضعي وفي كل شريعة سماوية. ولكن الحديث هنا هو عن العنف خارج الإطار المشروع ولتحقيق مصالح ومآرب شخصية أو أيديولوجية، والذي هو ديدن الاستبداد في كل أشكاله الفردية والجماعية، حكومية وغير حكومية، سياسية كانت أم دينية أم اقتصادية.

ولا بد أن نعلم أن مفهوم العنف الإرهابي لا يقتصر على قتل الأبرياء سواء من المدنيين أو القوات النظامية، أو الجرح أو التعذيب البدني بالضرب أو الجوع أو هتك العرض أو منع العلاج الطبي أو غير ذلك، رغم أن هذه كلها من أسوأ أنواعه. العنف الإرهابي يدخل فيه أيضاً العدوان اللفظي من شتائم وسباب وإهانات واتهامات بالباطل في الدين والذمة والعرض، ويدخل فيه الاعتداء على حرية الإنسان بالحبس ظلماً أو التقييد الغير مشروع عن التعبير والحركة والتجمع والاختيار الحر في شؤون الحياة، ويدخل في مفهوم الإرهاب عندي كذلك ما نطلق عليه في عصرنا العنف ضد المرأة، والذي يعتدي فيه ذكور الأسرة وذكور القبيلة وذكور المجتمع (ولا أقول رجال لأنه ليس كل ذكر رجل) يعتدون على الإناث جبروتاً وتعنتاً وسفالة، ويدخل في العنف ويؤسس للإرهاب - بل هو من أسوأ أنواع الإرهاب - إرهاب الدول في الاعتداء بالحرب التي يسمونها استباقية تارة وبالحصار الاقتصادي تارة، فيقتلون ويجيعون الشعوب دون أن يؤثروا على السياسيين الفاسدين في شيء، ويقتلون المدنيين والضعفاء والمرضى والأطفال الذين لا ناقة لهم ولا جمل في الصراع السياسي، وكذلك السياسات الإرهابية لبعض الدول والشركات العابرة للقارات والتي تعتدي على البيئة والتربة والماء والهواء والحيوان والنبات في بلاد العالم الثالث المتخلفة فتؤدي إلى وفيات وكوارث صحية للملايين من البشر ولو كانت بطيئة وبعيدة المدى. هذا كله يدخل في العنف والإرهاب.

والعنف والإرهاب بشقيهما البدني والمعنوي أصبحا سمة صبغت الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات المعاصرة خاصة مجتمعاتنا العربية للأسف، فلا تكاد يخلو بلد من الإرهاب من جانبيه: إرهاب

المعارضة وإرهاب الدولة، ولا يكاد يخلو حوار سياسي من السباب والقذف والتخوين والتكفير، بل ولا تكاد تخلو من أشكال العنف اللفظي والمعنوي والافتراضي كل لعبة إلكترونية ومباراة كرة وعمل فني وبرنامج إعلامي، إلا من رحم الله. ثم إن الاستبداد بأنواعه السياسي والديني والاقتصادي يستقر ويتمدد بناء على أساليب العنف والإرهاب. أما الاستبداد السياسي فأساليبه الإرهابية مفصلة في القصص القرآني الذي يعرض النموذج الفرعوني الهاماني مثل: السباب والاتهامات الباطلة: (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ). (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ). (قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ جِرَانٍ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ)، والسجن ظلماً: (قَالَ لَنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ)، وقتل النفس وهتك العرض: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)، والفتنة بين الناس والفساد في الأرض: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ). (فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)، والتعذيب والإعاقة والقهر: (لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ). (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ). (فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ). إلى آخره.

ولكن الاستبداد السياسي كما كتبنا سابقاً لا يقتصر على الحكومات المستبدة بل هو حالة عامة وثقافة عميقة في الشعوب قبل أن تكون في حكامها. فالمشتغلون بالشأن السياسي من "المؤيدين" و"المعارضين" للنظم السياسية ينتهجون العنف والإرهاب بينهم ودون اعتبار من كلا الفريقين لسلطة القانون ومعايير العدل والإنسانية، ولا يعبأ كلاهما بدماء الأبرياء التي تراق ولا أعراضهم التي تنتهك من الجانبين. المؤيدون للنظام الاستبدادي المدعومون بقوته وإعلامه يتهمون الناس بالباطل بمجرد الرأي أو النسب أو بطاقة الهوية أو الرزي أو الانتماء السياسي، فيمارسون عليهم العنف والإرهاب من دون تهمة ولا ادعاء ولا محاكمة عادلة. والذين يدعون المعارضة أيضاً يتهمون الناس بالباطل بمجرد الرأي أو النسب أو بطاقة الهوية أو الرزي أو الانتماء السياسي، فيمارسون عليهم العنف والإرهاب من دون ضابط ولا خلق ولا دين. هؤلاء وأولئك ليس بينهم فارق أخلاقي، فكلا الفريقين يمارس الإرهاب ولو كان أحدهم "مع" والآخر "ضد". وأما أصحاب الاستبداد الديني - مؤيدين ومعارضين - فالدين في مذهبهم لا يتعلق بكلام الله تعالى وإنما يدور مع هواهم، ولا بمثال المصطفى ﷺ بل بمثال السفاحين والمتغلبين والطغاة. فإذا قال الله تعالى عن يوم القيامة: (الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)، قالوا: بل نحكم على الناس هنا في الدنيا ونقرر من يدخل الجنة شهيداً ومن هم "كلاب النار" على حد التعبير القبيح الشائع اليوم بين هؤلاء وأولئك، وإذا قال تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)، قالوا: لسنا مذكرين بل مسيطرين على الناس بقوة السلاح. وإذا قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)، قالوا: بل سنكره الناس لا على الإيمان فحسب وإنما على رأينا في كل صغيرة وكبيرة. وإذا قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)، قالوا: لا نرضى بالاختلاف في الرأي ولا الأسلوب ولو في إطار القانون والشرع، ولا حل إلا العنف مع المخالفين الخوارج الخونة المرتدين ... إلى آخره.

ويتخذ الاستبداد الديني شكلاً آخر في صورة أعضاء جماعات ومؤسسات دينية - مؤيدين ومعارضين - يدعون أنهم يناصرون الحق ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإذا هم يقتلون الأبرياء، ويقسون على

الضعفاء، ويكسرون المرأة ويهدرون كرامتها، ولا يرحمون المذنبين، ولا يحافظون على العهود مع غير المسلمين. وضاع الدين بين المستبدين بالدين، مؤيدين ومعارضين.

وأما أصحاب الاستبداد الاقتصادي الذين يحتكرون ثروات الناس بالفساد والرشوة واستغلال النفوذ فالإرهاب في حقهم هو في الإنفاق على الإرهاب وتمويله في شتى صورة الفردية والجماعية والحكومية أيضاً. المحتكرون الفاسدون هم الذين يشترون السلاح ويوردونه ويهربونه لكل الأطراف في كل صراع، ويحملون الحطب للنار كلما خفتت من خلال احتكارهم للإعلام وأدواته.

وهناك فرع مهم من فروع الاستبداد الاقتصادي وهو المتعلق بتجارة السلاح. فمصنعو وتجار السلاح ووسائل التعذيب والعنف والقمع بكافة أشكالها في هذا العالم - سواء من الشركات أو من الدول - لهم مصلحة وجودية في استمرار الاستبداد وما يجلبه من الحروب والفتن والتفجيرات والصراعات الأهلية والقومية واستمرار "الإرهاب" على كافة الأصعدة، بل إنهم لن يألوا جهداً في إيقاد نار الحرب كلما أُطفئت وزعزعة الأمن كلما استقر. وهؤلاء الناس لا يكادون يُذكرون في الإعلام ولا الخطاب العام، رغم أن قرارات الحروب وأسباب الفتن غالباً ما تعود إليهم وتصب أولاً في مصلحتهم. تجار السلاح مكون هام من مكونات الاستبداد ينبغي الوعي به وكشفه ومحاسبته.

وإذا كان القانون والشرع في كل ما سبق من حديث هو الفيصل بين القوة المشروعة والإرهاب المرفوض، وبين الدفاع المشروع قصاصاً والاعتداء الأثم على الحرمات، فلا بد أن نعي كذلك أن المستبدين على أشكالهم قد يتلاعبون بالقانون نفسه أو الشرع نفسه من أجل تبرير وتمرير وشرعنة أفعالهم وخدمة مصالحهم الضيقة. وهذا أمر خطير للغاية نظراً لأهمية وحساسية القانون والشرع. فإذا تحول القانون والشرع إلى مجرد وسائل لخدمة الاستبداد ضاع الأمل في نفوس الشباب وانتشر العنف والإرهاب. ثقافة العنف والإرهاب لها أسباب كثيرة معقدة، ولكن الاستبداد على رأس تلك الأسباب.

تفكيك منظومات الاستبداد (٨): حول الثورة والعنف وإسقاط الاستبداد

مرت خمس سنوات مريرة منذ بدايات (الربيع العربي) في مثل هذه الأيام من عام ٢٠١١م، المرارة فيها كانت في كشف الأتقنة عن الواقع الحقيقي وميزان اتخاذ القرار الحقيقي في كثير من الحكومات والجيوش والمؤسسات والهيئات والأحزاب والأشخاص عربياً وعالمياً، ومرارة أخرى كانت في إعادة رسم خارطة المنطقة كلها جهاً نهاراً على أعين شعوب مغيبة العقل مريضة البدن باهتة التدين ضائعة القيم - إلا من رحم الله، وقد تدهورت أحوال العالم العربي عموماً وبسرعة إلى أن وصلنا إلى قاع الأمم في كل إحصاء لمعايير التعليم والتنمية والحقوق والأمن والبيئة، وما زال هناك من يزين للناس أنهم يحسنون صنعاً.

ولكن المرارة الأكبر في تلك السنوات العجاف كانت في حصد الصراع مع نظم الاستبداد بصوره وأبعاده المختلفة لأفضل وأعلى ما نملك من ثروتنا البشرية من الشباب والفتيات والرجال والنساء في مختلف أرجاء العالم العربي، إن لم يكن قتلاً أو جرحاً أو سجناً أو تعذيباً أو تشريداً فبالإحباط والحيرة والانكفاء على الذات والتخلي لا عن الثورة فقط بل وعن الدين والخلق والمبادئ جميعاً. هذه هي الخسارة الاستراتيجية الحقيقية جداً والمريرة جداً.

ونكرر تكراراً - وليس من باب التلاوم وإنما من باب النصيحة والله تعالى أعلم - أن عدم سماع الكثير من القوى الثورية خاصة من الحركات الإسلامية لنصح الناصحين وغياب الرؤية الاستراتيجية الواقعية المدروسة لهم وللثورة بروافدها المختلفة، كانت مصيبة كبيرة وتراجعاً تاريخياً في كل محاولات وأفكار ومؤسسات الإصلاح والتدين والأخلاق والعدالة، ليس في العالم العربي وحده بل في الدنيا بقاراتها الست ودون مبالغة. ولذلك فلا بد إذن من إصغاء السمع وإعمال العقل وتوسيع الصدر والتواضع قليلاً مع النصائح والنظرات الاستراتيجية التي يضعها المخلصون على طاولة الحوار المفتوح والبحث المتجرد.

وإذا كنا نتحدث عن ثورة، فأول سؤال يسأله أهل الاستراتيجيات هو: ما هو الهدف؟ لا يمكن ولا يجوز أن يحدث حراك شعبي خاصة مع الثمن الباهظ الحالي من أرواح الناس وأعراضهم وحرقاتهم دون تحديد الهدف المنشود وبيوضوح. والهدف يا أيها العقلاء لا يصح أن يكون إسقاط فلان ولا رحيل فلان! لا بد أن نكون قد تعلمنا خلال السنوات الماضية على الأقل أن أصحاب الكراسي مهما كانوا هم مجرد ممثلون أو ناطقون رسميون باسم جماعات مصالح أكبر منهم يحمونها وتحميهم ويعبرون عنها ويخدمون غاياتها. لا يصح أن نسمح مرة أخرى - بعد أن حدث ذلك عدة مرات وفي عدة دول - أن تُستغل التظاهرات الشعبية والخسائر البشرية في الشوارع والميادين من أجل انقلابات تحسم صراعات داخلية مؤقتة بين أصحاب القوة الحقيقية على الأرض، ودون أي تغيير حقيقي في (النظام).

والسؤال هو: ما هذا (النظام) الذي تستهدف الثورة إسقاطه إذن؟ والإجابة: هؤلاء هم المجموعات في كل الدول العربية التي تحتكر الثروة الاقتصادية وأبواق الإعلام ووسائل العنف سواء سمّوها رسمية أم غير رسمية، وسواء كانوا من جماعات المصالح السياسية أم النخب العسكرية والأمنية أم أصحاب الأعمال الكبار أم القبائل الحاكمة التي تحتكر الثروات باسم الإمارة والملك، أم من يشرعن لهؤلاء جميعاً من

أصحاب السلطة الناعمة سواء ممن يدعون الحديث باسم الدين - إسلاماً كان أم مسيحية - أم أصحاب القلم أم أرباب الفن. وقد لحقت مؤخراً بأصحاب السلطة الناعمة والخشنة بعض الجماعات المشبوهة التي تسمي نفسها إسلامية وهي مجرد غطاء لعمليات كبيرة لأجهزة التخابر الإقليمية والدولية وصناع الإسلاموفوبيا ومصانع السلاح وآلات القمع في الدول (المتقدمة) وتجار المخدرات في هذا العالم. هذا هو - للأسف - واقع موازين القوى على الأرض.

وقد انتشرت مؤخراً فكرة تبني العنف كوسيلة ثورية لتغيير الاستبداد من قبل بعض الشباب المحبط من الواقع الحقوقي والسياسي والإعلامي المؤسف حقاً، خاصة مع لا إنسانية القمع في التعامل معهم ومع كل من يفتح فمه بكلمة ضد نظم (الاستبداد)، وخاصة مع إهدار أغلب الحكومات العربية لدماء وأعراض وحریات المعارضين وكل من يقترب منهم وعدم اكتراث دول العالم بذلك ما دامت مصالحهم مضمونة! وللأسف نصحت بعض القيادات الفكرية والدينية بهذا العنف في محاولة للتعامل مع الواقع الحالي بمرارته، مما كان خطأ فادحاً لم يؤدي في ما نرى إلا لنتائج كارثية، خاصة مع الأجندات الخارجية المعلنة بصراحة لسيناريوهات (الفوضى الخلاقة)، والتي ترغب في مزيد من التدمير للمنطقة العربية ودولها المحورية وجيوشها الكبيرة.

وقد سألتني عن العنف عدد من الشباب من دول مختلفة - خاصة من مصر - فأجبت بتقديري لهذا الأمر وهو أن تبني العنف كسياسة ثورية بناء على واقعنا الحالي الذي نعيشه ونفهمه لن يحل المشكلات بل سيزيدها، ولن يقضي على الاستبداد بل سيدعمه، ولن يواجه قوى التدخل الأجنبي بل سيزيد من احتمالات الاحتلال الأجنبي الصريح. لابد من الحساب الدقيق للمآلات والنتائج لهذا العمل وهي في تقديري مدمرة جداً وغير مجدية. بل إنني أظن أن إعلان بعض المستبدين خوفهم من ثورة جديدة هو مجرد فخ مآكر ومحسوب للقضاء على البقية الباقية من الحراك الشعبي والإرادة الثورية، حيث أنهم يدركون جيداً قوة ونجاح آلتهم القمعية في مقابل دعوات بعض الهواة لممارسة العنف باسم الثورة.

ما هو الهدف إذن؟ وكيف نحققه؟ الهدف لابد أن يكون تغييراً جذرياً في (النظام)، وهذا يعني التغيير ليس فقط في الأشخاص بل يتعدى الأشخاص إلى النخب التي يمثلها الأشخاص، بل يتعدى النخب إلى نظم الحكم التي يمسك زمامها النخب، بل يتعدى نظم الحكم إلى النعرات الوطنية الموهومة التي حكمت داخل أسوارها المؤسدة تلك النظم دون تاريخ ولا منطق، بل يتعدى التغيير تلك النعرات الوطنية الضيقة إلى الأفكار والإيديولوجيات التي قامت عليها تلك النعرات، والتي تعود كلها لثقافة الاستبداد السائدة في مناحي الحياة وعلى كل المستويات. الاستبداد هو (النظام) وهو العدو الأول للثورة، والهدف الاستراتيجي من الثورة لابد أن يكون سقوط الاستبداد - لا في صورة أشخاص ولا نخب ولا هويات وطنية مزعومة فقط بل كفكرة وثقافة وممارسة وشرعية و(نظام) له أبعاد سياسية واقتصادية وكهنتوية! ولكن حتى لو وجدت الثورة أنصاراً في هذه الظروف الصعبة فلا بد أن نكون واقعيين.

لا يمكن أن نتصور أن النظم الاستبدادية (الوطنية) الحالية يمكن أن تتحول بين عشية وضحاها بتلك الثورات الشعبية المحدودة إلى نظم ديمقراطية داخل نفس الحدود (الوطنية)، وتنتخب فجأة حكومات تمثل الشعوب فعلاً وتتداول السلطة بين أحزاب سياسية تمثل فلسفات اقتصادية واجتماعية مختلفة على طريقة الديمقراطيات الغربية. هذا كلام أثبتت الأحداث القريبة عدم واقعيته، وذلك في نظري لسببين: أولهما أن

هناك إشكالية أساسية في تقسيم تلك الدول الوطنية العربية وفي نظمها كدول أصلاً، وثانيهما أن الاستبداد كنظام سياسي يتجاوز قضية عدم تداول السلطة ديمقراطياً إلى أنواع أخرى من الاستبداد تحتاج إلى أن تمتد إليها الثورة لتغييرها، بل تبدأ بها أولاً وقبل أي تفكير في تغيير سياسي في أعلى هرم السلطة في دولة وطنية معينة.

أما بالنسبة للدول الوطنية، فلا ينبغي أن تكون شعارات الثورة (وطنية) أي تقتصر على الثورة في دولة بعينها، وإنما (إنسانية) و(قيمية) تمتد وراء الانتماء الوطني الضيق. هذا هو الأساس الصحيح للثورة وهذا هو الذي سيحميها في نهاية المطاف. هذه الدول (الوطنية) هي كيانات سياسية دولية من مخلفات مرحلة (الاستعمار) وما زالت مربوطة به ربطاً بكل أنواع القيود الاقتصادية والسياسية والتقنية والعسكرية، بل إن تقسيم وقيام هذه الكيانات (الوطنية) الحديثة لم يكن على أنها دول بالمعنى المعاصر – أي أدوات لتحقيق الصالح العام، وإنما على أنها بالأساس أدوات لإدارة الشعوب العربية في غياب الاحتلال العسكري، بناء على توازنات قوى داخلية وخارجية في مرحلة (ما بعد الاستعمار)، ولهذا فقد زرع وحرس الاستبداد فيها (الاستعمار) نفسه في صورته الجديدة.

هذه ليست دولاً حديثة بالمعنى المعاصر الذي يقتضي دستوراً يمثل هوية الدولة ولو كان فيه بعض التأويل، وسيادة قانون عادل يطبق على الجميع ولو كان فيه بعض التجاوزات، وحكومات تعمل من أجل الصالح العام ولو كان فيها بعض الفساد، ومؤسسات مدنية تراقب السلطة وتكامل دورها ولو كان فيها بعض القصور، وإعلام مهمته نقل الحقائق للمواطنين وتحري الفساد ولو كان فيه بعض التحيز، ومؤسسات دينية تستمد سلطانها من الدين والأخلاق ولو كان فيها بعض الانحراف، إلى آخره. تلك (الدولة الحديثة) غير موجودة في الوطن العربي إلى حد كبير، وإنما هي نظم إدارية ذات أهداف محددة وتخدم مصالح محددة داخلية وخارجية، ولذلك فليس واقعياً أن نتصور أن الثورة ستبني (دولة حديثة) بمجرد تغيير بعض الأشخاص أو الحكومات. الفساد عميق وفي الأصل، وما بني على باطل فهو باطل.

ثم إن الإشكالية الأكبر في الاستبداد كنظام هو أنه يتجاوز قضية احتكار السلطة إلى نوعين آخرين من الاستبداد: الاستبداد الديني والاستبداد الاقتصادي. هذان النوعان من الاستبداد لا بد أن تمتد إليهما الثورة، بل إن النظر الواقعي يقتضي أن تبدأ بهما الثورة.

أما الاستبداد الديني، فالأوروبيون لم يستطيعوا بناء حضارتهم الحديثة ولا الوصول إلى الديمقراطيات المعاصرة إلا بعد أن مروا بمرحلة ما يسمى (الإصلاح الديني). والإصلاح الديني – من وجهة نظر إسلامية – لا يكون بالانحراف عن قيم الإسلام وثوابته وتشكيك الناس في نصوص الوحي الإلهي للرسول عليهم الصلاة والسلام وفي مقدسات الأمة في الأمكنة والأزمنة والشعائر والرواد التاريخيين، وفي زعزعة قيم الخلق والأسرة والعفة والصدقة والرحم والإخاء، وإنما الثورة على الاستبداد الديني تقتضي ثورة على كل من يشرعن للاستبداد السياسي باسم الدين، والاستبداد الاقتصادي باسم الدين، والتفكير في قضايا العصر من منطلق أخلاقي وقيمي دون جمود على التراث ودون تضييع للثوابت. هذا هو الإصلاح الديني الحقيقي.

وهذه الثورة تقتضي المطالبة بتغيير مظاهر الاستبداد الديني في المؤسسات الإسلامية التعليمية والعلمية والعمالية. لا يصح ولا يجوز أن يعمل العلماء الذين يمثلون الشريعة لصالح سلطة سياسية استبدادية جمهورية كانت أم ملكية، ولا يتلقوا من المستبدين راتباً ولا امتيازاً ولا دعماً مباشراً، وينبغي أن يكون من أولويات الثورة أن تسقط كل مؤسسة دينية مدعومة من الساسة المستبدين إلا أن تعود تلك المؤسسات إلى نظام الأوقاف المستقلة عن الحكومات والحكام وتدار بشفافية وتجرد. لابد أن تحمي الثورة الاستقلال المادي والمعنوي للمؤسسات الدينية، وأن تدعم المؤسسات الدينية والعمالية لتكون في وضع متوازي مع النظام السياسي لا أن تكون فوقه ولا تحته. لا يصح أن تهدأ الثورة حتى يتحقق هذا الاستقلال لمن يحمل أمانة الدين وإلا فلنقل على الدين وعلى الثورة نفسها السلام.

ويلحق بهذا الإصلاح المنشود الجماعات التي اختارت أن تسمي نفسها إسلامية، ولكنها تدار على نفس طريقة (ما أريكم إلا ما أرى). ولّى زمان (السمع والطاعة) لهذا الأسلوب العقيم في إدارة العمل الإسلامي، ولابد أن تستهدف الثورة سقوط ذلك الوجه الآخر من عملة الاستبداد الديني، وإلا فلن يسقط الاستبداد السياسي والإداري لا داخل المجتمعات الإسلامية ولا داخل مؤسسات الدولة. (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

والثورة لابد كذلك أن تستهدف القضاء على الاستبداد الاقتصادي في شكله الديني. فقد صور الاستبداد الديني في أبواقه الإعلامية أنه يجوز أن يكون صاحب الملايين المملينة (متديناً) و(خيراً)، وأنه ما دام (يتبرع) لعمل الخير والمؤسسات الإنسانية فهو أشبه بعثمان بن عفان أو سعد بن أبي وقاص في غناهم وتقاهم. ونسمع الفتاوى الطويلة العريضة في صغائر الأمور ولكننا لم نسمع بفتوى تحريم الانتفاع الشخصي للحكام بمال الأمة أو المال العام، ولا تحريم الاحتكار في أشكاله المعاصرة الذي ولد كل هذا الغنى الفاحش لقلّة من الناس، ولا تحريم زواج المال والسلطة وتداخل المصالح بينهما، هذا الانحراف بالفتوى هو من شرعنة الاستبداد الديني للاستبداد الاقتصادي، وينبغي للثورة أن تستهدف القضاء عليهما معاً، ذلك لأن تلك الثروات الهائلة التي يملكها قلة من الأفراد ليست (بركة) ولا نكاه ولا يمكن أن تتحقق إلا بالاحتكار أو الفساد أو كلاهما معاً، وبالتالي فجموع الناس لها حق أصيل وشرعي في هذا المال.

ومعنى هذا أن تتبنى الثورة بكل روافدها - بما فيها الرافد الإسلامي - مقاطعة الأذرع التجارية للاستبداد الاقتصادي وتوعية الناس بفساد ملاكها، وأن تتجدد مطالب (العدالة الاجتماعية) وتميل للياسر الاقتصادي بوضوح ولو في إطار الدول الحالية مؤقتاً، وتطالب بدرجات أساسية من الضمان الاجتماعي الشامل على الأقل. كفانا شرعنة للاستبداد الاقتصادي عن طريق تفسير رأسمالي واستبدادي منحرف للإسلام وظالم لجموع الناس ومضيع لمال الأمة، ولو تسمى بأسماء إسلامية وأفنت له هيئات (شرعية).

والثورة لابد كذلك أن تستهدف القضاء على الاستبداد الاقتصادي في أشكال أخرى خطيرة مثل امتلاكه لوسائل الإعلام ومؤسسات التعليم ومرافق الصحة وخدمات أساسية كثيرة. لابد أن تستهدف الثورة أولاً تخليص المؤسسات العامة من سلطان أصحاب المليارات، سواء تمثلوا في النخب السياسية الحاكمة التي سرقت المال العام باسم إدارة (الدولة) أو تمثلت في الشركات الضخمة الإقليمية والدولية التي تلوث البيئة

وتفقد الجهاز التشريعي وتغسل الأموال. لابد أن تستهدف الثورة القضاء على هذه الصور من الاستبداد الاقتصادي بكل الوسائل المتاحة.

وبعد، فالمقام لا يتسع والحديث ذو شجون. ولكن خلاصة القول أن الثورة مطلوبة ولكن ينبغي أن تكون واقعية، فتتجنب الوقوع في فخ العنف، وتتجنب أن يكون همها هو تغيير الأشخاص أياً كانوا خاصة مع الثمن الفادح في الأرواح الذي يدفعه الشباب في هذه المرحلة من عمر الثورة. لا يصح التضحية بأرواح وحيات المزيد من خيرة أبناء الأمة من أجل صراعات داخلية بين المستبدين، بل ينبغي أن يطور المؤمنون بالثورة استراتيجياتهم ويستهدفوا بالأساس المصالح الاقتصادية للمؤسسات الاحتكارية الفاسدة خاصة تلك التي تحتكر صناعة الرأي العام وتمتلك الخدمات العامة، ويستهدفوا كذلك بالتحريض والتغيير الهياكل الاستبدادية في المؤسسات الدينية الرسمية والشعبية والجماعات الإسلامية. فلتبدأ الثورة بإزالة الطواغيت الصغار عن استراتيجية واعية حتى تسقط الطواغيت الكبار مع الوقت ودون رجعة.

تفكيك منظومات الاستبداد (٩): خيار الجهاد المسلح وسؤال المآلات

السلوك الإجرامي لنظم الاستبداد وضعنا جميعاً في حيرة من أمرنا في محاولة الإجابة على هذا السؤال: هل نقابل العنف بالعنف؟ هل مقابلة جرائم نظم الاستبداد في الاعتداء على النفوس والأعراض بالعنف والردع باسم الجهاد المشروع مقابلة مشروعة؟ وماذا لو كانت نتيجة ومحصلة اللجوء للعنف ما نراه من لجوء نظم الاستبداد لمستويات أعلى من العنف المضاد الهجمي والشامل ليس فقط ضد الثوار بل ضد الجميع خاصة المدنيين العزل؟ ما نراه من مأساة مفرجة في وحشية نظم الاستبداد في كل بلاد (الربيع العربي) خاصة في سوريا قد تجاوز كل الخطوط الحمراء إنسانياً حتى وصلنا إلى مستوى الكابوس المفزع وتحت سمع وبصر السياسة الدولية اللا إنسانية، سياسة لا تبالى إلا بمزيد من المال الداخل لمنظوماتها الاقتصادية بهدف تحقيق مزيد من السلطان للواحد في المئة الذين يحكمون اقتصاد العالم، ولا مانع من بعض الفتات من هذا المال لمحترفي السياسة في الغرب والشرق، وفتات أقل للشعوب الغربية المترفة، ثم لا شيء للشعوب التي تعيش تحت الاستبداد. هل لهذه المآلات المفرعة أثر في إجابة سؤالنا حول مشروعية خيار العنف وإعلان الجهاد على نظم الاستبداد؟

وقد رأينا منذ ثورات ٢٠١١م عدداً من النماذج في ردود الأفعال على (بلطجة) و(تشبيح) و(حشود) نظم الاستبداد: رأينا الأنموذج البراغماتي المناور، والذي يفزع من احتمال العنف ويقدر ميزان القوى لغير صالحه فيشرع في التنازل عن جل مكتسبات الثورة نفسها ويتخلى عن كل ما هنالك من حقوقه السياسية التي وصل إليها ديمقراطياً في سبيل سلامة الأفراد وحقن الدماء. ورأينا الأنموذج الغارق في المثالية، والذي يصر على السلمية متوهماً أنه على طريق غاندي في انتصار ثورة الهند، غير أنه نموذج يفتقد لأبسط مقومات النجاح على طريقة غاندي لأنه لا يملك مقومات الزعامة الروحية التي تفرض سلطة معنوية قوية على الجماهير ولا يملك حتى التحكم في أفعال الثوار خاصة قطاع الشباب الغاضب الذي يمارس بعض مظاهر العنف بشكل عشوائي، فينتهي الأمر بالاستبداد الماكر أن يتهم هذا النموذج الغاندي نفسه بالعنف والإرهاب وينتهي الحال برموزه بين قبر وسجن ولجوء واختباء.

ثم رأينا النموذج الذي لا يتحمل عنف السلطة النظامية واستعدادها لسفك الدماء، فيقرر (عسكرة الثورة) ويلجأ إلى الصراع المسلح في شكل حروب العصابات، والتي يغذيها ببعض الانشاقات في الجيش النظامي أو بتكوين جيوش أهلية غير محترفة أو بعمليات فردية عشوائية أو بتوليفة غير منسقة من هذه الأشكال مجتمعة، ورأينا كيف أدى هذا الخيار الإنفعالي إلى معارك مفتوحة السقف مع قوى الاستبداد، معارك أدت لمآسي كبيرة وإلى كفر واسع ليس فقط بمبدأ الجهاد المشروع بل بمبدأ الثورة نفسها وبفكرة التغيير أصلاً.

والحق أن الإجابة على سؤال (هل نواجه العنف بالعنف؟) مهمة صعبة ومعقدة، ولا أرى لنا بدأً - أيها القارئ الكريم - من بعض التحليل والتركيب لتقديم إجابة ذات وجوه متعددة وشروط مختلفة حسب الظروف المختلفة. لا يصلح في هذا المقام التبسيط والبحث عن جملة واحدة قصيرة على طريقة تويتر. مائة وخمسون حرفاً لا تكفي للإجابة على هذا السؤال!

وأول ملامح الإجابة على سؤال العنف هو أنها ليست إجابة واحدة بل إجابات تتراوح بين أقصى درجات (نعم) لأقصى درجات (لا) حسب الواقع، ذلك لأن كل مكان له ظروفه وله حساباته وما يصلح فيه قد لا يصلح في كل الأمكنة. ولكن القاسم المشترك بين كل الأمكنة هو أن يكون خيار الجهاد المسلح خيار استراتيجي مدروس ومقدر بقدره وليس رد فعل عفوي أو عشوائي. ردود الفعل العشوائية العنيفة الغير مدروسة تضر أكثر من ما تنفع وبالتالي فهي ليست مشروعاً شرعياً ولا عقلاً. ومعنى استراتيجية الخيار الجهادي هو في الإجابة على عدد من الأسئلة الاستكشافية لتعقيد الواقع الذي فيه سياق السؤال وفهم ملامحاته بأكبر درجة متاحة من الدقة. هذه الأسئلة التي تحلل الواقع وتبين تفاصيل الإجابة يمكن أن نوجزها في ما يلي، والله المستعان:

الأصل أن الجهاد في سبيل الله وفي سبيل نصرة المستضعفين ورفع الظلم عن المظلومين فريضة إسلامية قرآنية أصيلة وثابتة وباقية ولم ولن ينسخها شيء. (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين - سورة النساء). والأصل أيضاً أن هناك في الإسلام معنى للجهاد يعبر عن جهاد للنفس بمعنى تزكيتها وتدريبها على معالي الأمور، ولكنه ليس هو المعنى الوحيد. فهناك في الإسلام أيضاً معنى للجهاد يعبر عنه بالسلاح والعنف. وهذا الجهاد ليس بالضرورة في معركة بين الكفر والإيمان، بل يمكن أن يكون ضد الطائفة الباغية ولو كانت من المسلمين. (فقاتلوا التي تبغي حتى تقيء - راجع سورة الحجرات). والسؤال هنا إذن ليس عن مشروعية الجهاد، ولكن متى يكون الجهاد مشروعاً مطلوباً ومتى يكون إرهاباً مذموماً؟ وما هي الضوابط التي تحكم هذا الجهاد المشروع؟ لابد من المشروعية ومن الضوابط.

وأول ضوابط الجهاد المشروع هو سلامة النية حتى يكون الجهاد (في سبيل الله)، وبدون هذه النية لا يصح الجهاد شرعاً ولا يؤدي إلا للفساد الدنيوي والأخروي. لا يصح للمجاهد إلا أن يكون عابداً قائماً ليل خائفاً من لقاء الله ولا يصح مطلقاً أن يكون من وراء جهاده نعمة قومية أو قبلية ولا حمية حزبية أو مذهبية ولا طلباً لمصلحة مادية من متاع الدنيا ولا أن يكون تواقاً للسلطة على عباد الله والتحكم فيهم، ولا حتى انتقاماً من فلان أو ثاراً من العدوان على فلانة، ولا أن يكون من وراء جهاده اكتئاباً أو إحباطاً أو شبقاً يحاول التخلص منه بالانتحار جهاداً! هذا ليس هو الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا. الصحابة رضي الله عنهم عذبوا وذبحوا في مكة ولكن الجهاد لم يكن هو الخيار الاستراتيجي وقتئذ حتى جاء وقته وظهر رجاله وصحت النية لله والزهد في الدنيا واصطفت الجبهات بوضوح. المجاهدون قبل أن يجاهدوا لابد لهم من صياغة متدرجة وأحداث فارقة وتربية عالية حتى لا يختلط الحابل بالنابل ويتحولوا من (مجاهدين) إلى مرتزقة غاصبين وقتلة سارقين وشياطين بلا رحمة ولا خلق - كما نرى في واقعنا المؤسف.

الأصل في الشرع أن وسائل العنف وسلطة الزجر والردع لا تمتلكها ولا تستخدمها إلا مؤسسات السلطة الشرعية، أي سلطة الدولة في واقعنا في الدولة الوطنية المعاصرة. والمعنى الإسلامي هنا هو أن الأصل أن سلطة الدولة هي المخولة بفريضة (الجهاد) في عصرنا وتنظيم وسائل العنف وتطبيق العقوبات على الأرض، والأصل أنه لا يصح شرعاً ولا قانوناً أن يفتتت الأحاد ولا المجموعات على سلطة مؤسسات الدولة. إلا أن أصل هذا الكلام ليس على إطلاقه لأن للمرء أن يتساءل هنا: ماذا لو كانت شرعية هذه الدولة نفسها محل استفهام؟ ماذا لو كانت رؤوس تلك (الدولة) هي مجرد عصابة من الإرهابيين؟ هل تصح محاربتها؟ ورغم أن الإجابة هي نعم إلا أن "كيف" هي مسألة على أكبر درجة من الأهمية، لأن "كيف" ترتبط بعدد من خيارات الجهاد السلمي (أو الجهاد المدني كما سماه بعض الفضلاء)، والتي لابد أن تستنفذ أولاً

حسب الواقع المحيط بالسؤال. هذا الجهاد السلمي والحراك الشعبي لا بد أن يستنفذ المجال التشريعي والتنفيذي والقضائي قبل أن يدخل في درجات أخشن من المواجهات الاقتصادية أو العسكرية.

الأصل أن السلطة التشريعية تشرّع القوانين لتحقيق العدل وحفظ الحقوق ومراعاة الحرمات، ولا يصح أن يتولى الأفراد خارج السلطة التشريعية سن تشريعات خارج القانون. ولكن السؤال هنا هو: ماذا لو فسدت السلطة التشريعية فأصبح القانون مجرد أداة تشرعن للظلم والفساد وكبت الحريات وتقييد الصحافة وتجريم معارضة الاستبداد، أي باختصار تشرعن السلطة التشريعية لإرهاب المستبدين بالسلطة باسم القانون ولا تشرع لتحقيق العدل ولا تسن القوانين لحفظ الحقوق ولا مراعاة الحرمات؟ ألا يحق للناس رفض القوانين الجائرة وسن قوانين (أهلية) بديلة تطبق في حالة الجهاد؟ والإجابة هي بلى بالطبع، ولكن الأمر يتطلب استنفاد الفرص في إصلاح الهيئات التشريعية ومقاومة تحولها تماماً إلى دمية للاستبداد. ولكن إذا فسدت هذه الهيئات التشريعية تماماً فلا بد من حض الناس على تجاوز النظام التشريعي والرفض لقوانينه على مستوى السلطة التنفيذية. ولكن ماذا لو فسدت السلطة التنفيذية التي تقوم على تنفيذ القانون فأصبحت تستخدم وسائل العنف التي تحتكرها والتي يدفع ثمنها المواطنون جميعاً من المال العام أو (مال الأمة) أو (مال الله) بالتعبير الشرعي، تستخدمها السلطة التنفيذية في قمع المطالبين بالكرامة وأصحاب الحقوق والمعارضين السياسيين حتى ولو كانوا يتحركون داخل إطار القانون الصالح نفسه وفي حدود الحقوق التي يكفلها، بدلاً من ردع المجرمين وزجر المعتدين وحفظ النظام العام؟ ماذا لو كانت السلطة التنفيذية هي التي ترتكب الجرائم وتكسر القانون على طريقة (حاميتها حراميتها) كما يقول الناس؟ هل يصح محاربتها؟

ورغم أن الإجابة هي نعم بالطبع، إلا أنه قبل هذه الحرب لا بد من استنفاد اللجوء للهيئات القضائية بمستوياتها المختلفة، ولا بد من إعطاء الفرصة لتحديد الأهداف بدقة في استهداف السلطة التنفيذية، حتى يكون إعلان العصيان على السلطة التنفيذية بقدره الضروري لإعادة تركيبه وليس هدماً للمجتمع وتقويضاً لأركانه. الهيئات القضائية مهمة لأنها هي صمام وجود المجتمع، والعدل أساس الملك.

ويتبع ذلك السؤال التالي: ماذا لو فسدت السلطة القضائية وضيعت العدل بين الناس؟ ماذا لو بررت الجرائم التي يرتكبها أصحاب السلطة التنفيذية والفساد الذي تشرعنه السلطة التشريعية؟ ماذا لو برأ القضاء المجرم وجرم البريء؟ وحبس المعتدى عليه المسكين وأطلق المعتدي الأثيم؟ ماذا لو صارت منصة القضاء الشريفة مسرحية للتغطية على جرائم ترتكب ضد الإنسانية من أجل عيون الاستبداد في صورته السياسي والديني والاقتصادي؟ وصار القاضي الهمام مجرد إرهابي متنكر في صورة حَكَم لصالح الاستبداد والمستبدين؟ ألا يبطل هذا الفساد شرعية المحاكم ويملي إزالة الظلم بالعنف؟ وماذا لو تجاوز الأمر فساد قاض أو قاضيان يمكن تنحيتهما إلى فساد (النظام) كله؟ ألا تصح محاربتة شرعاً وعقلاً؟ ورغم أن الإجابة هنا أيضاً هي بلى، إلا أن الولوج إلى خيار الجهاد المسلح يحتاج إلى استيعاب عدد من الدروس القرآنية المهمة، والتي يمكن إيجاز بعضها في رؤوس أقلام مختصرة كالتالي - حتى تسنح فرصة ببعض التفصيل لاحقاً بمشيئة الله تعالى:

أولاً، لا بد من تمايز المعسكرين ووضوح الفريقين للجميع، ولا يصح أن يكون جهاد في سبيل الله دون هذا الوضوح. (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا). (من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله). (فلما تراءت الفتان). (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان). وإعلان الجهاد خطأ كبير إذا لم يتمايز معسكران

واضحان للحق والباطل على مستوى الشعوب الواسع، وذلك دون دعاوى فارغة ولا (فساطيط) متوهمة، وإلا كان قتالاً باطلاً وكان ضرره أكبر من نفعه، وهذا ما نراه للأسف في واقعنا: مجاهدون ليس لهم شعوب تحميهم ولا تؤيدهم ولا حتى تفهمهم. أي جهاد هذا؟- لابد من حساب القوة على الأرض حساباً دقيقاً. (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين). (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله).

والقوة على الأرض يدخل فيها القوى الدولية وأصحاب المصالح الذين يتحكمون في موارد العالم. نحن كمسلمين من الأطلسي إلى بحر الصين لا نملك سلاحاً حقيقياً إلا فتات ما يسقط من أصحاب السلاح مما نشتره بأعلى الأموال. لا يصح الجهاد بشكل شامل وضد جيوش نظامية وتحالفات دولية عملاقة دون سلاح معتبر وراذع مناسب ودون روافد للقوة الاقتصادية والمعلوماتية والإعلامية وغيرها. لا يمكن أن ندعي الجهاد ببعض السيارات المسروقة والحسابات الموهومة على شركات اتصال لا نملك فيها مفتاحاً ولا خطأً وبأسلحة نصنعها في المطبخ مستخدمين أنابيب الغاز القديمة، إلى آخره. هذا النوع من (الجهاد) أقرب للمزاح منه للجد، ولا يؤدي إلى إلا كوارث في عالم نزعنا من قلوب أصحاب القرار السياسي فيه الرحمة. لابد من الاستخدام الاستراتيجي جداً للموارد القليلة جداً وتعظيم النتائج بأقل التكلفة المادية والبشرية. ولابد من التركيز على رؤوس الفساد وأئمة الكفر. (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم). ولا مفر من استهداف المصالح الاقتصادية للمستبدين بالأساس، وبشكل واع، والتركيز على رموز الفساد والقتل والعدوان التي لا خلاف عليها بين الناس. ولابد من شق صف الاستبداد والتحالفات الفرعونية من الداخل. (وقال رجل مؤمن من آل فرعون). (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون). (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين). وبدون شق صف (النخبة) فليس هناك جهاد مؤثر بل هو انتحار ساذج. لابد من عدم التورط في قتل الأبرياء ولو كانت نفساً واحدة. (من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً). ليس هناك عذر في قتل بريء واحد باسم جهاد مزعوم. وحين رأى ﷺ قتيلة بريئة غضب كما لم يغضب من قبل وقال: (ما كانت هذه لتقاتل).

والخلاصة في ما يسمح به هذا المقام هو أن الجهاد مشروع وباق ولكن لابد من الوعي بالواقع وبالشروط التي يتطلبها هذا الخيار في واقع المجاهدين وفي سياق الأحداث، ولابد من التجرد التام والعمل الدؤوب على الإصلاح من أسفل لأعلى. ليس هناك حل عنيف أو غير عنيف دون استراتيجية ووعي وحكمة.

تفكيك منظومات الاستبداد (١٠): الاستبداد والشباب - #الشباب_فين

عندما نقرأ في التاريخ عن أعمار صحابة رسول الله ﷺ نجد عجباً. نجد أن الذين اختاروا الإسلام وحملوه على أكتافهم وساروا به على عكس التيار السائد والنظام المستقر وواجهوا شراسة السادة والأسرة والقبيلة، هؤلاء لم يكونوا من أصحاب الأعمار من الخمسين أو الستين فما فوقها إلا نادراً، ولكنهم كانوا كلهم تقريباً من الشباب، بل والأطفال أحياناً. هذه مثلاً بعض أعمار الصحابة عند دخول الإسلام كما نقرأها في السيرة: علي بن أبي طالب (10 سنوات)، طلحة بن عبيد الله والأرقم بن أبي الأرقم (12 سنة)، عبد الله بن مسعود (14 سنة)، أسماء بنت أبي بكر وسعد بن أبي وقاص (17 سنة)، جعفر بن أبي طالب والزبير بن العوام (18 سنة)، عثمان بن عفان وصهيب الرومي وزيد بن ثابت وخباب بن الأرت (20 سنة)، فاطمة بنت الخطاب ومصعب بن عمير والمقداد بن الأسود (24 سنة)، عمر بن الخطاب وأسماء بنت عميس وأبو عبيدة بن الجراح (26 سنة)، بلال بن رباح وعمار بن ياسر (30 سنة).

هؤلاء الشباب والشابات بعد عقود معدودة من أعمارهم غيروا مسار التاريخ الإنساني، وحملوا للعالمين رسالة التوحيد والحضارة والحقوق والإحسان، وضحوا في سبيل الحق بأموالهم وأرواحهم، وقاتلوا في سبيل العدل سلاطين الشرق والغرب وجيوشهم الجرارة.

وهذه سنة الله في الرواد والمصلحين ليس فقط في عصر الإسلام بل في كل العصور ومع كل الأنبياء. قال تعالى: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً)، وقال عن موسى عليه السلام: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً)، وعن مريم عليها السلام: (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً)، وعن يوسف عليه السلام: (ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً)، وهكذا في سنة ماضية وقانون لا يحد. ونظم الاستبداد تعلم جيداً أن الخطر الحقيقي على وجودها وبقائها هو الشباب، وأن التغيير العميق الذي يطيح بها لا يتم إلا بالشباب، والإصلاح العادل الذي يقتص منها لا يكون إلا من الشباب. ولذلك فقد قرر فرعون وهامان وقارون في زمانهم حين أرادوا أن تستقر دعائم الاستبداد والفساد وأن يعلوا في الأرض، قرروا ببساطة قتل الجيل الجديد حتى قبل أن يبلغوا مبلغ الأطفال. قال تعالى: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم)، وقال: (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم)، وفي موضع آخر: (يقتلون أبناءكم). وأما باقي الرعايا تحت حكم الفرعون فقد استسلموا للاستبداد.

وحين بعث موسى صلى الله عليه وعلى محمد وسلم، كان الذين تجاسروا على الإيمان به على خلاف رغبات الفرعون هم فقط ... الشباب. قال تعالى: (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم)، والذرية هم الشباب (راجع التفاسير - ابن كثير مثلاً). وكانوا هم وقود الاضطهاد والحملات والتصفية ثم التغيير، تماماً كما كان الشباب والشابات مع محمد ﷺ وقوداً للتغيير والإصلاح والتجديد.

وما أشبه الليلة بالبارحة! فالشباب والشابات الذين يعيشون اليوم تحت نظم الاستبداد المعاصرة يُصنّفون سريعاً إلى قسمين لا ثالث لهما: شباب ضد الاستبداد، وشباب مع الاستبداد. القسم الأول شباب يؤمن بالقيم والمبادئ وعلى استعداد لأن يضحي من أجلها ولو بالحياة، في مقابل شباب ضائع الهوية تائه الأهداف قابل للتدجين والاستئلاف أو على الأقل الترويض في خدمة أهداف الاستبداد. وأما الإمارات والعلامات التي يعرف بها الشاب أو الشابة من أعداء الاستبداد، فهي الإيمان بالحرية، والإحساس

بالكيان وبالشخصية والهوية، ينصر الضعيف والمظلوم ولو كان مختلفاً في الرأي، ويقف مع الحق والعدل ولو كان صعباً ومراً. وإذا شم ذئب الاستبداد رائحة هذه الصفات في الشباب فقل عليه السلام. وبالتالي فنظم الاستبداد تستهدف المؤسسات التعليمية والمدنية بالأساس، وتنتشر خطاباً مؤداه أن الشباب الصالح هو الشاب المهني المتخصص، الذي لا يدرس إلا تخصصه الدقيق، وليس له علاقة بقضايا المجتمع ولا الشأن العام ولا حقوق الإنسان ولا الدعوة إلى الدين أو الخلق ... إلى آخره، فهذه مهمات أناس آخرين (متخصصين) في هذه المسائل. وبالتالي فنظم الاستبداد تحرّم وتجرّم أن يتبنّى الشباب خاصة في سن الدراسة المدرسية أو الجامعية - أن يتبنّوا موقفاً سياسياً إلا مع الاستبداد، أو يعارضوا ظلاماً إلا ضد رعايا الاستبداد، أو يطالبوا بالتغيير إلا التغيير الشكلي الفارغ، أو يعبروا عن رأي مختلف في أي مجال، بالتظاهر أو الخطابة أو الكتابة أو الدراما أو الكوميديا أو الغناء أو الشعر أو النشر الإعلامي بشكله التقليدي أو في العالم الافتراضي. وهذه المجالات كلها هي مجالات الشباب، وهي بالتالي تقع تحت المراقبة والمتابعة من أجل تصنيف كل شاب وشابة لهذين الصنفين المذكورين: مع وضد، والتحرك سريعاً لإسكات (ضد) وتشجيع (مع).

وقد يسأل سائل: كيف يكون إذن بعض قيادات النظم المستبدة من الشباب؟ والجواب أن هؤلاء القياديين المستبدين من الشباب لا يحملون روح الشباب بل روح المراهقة، ونرى دليل ذلك في قراراتهم وسياساتهم التي جلبت كثيراً من الخراب في مختلف بلاد الاستبداد التي يحكمها (الشباب)، من المغامرة بحياة الناس وبمصائر الأمم، وفي عدم توخي الحكمة في استخدام العنف أو إنفاق المال أو تعديل القانون، وانظر إلى من يحيطون أنفسهم بهم من الحاشية ولن تجد إلا المنخقة والمتردية والنطيحة وما أكل الدهر، ولن تجد من يؤيدهم فعلاً وبحرارة إلا الجيل القديم الذي تعود الاستبداد فكبر عليه منهم الصغير وشاب عليه الكبير وسارت به الركبان واستقر عليه الأمر. والله المستعان.

إذن، حين يسأل البعض في هذه الأيام: أين الشباب؟ أو #الشباب_فين (باللهجة المصرية)، فالجواب هو أن الشباب الواعي الشريف موجود في كل مكان في بلاد الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولكن الاستبداد ينفق الغالي والنفيس لكي يمنع هذا الشباب من أن يكون على خطى يحيى أو موسى أو مريم أو يوسف (عليهم السلام)، أو أن يصبح علياً أو أسماء أو عمر أو فاطمة (رضي الله عنهم).

ولكن، لا مفر من التغيير ولا مهرب من سنن الله في دورات الحق والباطل. هنا يحضرني قول الكواكبي رحمه الله في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) مخاطباً الشباب:

((يا قوم: وأريد بكم شباب اليوم، رجال الغد، شباب الفكر، رجال الجد، أعيذكُم من الخزي والخذلان ... أناشدكم يا ناشئة الأوطان، أن تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم إلا في أسنتهم، المعطل عملهم إلا في التثبيط، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل فجعلاهما آلة تُدار ولا تدير. وأسألكم عفوهم من العتاب والملام، لأنهم مرضى مبتلون، مثقلون بالقيود، ملجمون بالحديد، يقضون حياة خير ما فيها أنهم أبأؤكم!!)). إذن، فليمضي الشباب والشابات على بركة الله في تغيير النفس والمجتمع والأمة والعالم، وما ذلك على الله ببعيد. ولعلي أستكمل كلام مولانا الكواكبي بأن أقول:

((يا شباب: ثقوا في أنفسكم وفي عقولكم وفي آمالكم، واثبتوا على إيمانكم وقيمكم ومبادئكم. تخيلوا

واحلموا وفكروا خارج الصندوق وابدأوا في التخطيط والتنفيذ، ولو أعاقكم الجيل القديم من أمثالنا بتقاليدنا الجامدة وأطرنا الضيقة ومنطقنا الراكد، فانطلقوا أنتم واركبوا وراءكم، وابنوا مؤسساتكم ومراكزكم وشركتكم وأحزابكم وجماعاتكم الخاصة بكم. تعلموا من دروس الماضي ومن حكمة المشيب، ولكن لا تجمدوا على ما تعلمتموه، ولا تضيقوا على أنفسكم واسعاً، ولا تنحسروا في ثنائياتنا الكاذبة ولا

انتفاء اتنا الموهومة. انطلقوا على بركة الله واحملوا الحق، فلن ينصلح حال آخر هذه الأمة إلا بما انصلح به
أولها.))
والله أعلم وأحكم، (وتلك الأيام نداولها بين الناس) - صدق الله العظيم.

تفكيك منظومات الاستبداد (١١): الاستبداد الديمقراطي على الطريقة الأمريكية

يتوهم البعض أن منظومة الاستبداد يُشترط لها أن تنمو وتتمدد في نظام (دكتاتوري) للحكم، كالنظام القبلي التوارثي أو نظام الحزب الواحد أو نظام طبقة الصفوة العسكرية التي تحتكر الحكم، فيتوهمون أنه إذا كان النظام السياسي ليس واحداً من هؤلاء وأن (الديمقراطية) - خاصة على الطريقة الغربية - قد تحققت في نظام معين للحكم، أن الشعوب إذن قد قضت على الاستبداد، بل وعلى الفساد والظلم كذلك ... وهذا وهم بعيد.

فهذه هي الانتخابات الأمريكية (الديمقراطية) قد دفعت لأمريكا وللعالم كله بأسوأ سياسيتها عنصرية وإجراماً وجهلاً إلى سدة الحكم، بل وفي نفس اليوم دفعت بأغلبية لمجلسيها التشريعيين من اليمين المتطرف، حتى لا يوقف هؤلاء السياسيين شيء ولا يحاسبهم أحد وحتى يشرعوا ما يحلو لهم من قوانين لأمريكا وللتعامل مع بلاد العالم، لا على المستوى القانوني فقط بل وعلى المستوى الدستوري بعد أن ملكوا اللجنة الدستورية الأمريكية العليا أيضاً!

وعلى الرغم من أن نظم الدولة الأمريكية المركبة لن تسمح - على أغلب الظن - بالاستبداد والفساد على طريقة العرب أو الأفارقة أو اللاتينيين، من سحل المعارضين السياسيين في الشوارع أو التلاعب الأمني بالقضاء أو تجويع الشعوب أو تخدير الشباب، إلا أن الاستبداد الأمريكي سيتخذ - على أغلب الظن - شكلاً دموياً وخطيراً خاصة في حق الأقليات الأمريكية من السود والمسلمين والمهمشين داخل النظام نفسه، ناهيك عن التعامل على طريقة رعاة البقر مع بقية العالم، خاصة العالم العربي والإسلامي. أما الاستبداد داخل أمريكا، فدمويته تتمثل أساساً في الاحتكار الاقتصادي المتوحش، والذي سيؤدي حتماً إلى مزيد من التقلص للطبقة الوسطى لصالح نادي الواحد في المائة المحتكر للثروات والسوق والإعلام والسلاح والبتترول وصناعة الترفيه والزراعة. وهذا الظلم للطبقتين الوسطى والدنيا - واللذان تقدران معاً بحوالي تسعة أعشار الأمريكيين - ليس فقط في فرص التعليم والوظائف والتجارة، بل وفي أبسط متطلبات العيش من قوت الطعام والدفع في الشتاء والعلاج الصحي والسكن الآمن. ستكتشف غوغاء الأغلبية البيضاء - قريباً جداً - أن الذين أتوا بهم الآن إلى سدة الحكم لن يحققوا - ولا يستطيعون أن يحققوا - ما وعدوا به من نعيم وثروات للجميع. (إن الله لا يصلح عمل المفسدين).

أما إذا تحدثنا عن الأقليات العرقية في أمريكا فحدث ولا حرج عن الاستبداد والظلم في سحق حقوقهم - بالقانون - لصالح الرجل الأبيض المسلح بشراسته التي عبر عنها تعبيراً صادقاً في هذه الانتخابات، تلك الشراسة التي قتل بها نفس الرجل الأبيض المسلح قرابة المائة مليون هندي أمريكي من سكان البلاد الأصليين في القرن السادس عشر، والتي استعبد بها عشرات الملايين الأفارقة في أمريكا ثم المليارات من البشر في بلاد العالم في أمريكا اللاتينية وآسيا الوسطى وغيرها من القارات، والتي ألقى بها منذ عقود قليلة قنابل الذرية على اليابان لتقتل مئات الألوف من الأبرياء في دقائق.

وأما الاستبداد الأمريكي على الشعوب خارج أمريكا، فحدث ولا حرج عن نوايا هؤلاء الناس في تطبيق المقولة الشهيرة: (ادفع لنا مالك أو ادفع حياتك) أو باللهجة الأمريكية (The money or your life)، وهو أسلوب التعامل وشعار المرحلة في سياسات المحافظين الجدد خاصة على الدول (الغنية الضعيفة) في عالمنا العربي كما أعلن مرشحهم للرئاسة بصراحة. ثم إن التمدد الصهيوني الآتي في مساحات الخواء

والضعف والتفرق العربي الإسلامي الحالي هو أمر لا مفر منه في تقدير العقلاء، (إلا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي كل شيء علماً).

وهذا لا يعني - بالمناسبة - أن انتخاب الديمقراطيين كان حلاً لهذه الإشكالات العميقة في الواقع الاستبدادي الأمريكي، أو الواقع الاستبدادي العالمي الذي يتنامي في بلاد الشرق والغرب وبلاد المسلمين وغير المسلمين. فقد أصبحت نظم الاستبداد بصورة الاقتصادية والسياسية والدينية سمة للمرحلة سواء باسم الدكتاتورية أو من وراء ستار من الديمقراطية الفاسدة. وقد علمتنا تجارب السنوات القليلة الماضية أن الكلام المنسق البليغ الذي يأتي من حكام مثقفين ومتعلمين - في أمريكا وغير أمريكا - لا يغير من واقع السياسات غير الأخلاقية كثيراً، ولو كان أهون وأخف ضرراً بما يضع من ضمامات ويعطي من مسكنات لأمراض الاستبداد المزمنة، وذلك على الرغم من ضرره في إعاقة التسارع في نبض الحركات الشبابية الثورية العالمية، تلك الحركات التي تتوق للحرية والعدالة شرقاً وغرباً في صور شتى مختلفة الشعارات ومتقاربة الأهداف.

علينا إذن أن نتعلم الدرس التالي: النظام الديمقراطي كآلية لاختيار الحاكم وصنع القرار العام لا يتعارض مع الاستبداد! وإنما تضع الديمقراطية حدوداً للاستبداد فقط إذا مورست بشكل أخلاقي. أما إذا كانت المساحات العامة خالية من الأخلاق، حينئذ تكون الديمقراطية غطاءً زائفاً لأسوأ ما في البشرية من خصال، ويلعب عندئذ السياسيون والإعلاميون وأصحاب الثروات الطائلة - في الشرق والغرب - على أسوأ ما في النفوس البشرية من خوف وحقد وكره وجهل وطمع وأنانية، وتكون (ديمقراطية الأغلبية) إذن أسوأ أسلحة الاستبداد وأشدّها خطراً. عند ذلك يتحقق قول الخالق سبحانه وتعالى في حق الأغلبية، وهو أعلم بخلقه: (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم فاسقين)، (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله)، (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)، (ولا تجد أكثرهم شاكرين)، (إن الإنسان لظلوم كفّار)، الآيات. الأكثرية ليست شرطاً في الاختيار الصائب الرشيد، بل العكس هو الصحيح في غياب الأخلاق.

علينا إذن أن نتعلم أن (الديمقراطية) ولو كانت أفضل من الدكتاتورية، إلا أنها في بلادنا الإسلامية لا تمثل وحدها حلاً لمشكلات الواقع الاستبدادي الفاسد، اللهم إلا حل إشكالية التداول السلمي للسلطة، وهي إشكالية تاريخية مزمنة فعلاً في واقعنا الإسلامي. ولكن لكي تكون الديمقراطية وسيلة حضارية و(شورية) حقيقية تصنع الأغلبية بها القرار السليم والحكم الرشيد والاستقرار الأمن، فلا بد من قدر شائع وغالب من الأخلاق والقيم في المجتمع نفسه وعلى نطاق واسع، تلك القيم التي تنعكس على شتى جوانب الحياة السياسية من إعلام مهني ونزيه، وأصحاب رؤوس أموال حريصين على الصالح العام، وسياسيين يرتفعون عن حصد الأصوات بمخاطبة أسوأ ما في النفس البشرية من غرائز، وهذه القيم لا يمكن أن تفرض على الناس بسلطان العنف ولا بالقانون ولا حتى بمؤسسات الدولة، ولا يمكن منطقياً أن تتحقق بشكل مستدام في مجتمع، إلا بالدين، والدين هنا يعني الأخلاق، ولكن ليس على طريقة الإنجيليين الأمريكيين المتطرفين الذين تخفي أقدعتهم الدينية أسوأ ما في البشرية من خطايا، كما رأينا بالأمس القريب. أما في حالة العالم الإسلامي، فالإيمان بالله تعالى والتمسك بشرعه هو الطريق الوحيد - لا طريق سواه - لغرس وتعميق القيم في المجتمعات الإسلامية، تلك القيم التي تجعل للديمقراطية معنى شورياً حقيقياً، ولنتأمل قول الله تعالى في كتابه الكريم في سورة الشورى: (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)، فقرن الشورى بالإيمان والصلاة والصدقة لا تنفصل عنهم.

وإننا إذا تخلينا عن قيم الإسلام وأحكامه الخالدة ذللنا وخسرنا الدنيا والآخرة وتأخرنا إلى مؤخرة الأمم، كما هو حالنا اليوم.

صحيح أن العدل النسبي والأخلاق النسبية والتدافع النسبي في أمم الأرض يؤدي إلى صلاح نسبي ورخاء نسبي، ولو مع الكفر وعبادة المادة وأنواع المعاصي. ولكن هذا العدل مع الكفر لا يلبث أن ينقلب ظلماً واستبداداً وينهار بنيانه. أما في حقنا نحن المسلمين، فلا يمكن أن ينصلح الحال إلا بالدين القويم والالتزام بالمنهاج الإلهي الرشيد على مستوى الشعوب والحكام، والمجتمع والحكومة، والمؤسسات المدنية والأحزاب، وأعني بالمنهاج بالطبع المنهاج العقدي والأخلاقي والقيمي والعملي للإسلام، ولا أعني به أبداً سلطة أصحاب الآراء (الإسلامية) من المنحرفين الذين يدعون تمثيل الإسلام زوراً خدمة للاستبداد، والإسلام منهم براء، ولا من يتخذون من بيع الحق بثمن بخس حرفة يتكسبون منها الثروات، والحق عليهم شهيد يوم يقوم الأشهاد - أعني الإسلام الحقيقي الفطري الصافي الرشيد. (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) - صدق الله العظيم.

تفكيك منظومات الاستبداد (١٢): الثورة وخطأ الرهان على الشعوب

من الدروس القاسية التي تعلمناها من (الربيع) العربي في هذه المرحلة من (الشتاء) العاصف، درس مفاده أن الرهان على الشعوب شرقاً أو غرباً لكي تناصر الثورة وتؤيد التغيير وتحارب الاستبداد، خطأ استراتيجي فادح، خطأ ينم عن عدم وعي بموازين القوى على الأرض وبطبيعة البشر ودرس التاريخ. وهذا لم تظهره فقط ويوضوح صادم حلب ورابعة والفلوجة وأخواتهن، بل هو الدرس السوري والمصري والليبي واليمن وغيرهم في عمومهم، بل هو درس التاريخ في صور لعلها أوضح وأبلغ: درس الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، ومحمد النفس الزكية، رضي الله عنهم، وغيرهم كثير من الثوار والمصلحين والأئمة على مدار تاريخ الإسلام ممن ذبحوا بسكين العسكر قرباناً لنظم الاستبداد في بكاءً أحياناً وصمت غالباً من الشعوب، والذين ارتكب من عوّل منهم ومن أنصارهم على الشعوب خطأ كبيراً، لأنه حين كثر الاستبداد عن أنيابه وبدأ في قتل الناس لم يثبت من الناس معهم إلا قليل، وقاتلوا جميعاً - كما قاتل الثوار بالأمس القريب في حلب - حتى النهاية المرّة. تقبلهم الله جميعاً في الشهداء، ولكن علينا أن نعي الدرس إن أردنا أن نعاود الكرّة أمام الاستبداد.

الدرس هو في طبيعة (الأغلبية الشعبية) أو (أكثر الناس) حسب التعبير القرآني، إذ قال تعالى: (أكثر الناس لا يؤمنون)، و(أكثر الناس لا يشكرون)، و(أكثر الناس لا يعلمون)، و(أبى أكثر الناس إلا كفوراً)، و(ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)، و(أكثرهم يجهلون)، إلى آخره. خالق الناس يقول لنا إن أغلبية الناس ليست مقياساً للحق وليست عوناً عليه ولا تمتلك العلم ولا الوفاء ولا الإيمان ولا الوعي ولا تريد أن تمتلكه، بل يحكي لنا الرب الكريم قصصاً تبين بالمثل الواقعي كيف أن أغلبية الناس تقف في كل زمان مع الأقوى سلطة وإعلاماً واقتصاداً أيّاً كان، أي مع صاحب السيف وساحر الكلمة ومالك المال أيّاً كان. المصريون القدماء مثلاً لم يأتوا ليوم الزينة بنفسية مؤيدة لموسى ﷺ، ولا حتى بنفسية محايدة، بل قالوا: (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين). ثم إنهم رأوا من موسى معجزات مادية هائلة لم يحدث مثلها في التاريخ، وظهر لهم عياناً بياناً صدق موسى وعظمة رسالته، وجبروت الفرعون وهامان وقارون وفسادهم وطغيانهم، ومع ذلك لم تخرج الأغلبية لتأييد موسى ولم تهتم بقتل المؤمنين ولا صلبهم ولا تعذيبهم: (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم)، وذرية أي عدد قليل من الشباب. والتاريخ يعيد نفسه في هذا العصر في بلاد الفراعنة وفي بلاد الشام وفي غيرهما.

أن لنا أن لا نُصدم حين نرى الشعوب راقصة تغني للاستبداد على دماء وأعراض وأشلاء أفضل وأنبل وأشرف من فيها، من أجل بقية من فُتات الخبز، وخوفاً من البطش، ورغبة في استمرار ما يعرفون من عادات، وما يكسبون من معاش، وما يمرون فيه من طرق مصبحين وممسين. كم قُتل من الأنبياء، وكم استُضعف من أتباعهم، و(قُتل أصحاب الأخدود)، والرهان على الشعوب رهان خاسر، فلسان حال الشعوب إلا من رحم الله يقول: فليبق الحال الذي نعرفه على ما هو عليه، وليذهب المصلحون إن كانوا ضعفاء إلى الجحيم، أو إلى الجنة إن شاء ربهم، ولتستمر الحياة وتحلو.

ومن صور الرهان الخاطيء على الشعوب الرهان على نتائج صناديق الاقتراع وتوهم أن الشعوب تحرص عليها. أن لنا أن نتعلم أن الديمقراطية قد تساعد في تداول السلطة سلمياً بين محترفي السياسة في المجتمعات المستقرة، تلك المجتمعات التي أنهكتها الحروب في التاريخ القريب وقتلت الملايين منهم، فقرروا

أن يتداولوا السلطة بشكل محدود عن طريق (اللعبة الديمقراطية) - على حد تعبيرهم - كائناً ما كانت النتيجة. ولكن هذه (اللعبة الديمقراطية) في بلادنا ليست أبداً وسيلة لاكتساب سلطة حقيقية على الأرض، ولا شرعية سيخرج من أجلها الناس إلى الشوارع ليحافظوا عليها حين تستلب بالقوة. هذا وهم عريض، لأن الديمقراطية لا تعطي قوة على الأرض ولا شرعية حقيقية عند الناس. ولو حدث انقلاب عسكري في بلادنا على الديمقراطية وخرج بعض الناس للشارع كما في حدث في تركيا مؤخراً، فحسم الموقف لم يكن إلا في قوة النفوذ الحزبية في المؤسسات الأمنية والعسكرية، وليس في (إرادة الشعب) كما ادعى محترفو السياسة. ولكن الحقيقة المحض أنه إذا توحدت قوى العنف فعلاً ضد الشعب وسلطته المنتخبة لسحقوا الشعب وفرقوا التظاهرات، كما حدث مراراً من قبل في تركيا نفسها وفي مصر وفي غيرها كثيراً. وحين خرج بعض الناس للشارع في الحالة المصرية في عامي 2011 و 2013 وفي غيرها من (المليونيات) فإن المواقف لم تحسم إلا بيد أصحاب السلطة الخشنة، الذين ينسج لحسابهم سحرة الإعلام وأقراً جديداً من خيوط الوهم ويسوقونه بين الناس، ولكن أصحاب السلطة الخشنة على الأرض يستغلون كل فرصة سانحة من أجل القيام بانقلابات وتصفية حسابات داخلية بينهم كما حدث في عامي 2011 و 2013. وحين خرج الناس في الشوارع في سوريا مطالبين ببساطة وعفوية بالحرية والكرامة، ورغم كل ما حدث من الأحداث والتعقيدات، فإن المواقف إلى الآن لم يحسمها إلا الطغاة المستبدون، ولو باعوا الأرض والعرض من أجل السلاح، ولو زال الوطن حتى يبقوا هم في السلطة ولو اسماً وشكلاً، وسيذكر التاريخ كم خرج أمس من أهل الشام حاملين صور قيصر روسيا المعاصر بعد أن خربت جيوشه بلادهم وقتلت أطفالهم واغتصبت نساءهم! وشر البلية ما يضحك.

ومن صور الرهان الخاطيء على الشعوب الرهان على الاقتصاد، بمعنى أن يراهن من يراهن واهماً على أن الاقتصاد في بلد ما إذا خرب فإن (ثورة الجوع) ستجتاح الاستبداد وتسقطه، وهذا وهم كبير أيضاً. فالتجارب التاريخية والمعاصرة تثبت لنا أن الشعوب التي اعتادت الاستبداد ونظام الطبقات الاجتماعية الظالمة عندها قدرة على تحمل الجوع إلى أبعاد عجيبة، وعلى تحمل خسارة العملة المحلية إلى عشرات بل ألوف الأضعاف، ولا يغير ذلك من الواقع شيئاً، إلا احتجاجات هنا أو هناك. وما دام الاستبداد محافظاً على الحد الأدنى من الذكاء فيرمي للناس عظاماً أو كسرات خبز هنا أو هناك حتى لا يموتوا جوعاً بالفعل، وما دام الاستبداد يشجع التصوف الكاذب حتى يخدر الناس ويحضهم على شكر المنعم (الذي هو المستبد وليس الله تعالى)، وما دام الاستبداد يقسم الناس شيعاً وطوائف حتى يشغل الناس ببعضهم وبصراعات إيديولوجية فارغة، وما دام الاستبداد يمجد الوطن والأرض والعلم ويوظف الفن والتعليم والرياضة في أن يعيش الناس أوهام المجد والفخار الفارغة، وما دام الاستبداد جاعلاً ممن يحاول الاعتراض عليه مثلاً وعبرة لمن يعتبر، وما دام الفسق والإلحاد والمخدرات في كل مكان ... فلا خطر ولا ثورة. والفرعون قديماً (استخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين).

أما سؤال: إذن ماذا نفعل؟ وإلى ماذا نستند؟

فجوابه موضوع طويل عريض ولنا له عودة، ولكن خلاصة القول هو أن القرآن - ويؤيده مثال الرسول الكريم ﷺ - يعلمنا أن التغيير الحقيقي لا يأتي من حراك الجماهير دون قيادة، قيادة واحدة مؤمنة قوية على الأرض وتمتلك استراتيجية واقعية وواعية وتوفيقاً إلهياً يحين وقته ويظهر رجاله، هي ثلة من الشباب تقودها قيادة رائعة من الكهول، ولكنهم شباب وكهول ذوي كفاءات وصفات ومؤهلات خاصة، ولهم استراتيجيات خاصة، وتصل قوتهم إلى كتلة حرجة - حقاً لا وهماً - تؤهلها لكي تغير الواقع وتنتصر، بل وتحافظ على النصر. (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم). والحديث ذو شجون وله بقية إن شاء الله.

تفكيك منظومات الاستبداد (١٣): الاستبداد وسلاح السجون

لو قررت أنظمة الاستبداد -عرباً أو عجماً- أن تغير سياساتها الحالية في سجن الإسلاميين وتصفياتهم، وأن تعود تلك الأنظمة كرة أخرى لسياسات الاتفاقات - السرية والمعلنة - معهم من أجل إعطاء الإسلاميين بعض المناصب والكراسي المتفق عليها مسبقاً في منظومة الدولة التشريعية أو التنفيذية -وليس بينهما انفصال فعلي للأسف-، فلا أشك أن كثيراً من الإسلاميين سيقبلون وسيفرحون بما يحققونه من سلطات تشريعية أو تنفيذية محدودة في إطار نظم الاستبداد بل وسيظنون إنجازاً ونصراً إسلامياً في ظل المعطيات الواقعية... وهنا تكمن المشكلة!

فنظم الاستبداد منذ سقوط الخلافة الراشدة على يد بني أمية إلى يومنا هذا تحاول شراء الإسلاميين لشرعة ملك عضوض أخذوه بلا قانون إلا قانون الغاب، وهو ملك أفرز حكماً أدنى بكثير من مستوى المعايير القرآنية والنبوية في الشرعية والشورى والعدالة والأمانة، وذلك في الغالبية العظمى منهم. واستخدمت نظم الاستبداد في تلك المحاولات السيف والسجن والتعذيب والمال وغيرها من الوسائل التي أصبحوا يحتكرونها منذ ذلك التحول المشؤوم إلي الاستبداد، والذي حدث بعد نحو نصف قرن فقط من وفاة الرسول الكريم ﷺ.

وحتى نرفع الأقواس عن مصطلح الإسلاميين فلنبين أن هذا المصطلح المقصود به في سياق حديثنا هذا كل من اتخذ من الإسلام نظاماً شاملاً للحياة يحكم حياة الفرد كما يحكم على نظام الدولة في الماضي أو الحاضر، ومنهم العلماء وأصحاب الفكر والأدب والقيادات الاجتماعية والتعليمية والمؤسسية ممن يتخذون من الإسلام منطلقاً ومنهجاً، ويدخل معهم بالطبع الجماعات الإسلامية القديمة والمعاصرة على أشكالها - المخلصون منهم على أي حال، والله أعلم بما في قلوب الناس.

ودرس التاريخ مهم، وهو يروي لنا كيف أنه منذ أن حسم السيف الصراع بين يزيد والحسين رضي الله عنه، والمستبد لا يفتأ يستغل الإسلاميين لشرعنة نظامه الباطل، منذ من بقي من الصحابة رضي الله عنهم في ذلك العهد إلى يومنا هذا، وكيف خوفهم المستبد بالسجن -أو القتل- من أجل أن يستقيموا على ما يريد من شرعية دينية يعطونه إياها في مقابل حياتهم، بالإضافة إلى اتفاق واضح - ولو كان غير مكتوب - أن يتكلموا ويكتبوا ويعملوا في حدود المساحات التي يسمح المستبد بها لا يتعدونها. وقد بدأ هذا الاستغلال للإسلاميين في شرعنة الاستبداد بالبيعة ليزيد بن معاوية بالخلافة، والتي منحها له مجاناً ستون من الصحابة رضي الله عنهم - بما فيهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - اجتهاداً منهم أن في تلك البيعة حقناً للدماء ودرءاً لما ظنوه (فتنة)، وإنما بدأت الفتنة الحقيقية بهؤلاء الولاة (المتغلبين) الذين لم يرقبوا في الإسلام حقاً ولا عدلاً ولا شورى وغضبوا مقدرات الأمة وثرواتها وسنوا سنة الاستبداد إلى يومنا هذا. ولكن المستبدين أرادوا أن يذهبوا إلى شرعنة أبعد من مجرد الاعتراف، فطمحوا إلى أن يعمل معهم أعلام الإسلام وأصحاب العلم والرأي في إطار نظم الاستبداد نفسها، واتخذوا من السجون سلاحاً من أجل فرض هذا الطموح على هؤلاء الأعلام، ولكن أصحاب الوعي من الإسلاميين على مدار التاريخ أدركوا خطر هذه اللعبة وقرروا أن يرفضوا الاشتراك في نظم الاستبداد مهما هددوا من سجن، وعندنا أمثلة تاريخية كثيرة نتعلم منها دروساً لواقعا الاستبدادي الجديد القديم.

فالصحابي الجليل سعيد بن جبير رضي الله عنه - مثلاً - كان مسؤولاً مالياً لأحد الجيوش التي بعثها الحجاج لقتال الترك في ذلك العهد، وكان حينئذ يرى التعاون مع السلطة المستبدة الواقعية ما دامت ترعى

الجهاد في سبيل الله، ولكنه بعد حين أدرك أن الله لا يصلح عمل المفسدين، وأنه لابد من زوال الاستبداد نفسه من أجل صالح الأمة جميعاً، فقرر سعيد أن يخلع الحجاج - أي يسقط عنه الشرعية - بل وخرج محارباً من أجل زوال النظام الأموي الاستبدادي كله في ما سماه من بعد الأمويون الدهاة: فتنة ابن الأشعث، بدلاً من التسمية الحقيقية: الثورة على الاستبداد. فما كان من الحجاج إلا أن اعتقل سعيد وعرض عليه المال! قالوا: فوضع أموالاً كثيرة بين يديه! وحين رفض سعيد أن يشتري بالمال - الذي اغتصب أصلاً من أموال الناس - قتله الحجاج مباشرة.

ومضى النظام الاستبدادي العباسي على نفس المنوال، فأبو حنيفة الإمام رضي الله عنه سجنه الإمبراطور العباسي المنصور بعد أن رفض هديته روى التاريخ أنها كانت: مالاً كثيراً وجارية بالإضافة إلى منصب القضاء، فُضِرَب الإمام أبو حنيفة بالسياط حتى يقبل منصب القضاء ومات في سجنه - لله دره - وهو رافض للمناصب والأموال والجواري، بل قيل إنه قُتِلَ بالسُم في سجنه، ثم يروي لنا التاريخ كيف أن المنصور خرج ليصلي بنفسه صلاة الجنازة على أبي حنيفة خوفاً من ثورة الناس أو اتهامهم له بقتله! والمنصور هذا الذي سُمي نفسه (خليفة) هو نفسه الذي أمر بضرب الإمام مالك في السجن حتى خلعت كتفه لأنه رفض شرعية البيعة للوالي بالإكراه، بل وأصر مالك على رواية حديث الرسول ﷺ: "ليس على مستكره يمين"، ورفض أن يكتم الحق إرضاء للمستبد أو أن يتعاون معه، وظل على رأيه حتى خرج من السجن.

وسُجِن الشافعي وكاد أن يُقتل حين رفض شرعية الخلافة لهارون الرشيد الإمبراطور العباسي التالي، وعرض عليه هارون نفس الهدايا: المال والجواري والقضاء، إلا أنه أفلح في إقناعه بأن يعفيه من قبول الهدايا ومن منصب القضاء دون أن يقتله، فسمحوا له حيناً من الدهر بالتعليم والفتوى والسير في الأرض. وسُجِن وضُرِب أحمد بن حنبل في بغداد ولكنه لم يلوث تاريخه الناصع بالاشتراك في السلطة المستبدة حتى بعد أن صدر العفو عنه، وسجن ابن تيمية بوشايات سخيفة في الإسكندرية والقاهرة ومات في سجن قلعة دمشق، وسجن ابن القيم أيضاً في قلعة دمشق، وسجن ابن حزم في الأندلس، والصنعاني في اليمن، وأبو شامة في الشام، والعز بن عبد السلام في مصر المماليك... والقائمة تطول لتشمل سجن كل من له نصيب من الإسلام وتأثير في الناس ومعارضة للاستبداد في أي شكل من أشكاله، منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى يوم الناس هذا، وكانت المعادلة: السجن أو شرعنة نظام الاستبداد! والدرس الذي نتعلمه من هؤلاء الأئمة الأعلام هو أنه على الرغم من أنهم تجنبوا مجابهةً بالسلاح لم يستطيعوا إليها سبيلاً مع نظم الاستبداد، إلا أنهم رفضوا أن يكونوا جزءاً من تلك النظم الفاسدة، وأصروا على استقلال أصحاب القدوة في الإسلام عن الأمراء المستبدين القتلة السارقين.

وتتعامل نظم الاستبداد في واقعنا المعاصر بنفس منطق يزيد والحجاج وهشام وأبو عباس السفاح والمنصور وهارون والمأمون وابن قلاوون وهلم جراً: إما أن تقبل المال والجواري والمناصب وتكون جزءاً من النظام المستبد على شروطنا وإما السجن ثمناً لرفضك. هكذا تعامل جنرالات العسكر في بلاد النظم العسكرية الاستبدادية - عرباً وعجماً - مع العلماء والمفكرين والجماعات الإسلامية في بلادهم، وهكذا تعامل الملوك والأمراء في بلاد النظم القبلية الاستبدادية - عرباً وعجماً - مع العلماء والفقهاء وأصحاب النشاط الإسلامي العام، وإذا أردنا الحصر فسنتكتب هنا أسماء كل ما يسمى بالبلاد الإسلامية بلا استثناء تقريباً.

خلاصة القول الذي يسمح به المقام في سياق تفكيك منظومات الاستبداد أنه: لابد أن ندرك أن التحالفات المفروضة بسلاح السجن بين المستبدين والإسلاميين على أنواعهم لا تصح ولا تفيد! من المقبول بل من

الواجب شرعاً وعقلاً أن يتجنب الإسلاميون إراقة الدماء ويتجنبوا سلب حرية خير شباب وشابات ورجال ونساء الأمة الشرفاء من كل أطراف الفكر والحركة، لكن لا يلزمهم أن يكون ثمن هذا التجنب الاشتراك الفعلي في النظام الاستبدادي أو التحالف معه. هذا تحالف ضار جداً بهذه الأمة على المستوى الاستراتيجي الطويل المدى البعيد الأثر.

من الأولى للإسلاميين - بدلاً من أن يبيعوا مبادئ الدين في قيام الدولة العادلة بأن يصبحوا جزءاً من نظام الدولة المستبدة في المرحلة الحالية - أولى بهم أن يستقبلوا من العمل السياسي جملة وأن يقتدوا بهؤلاء الأئمة الأعلام في رفض المناصب والأموال ثمناً للخروج من السجن، بل يخرجوا من السجن - بعد أن يُخرجوا الشباب البريئ - بخروجهم من العمل السياسي كله واعتزالهم للعبة السياسة كلها في تلك الدول الوطنية الموهومة التي تعمق فيها وتأصل الاستبداد والفساد، فإنهم إن لم يستطيعوا اجتثاث نظم الاستبداد من جذورها العميقة فلا أقل من أن يرفضوا أن يكونوا جزءاً منها أو أدوات لها، وأن يسألوا الله تعالى السلامة من المسؤولية عن أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، ولا يشتركوا بالفعل في نظم باطلة وغير قابلة للإصلاح وصممت أصلاً منذ أن نشأت لتخدم المستعمر القديم الجديد.

أولى بالإسلاميين أن يخوضوا معارك الوعي والإدراك والثقافة وملاحم التربية والتوجيه والدعوة حتى تحين ساعة التغيير الشامل العميق ويقضي الله أمراً كان مفعولاً، لعل الله تعالى أن ييسر لهذه الأمة بمجموع قواها وبرايراتها الجمعية التي لا مرد لها إذا ظهرت، أن ييسر لها أمر رشد بعد قرون من الاستبداد، وما ذلك على الله بعزيز.

تفكيك منظومات الاستبداد (١٤): الاستبداد وأحاديث طاعة الحاكم

علاقة الاستبداد بعلم الحديث وكتب الحديث وأهل الحديث موضوع معقد وذو شجون، ولكنه مهم وكاشف لأصول إشكاليات فكرية كبيرة عانت منها أمة الإسلام من أربعين هجرية إلى يومنا هذا. إلا أن رسم الملامح العامة لهذه العلاقة التاريخية وكيف نعيد تصورها اليوم، يحتاج إلى تفصيل في بحث طويل، وله مقام آخر إن شاء الله. أما في هذا المقام فلنسلط بعض الضوء على بعض الأحاديث التي كثر حولها اللغط هذه الأيام، وهي أحاديث تتعلق بقضية (طاعة ولي الأمر)، والتي يقدمها البعض اليوم على أنها طاعة مطلقة وانقياد تام للحكام مهما كان سلوكهم وسياساتهم، بل وعلى أنها جزء من الدين لابد أن يلتزم به الناس وإلا اعتُبروا (خارجين على الحاكم) وتعرضوا لعقوبة سمّوها (شرعية) وأوصلوها إلى القتل (تعزيراً) كما زعموا!

ثم نرى عجباً حين يُضطهد في بلاد الإسلام شرقاً وغرباً وعرباً وعجماً، يُضطهد العلماء الأعلام الناصحون ويُسجن الفضلاء الواعون المعارضون ويُقتل الشباب الشرفاء المناضلون بدعوى أنهم (خرجوا) على أولياء الأمور، فيتهمون بالخيانة وبمخالفة الأحاديث الشريفة في طاعة الحكام والتي هي فريضة لازمة، إلى آخره... فما هي القصة؟

القصة خلاصتها أنه قد وصل إلينا مما صحت روايته - عند أهل الحديث - عن رسول الله ﷺ مجموعتان متعارضتان من الأحاديث: مجموعة تأمرنا ب (طاعة الأمراء) و(التزام بيعتهم) مهما انحرفوا ومهما طغوا، إلا في حالة واحدة يعلنون فيها الكفر الصريح بملة الإسلام، ومجموعة أخرى من الأحاديث الصحيحة أيضاً تأمرنا بالنصح للأمراء إذا ظلموا أو جاروا بل وينص بعضها على (جهادهم) إذا انحرفوا كشرط لكمال الإيمان. ولنكتفي هنا ببضع روايات صحت حديثاً عن صحابة رسول الله - رضي الله عن الصحابة - مما يكشف لنا بعض جوانب العلاقة المركبة بين الاستبداد وروايات الحديث ورواته وشروحه.

أولاً: أخرج الحاكم والطبراني عن عبادة بن الصامت (لاحظ الصحابي الراوي) أنه كان في الشام ينكر على معاوية بن أبي سفيان (أي وهو أمير على الشام) أشياء ويحتج بحديث البيعة (لاحظ الإشارة) فكتب معاوية إلى عثمان أن عبادة بن الصامت قد أفسد عليّ الشام وأهله. فلما جاء عبادة إلى عثمان قال له سمعت النبي ﷺ يقول: (سيليكم أمراء بعدي يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون، فمن أدرك ذلك منكم فلا طاعة لمن عصى الله).

والقصة هنا أن معاوية حين كان أميراً على الشام في عهد عثمان، كان قد بدأ في التأسيس لتحويل الخلافة إلى ملك لبني أمية (وهذه حقيقة تاريخية لا مرء فيها)، فبنى القصور الخاصة به، واتخذ الحُجَاب بينه وبين الناس، وكنز الأموال الكثيرة وغير ذلك من الأفعال التي أنكرها عليه حينها بعض الصحابة، كعبادة بن الصامت وأبي ذر الغفاري (ويأتي الحديث عنه تالياً)، وحين أُشهر سيف (طاعة الحاكم) في وجه عبادة لإسكاته روى ما سمعه بنفسه من رسول الله ﷺ أنه لا طاعة لأمر عصى الله فحول المعروف منكرًا والمنكر معروفًا.

أما (حديث البيعة) المشار إليه في جدل عبادة مع معاوية فقد رواه مسلم عن عبادة أيضاً وعن غيره بهذا اللفظ: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا [أي حتى لو انتقصت حقوقنا]، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله [أي لا نطلب الحكم دون شرعية]، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم). إذن، فعُبادَة بايع الرسول ﷺ فعلاً على السمع والطاعة وعدم

النزاع، ولكنه أيضاً بايعه في نفس الجملة على أن يقول الحق لا يخاف لومة لائم، كلها في بيعة واحدة متكاملة. ومن هذا المنطلق كان نصحه لمعاوية وهو أمير.

ولكن، فليبحث القارئ الكريم بنفسه ثم يتعجب معي كيف حُرِّفت معاني هذا الحديث وأمثاله لصالح الاستبداد، حيث يقتل المستبدون من أربعين هجرية وإلى اليوم من يقول الحق لا يخافون في الله لومة لائم ولو كانوا من الصحابة والقراة والتابعين، ثم يروي من يتكلم أو يكتب في موضوع الطاعة - وإلى اليوم - النصف الأول من الجملة من حديث البيعة واقفين عند الطاعة والصبر وأثرة علينا، وتاركين النصف الثاني الذي فيه: أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف لومة لائم! والأمثلة المعاصرة على هذا التحريف المخل كثيرة جداً.

ثم إن مفهوم (لا طاعة لمن عصى الله) نفسه قد تحول إلى مفهوم مختلف وهو (لا طاعة لمن يأمر بمعصية الله)، وهذان أمران مختلفان. هناك فرق بين عدم الطاعة للأمير إذا كان على معصية، وبين أن نركز فقط على سؤال: هل يأمرنا الأمير بمعصية الله أم لا؟ فإن أمرنا بمعصية فلا نطيعه وإن لم يأمرنا فله الطاعة حتى لو كان هو نفسه فاسقاً عاصياً لأوامر الله، وهو فهم خاطئ منحرف.

صحيح أن هناك أحاديث أخرى في البخاري ومسلم وغيرهما تنهانا عن طاعة المخلوق في معصية الخالق وأن الطاعة في المعروف، ولكن هذه قضية أخرى لا يصح أن تخلط بقضية محاسبة الحاكم على معصيته، ولا أن تلغي رقابة الأمة وأصحاب الوعي فيها على الأمراء وتقويمهم إذا عصوا الله.

ثم حدث تحريف أخطر، ألا وهو في تعريف (المعصية) نفسها، فرأينا كيف تحول تعريف المعصية شيئاً فشيئاً خلال القرن الأول الهجري من تعريف الصحابة المتسق مع الكتاب والسنة على صاحبها الصلاة والسلام إلى تعريف محدود يقتصر على الذنوب الفردية فقط كالزنا وشرب الخمر، ونسمع مثل هذا في الجدل الإعلامي القائم هذه الأيام. ولكن، أليس العدوان على المال العام وضمه للحساب الخاص معصية؟ أليس غياب الشورى معصية؟ أليس قتل الناس وضربهم وتعذيبهم وحبسهم ظلماً معصية؟ أليس حرمان العمال من الأجر العادل وتجويع الشعوب معصية؟ أليس تدخل الحكام والأمراء في شؤون القضاء معصية؟ أليست الخيانة لقضايا المسلمين السياسية لصالح أعدائهم معصية؟

نعم، هذه كلها معاصي وكبائر من الذنوب عليها أدلة شرعية ثابتة لا غبار عليها، ولكن المفهوم قد انحرف للأسف ليصبح أن الحاكم لا يصنف (عاصياً) إلا إذا زنا أو شرب الخمر، بل وتجب (طاعته) ما لم يأمرنا بهذا الشرب والزنا صراحة، ثم قالوا إن الاستثناء الوحيد أن يخرج الحاكم على الناس فيشهد على رؤوس الأشهاد على نفسه كفوراً بواحاً وأنه قد ارتد عن الملة! ما هذه السذاجة وهذا التبسيط المخل لمعاني الشريعة؟!

ولنأخذ مثلاً ثانياً كاشفاً لأبعاد أخرى، وهو حديث أبي ذر الغفاري حين أنكر بدوره على معاوية بن أبي سفيان كنز الذهب والفضة وبناء القصور، إلى آخره، فقد روى البخاري عن أبي ذر أنه قال: (كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}. قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك).

ولكن مغزى القصة حرِّفه بعض كبار الفقهاء للأسف، فبدلاً من أن يكون الموضوع هو إنكار أبي ذر على معاوية أنه حوّل (مال الله) أو المال العام إلى منافع خاصة يتصرف فيها، جعلوه خلافاً حول تعريف الزهد! وكأن أبا ذر أراد أن يحمل الناس جميعاً على (الزهد) وهو غير لازم في شريعة الله، إلى آخر ما قالوا.

راجع مثلاً هذا التعليق على الحديث من أبي بكر بن العربي (في العواصم) ومن ابن تيمية (في منهاج السنة) وغيرهما من السلف والخلف، مما يدل على إشكالية عميقة في تعريف صلاحيات الحاكم في المال

العام في الفكر الإسلامي. لماذا لا يذكرون هنا حديث رسول الله ﷺ الصحيح أيضاً: (ما بال العامل نبهته فيأتي، فيقول: هذا لك وهذا لي، فهلاً جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى له أم لا؟)، ومعناه عام في (العامل) ليس عامل الزكاة فقط، بل كل مسؤول في الدولة له حقوق معينة - بالقسط والمعروف - لا يجوز له أن يتعدها من مال الأمة.

قضية أبي ذر إن لم تكن تعريف (الزهد)، بل كانت قضية سياساتية شرعية مهمة، وهي الخلاف منذ زمن الصحابة حول تعريف المال العام وحق الحاكم فيه، حيث رأى أبو ذر - كما كانت سيرة أبي بكر وعمر - أن الحاكم لا حق له في المال العام إلا لحاجاته الضرورية، (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ)، بينما أسس بنو أمية لنظام مالي يجعل المال العام تحت سلطة الحاكم المطلقة دون قيد أو شرط، وهو نظام تبعهم فيه العباسيون وما زلنا نعاني منه كأمة إسلامية إلى اليوم.

ومن الطرائف أيضاً أن أهل الحديث يروون حديث أبي ذر في طاعة الأمراء (في السنة عند ابن أبي عاصم وغيره) عن معاوية بن أبي سفيان نفسه! قال: لما خرج أبو ذر إلى الربذة لقيه ركب من أهل العراق فقالوا: يا أبا ذر، قد بلغنا الذي صنع بك، فاعقد لواء يأتك رجال ما شئت، فقال: مهلا يا أهل الإسلام، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون بعدي سلطان فأعزروه [أي أيّده]، من التمس ذله [أي ذل الأمير] ثغر ثغرة في الإسلام، ولم يقبل منه توبة حتى يعيدها كما كانت.

هذه رواية معاوية لكلام أبي ذر عن (تعزير السلطان) وهو كلام صحيح حديثاً، ولكن أين بقية قصة أبي ذر؟ أين نصح السلطان وتقويمه؟ هذا الجانب الآخر لم يرد في هذه الرواية ولا في غيرها عن معاوية ولا عن غيره من الأمراء على مدار التاريخ، إلا من رحم الله. وإذا صح تاريخياً أن أبا ذر رفض دعوات العراقيين إلى السلاح حقناً للدماء ودرءاً للشقاق ومؤثراً القبول بالنفي إلى الصحراء زهداً منه في الدنيا، فهذا لا يعني أنه لم يعارض التحول إلى الاستبداد السياسي والاقتصادي علناً ويدعو الناس إلى تغييره بما يستطيعوا، وقد ورد في هذا روايات أخرى كثيرة.

وما لنا نذهب بعيداً وعندنا الخطبتان المشهورتان للخليفين الراشدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حين توليا الحكم، إذ قال أبو بكر قولته الشهيرة: (إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني)، وقال عمر قولته الشهيرة: (إذا رأيتم في أعوجاجاً فقوموني، فقام رجل وقال: والله لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناك بسيوفنا، وردّ عمر: الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم عمر بسيفه)، إلى آخره. ونعجب هنا أن بعض أهل الحديث - خاصة من المعاصرين - تصدوا لهذه الروايات بـ (التضعيف) لسندها والردّ لمعانيها بناء على فنيات وتفصيل اخترعوها، يضيق المقام عن مناقشتها، ولكنها دليل آخر على إشكالية خدمة الاستبداد باسم علوم الحديث.

وعلى أي حال فكلام الشيخين الراشدين أبي بكر وعمر يتوافق مع حديث عبد الله بن مسعود - الذي رواه مسلم والبخاري في التاريخ وغيرهما - أن رسول الله ﷺ قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل).

ومن المهم أن نلاحظ أنه قد ورد في رواية ابن حبان لهذا الحديث عن عامر بن السمط عن ابن إسحاق بن طلحة قال: (حدثني ثم استكتمني أن أحدث به ما عاش معاوية)، مما يسلط ضوءاً آخر على زاوية من زوايا موضوع الاستبداد والحديث، ومما يفسر عدم التناسب بين أقدار الصحابة رضي الله عنهم وما روي

عنهم، فيفسر لنا لماذا لا يروي أهل الحديث عن الإمام علي بن أبي طالب - وهو من هو في الإسلام - إلا القليل، وأثر السياسة على روايات الحديث هنا واضح كالشمس لكل منصف.

ومالنا ذهبنا بعيداً مع الروايات المتشابهات في متاهات التاريخ، وعندنا محكمات القرآن ليس فيها لبس ولا غموض، وهي تدل على أن نصح الحكام وذوي السلطان وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر هي من المعاني المقصودة في السياسة الشرعية وهي سنة الأنبياء وطريق المؤمنين الصادقين على مدار التاريخ. (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، (فَأْتِيَاهُ [أَي فرعون] فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)، (وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)، والآيات في هذا الباب كثيرة.

إذن، الرأي المتزن السليم - في ضوء المحكمات القرآنية والرؤية النقدية المتكاملة للأحاديث المختلفة - أن المسألة ليست ثنائية تبسّطية أبيض أو أسود (إما طاعة وإما خروج)، وإنما النصح للحكام حق وواجب، وهذا على درجات، أقلها الإنكار بالقلب إذا ضاق الأمر واشتد البلاء ولم يقو الناصح على تحمل النتائج، ثم الإنكار باللسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو واجب العلماء والعقلاء ولو دفع الناصح لذلك حياته فهو شهيد. قال عليه السلام: (سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)، وهو بالمناسبة حديث صحيح أخرجه الحاكم على شرط البخاري ومسلم، ولكن حكم كثير من أهل الحديث من السلف والخلف أنه (ضعيف) أو (منكر)، وهما كم خدمة أخرى للمستبد باسم علوم السنة والسنة منها براء.

ثم هناك أيضاً في شرع الله الجهاد لأهل البغي والظلم والتغيير باليد، ولكن لا يصح هذا إلا فيما يعظم شره ويستفيض ويستلزم الجهاد المشروع في سبيل الله، ويكون التغيير عن شورى وإجماع على ضرورته والموازنة الواقعية بين احتمالات المصالح والمفاسد، فلا ينبغي أن يزال منكر صغير ليحل محله منكر أكبر، ولا منكر مؤقت ليحل محله منكر يدوم، كما نرى في واقعنا كذلك.

وهناك ملاحظة أخيرة، أنه في سياقنا المعاصر لم تعد (الطاعة) المذكورة في الحديث لشخص (الحاكم) أو (أولياء الأمور) بأشخاصهم، بل معناها في سياق الدول الوطنية المعاصرة احترام النظام العام والقانون الرسمي والمسؤولين على أنهم جزء من هذا النظام العام وكممثلين للدولة والقانون، هذا طبعاً إذا كان أساس الدولة الشرعية، وأساس القانون العدل، وليست دولة خوف قائمة على إكراه الناس، ولا قانون سيء السمعة هدفه أن يشرع للظلم والفساد، وهذا موضوع آخر له مقام آخر في (تفكيك منظومات الاستبداد)، والله المستعان

تفكيك منظومات الاستبداد (١٥): الاستبداد وعلم العقيدة

كم يروج الاستبداد وأبواق إعلامه في عصرنا أن معارضي الاستبداد كفار وزنادقة ويمونهم بشتى أنواع البدع في العقيدة والسلوك، ولو كانوا من أكابر العلماء أو أفاضل المؤمنين والمؤمنات. والحق أن هذه سياسة قديمة قدم الاستبداد في بلاد المسلمين. بل إن المراجعة الدقيقة للتاريخ الإسلامي وأحداثه تكشف لنا حقيقة صادمة، ألا وهي أن من قاموا ثواراً ضد نظم الاستبداد منذ بدأت هم أنفسهم الذين اتهموا في تاريخ علم العقيدة بأنهم أهل البدع الاعتقادية ونسبت إليهم الزندقة والفسق والفجور وعظائم الأمور!

وهذا لا يعني أنه لم تكن هناك بدع ضالة ولا فرق كافرة ولا أفكار منحرفة. هذه كلها كانت موجودة بالفعل، ولكن نسبة أصحاب الموقف السياسي الراض للاستبداد والملك العضوض إلى تلك الانحرافات ورميهم بالزندقة والبدع العقيدية التي تستباح بها دماؤهم هو الذي أعني، وهذه الاتهامات في نظري كانت من أكبر الكذبات التي وصلت إلينا من كتب التاريخ، ذلك التاريخ الذي يكتبه المنتصر على أي حال.

قبل عصر التاريخ الإسلامي نجد الفرعون يتهم موسى نفسه صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم بالكفر والفساد! قال فرعون: (وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ - الشعراء: ١٩)، ويقول لقومه: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ - غافر: ٢٦). هي نفس السياسة الفرعونية لم تتبدل.

ومن أوائل الأمثلة على ذلك في التاريخ الإسلامي ما يُروى عن لعن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابر المساجد أيام الأمويين إلى أن أوقف ذلك الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز وكتب إلى نوابه أن يقرأوا مكانها (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ - النحل ٩٠)، وهي الآية التي ما زلنا نقرأها على المنابر في ختام الخطبة إلى يومنا هذا جزاه الله عن الإسلام خيراً (يراجع في ذلك مثلاً حديث أبي التراب المتفق عليه، وما كتبه السيوطي في تاريخ الخلفاء، وابن حزم في المحلى، والزمخشري في تفسير الآية، وغيرهم).

وغني عن البيان من هو علي بن أبي طالب في الإسلام، ولكن الشاهد هنا هو الخلط بين الموقف السياسي من سيدنا علي أو سيدنا الحسين أو سيدنا عبد الله بن الزبير (وهو موقف الذين كانوا فيه الفئة الباغية على أي حال)، وبين الموقف العقدي الذي استباح به ملوك وولاة بني أمية ذلك اللعن ومعه دماء أنصارهم وأتباعهم. وأرجو من القارئ الكريم الذي يقرأ هذا فيظن بي (التشيع) كله أو بعضه، أرجو منه أن يتريث ويتفكر قليلاً لأن بيان هذا الخلط العجيب هو عين مقصودي من هذه المقالة، هذا إن كان باحثاً عن الحق على أي حال.

والحكام المستبدون منذ أن تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض وإلى اليوم يتدخلون تدخلات صريحة في علم العقيدة الإسلامية، ويدعمون آراء ومذاهب بعينها، ويكفرون ويزندقون ويفسقون الآراء والمذاهب أخرى، كل حسب ما يخدم مصالحهم في السلطة.

الحسن البصري مثال ثان، وهو من هو علماً وعملاً ورواية ودراية وهو الذي قالت فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (يشبه كلامه كلام الأنبياء)، ولكنه حين عارض تحول الخلافة إلى ملك عضوض وواجه على الملأ الحجاج بن يوسف سفاح العراق بالتشنيع على جرائمه وسفكه للدماء ضيقوا عليه ثم حاولوا سجنه إلا أنه هرب، ثم نجدهم لا يتهمونه بشيء إلا بـ (الغبية) أي أنه يغتاب الحكام في غيابهم! واتهموه كذلك بـ (القدر) أي مذهب المعتزلة في حرية الاختيار وكان المعتزلة فعلاً من تلامذته في الوقت الذي نقرأ في التاريخ أنه (كانت بنو أمية مجمعة على الإجبار) أي أن الإنسان مجبر لا مختار، وهو المذهب الذي لا يخفى أنه يخدم مصالحهم الخاصة (وليراجع القارئ الكريم كتاب أستاذنا الدكتور محمد عمارة: مسلمون ثوار، وهو بحث شامل قيم).

وغيلان الدمشقي التلميذ النجيب للحسن البصري مثال آخر، وكان عالماً فقيهاً وله كتابات طويلة ضاعت فيما ضاع من تراثنا، وكان يدعو أيضاً إلى أن الإنسان مخير وليس مسيراً، ويعارض (الجبرية) الذين يقولون إن الفقر وطغيان الحكام هو فقط من قدر الله على الإنسان ولا دخل لنا فيه، وهؤلاء كانوا في حماية الملوك بالطبع.

وقد كتب غيلان ناصحاً إلى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز في الأموال التي اغتصبها أقاربه من بني أمية بغير حق، فاستجاب له عمر وولاه بيع ممتلكات بني أمية وتوزيعها على فقراء المسلمين، وكان غيلان ينادي في السوق: (تعالوا إلى متاع الظلمة ... يأكلون هذا والناس يموتون من الجوع)، ورآه هشام بن عبد الملك فأقسم أن يعاقبه. فباع غيلان الشيء الكثير من الأراضي والحلي والذهب والملابس. ولما قتل بنو أمية ابن عمهم الخليفة عمر بن عبد العزيز بالسّم وتولى هشام بن عبد الملك الخلافة وعاد الاستبداد اعتُقل غيلان، ولكنه لم يتهّم بالثورة ولا بفساد الذمة، بل اتهم بـ (البدعة في الاعتقاد)، وسمي أتباعه بـ (الفرقة الغيلانية الضالة)، وحكم عليه علماء السلطة في ذلك الوقت بالردّة، فصلبه جند هشام بن عبد الملك بعد قطع يديه ورجليه، بل وأرسل هشام له من قطع لسانه وهو مصلوب.

ويمضي التاريخ بالإمبراطوريات التالية على نفس المنوال: أئمة أعلام يعارضون الجور والفساد والاستبداد فيتهمون بالبدع (الاعتقادية) ويُقتلون وينسبون إلى الفرق الضالة: زيد بن علي، ومحمد النفس الزكية، وعلي بن محمد قائد ثورة الزنج، وغيرهم كثير ... بل ونقرأ في التاريخ كيف قال الملك الأشرف في دمشق عن سلطان العلماء الإمام العز بن عبد السلام بعد أن حبسه: (ظهر بعد الاختبار أنه من الفجار لا بل من الكفار)! ثم حبسه وقيده الملك التالي إسماعيل بن العادل بعد أن عارض العز استعانته بالصليبيين على أخيه نجم الدين أيوب! فأرسل له من يطلب منه أن يقبل يد الملك حتى يفرج عنه فقال العز لمن جاءه: (والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أقبلي يده. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد).

وأما اليوم فنجد حكومات استبداد لا تحترم ثوابت الإسلام أصلاً وتوالي أعداءه الصرحاء بعداوتهم وتضيّع أماكنه المقدسة وتحارب علماءه الذين شهدت لهم الأمة بالخير ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، ثم هم أنفسهم ينفقون أموالهم في بلاد الدنيا الواسعة، وهي أموال الأمة أصلاً، ليدعموا مؤتمرات دولية ومراكز بحثية ومطبوعات متنوعة تعرّف (العقيدة الصحيحة) فتدخل فيها من يشاءون وتخرج منها من يشاءون، بدعوى حماية (عقيدة السلف) أو (عقيدة آل البيت) أو (الماتريدية) أو (الأشعرية) إلى آخره، وهذه كلها مذاهب لها وعليها مما لا يخفى على الدارسين، وكل يُؤخذ من كلامه ويترك، ولكننا نجد المستبدين كل

يدّعي أنه فقط يمثل (الجماعة) و(الفرقة الناجية) وأنه حامي حمى العقيدة السليمة، وكل يدّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا.

وبالمناسبة، فإن علم العقيدة الإسلامية التاريخي يحتاج منا إلى أن ندرسه هنيهة ثم نتجاوزه إلى عصرنا، إذ أن الشبهات والأسئلة العقديّة التي تثار اليوم تختلف اختلافاً كبيراً عن ما كان في التاريخ. نحتاج إلى علم عقيدة أو (علم كلام) جديد يرد على التفكيكين والتاريخيين والفوضويين والداروينيين والوضعيين والنسبيين والوجوديين والكونفوشيين والمستيقين الجدد وغيرهم من أصحاب الأفكار الهدامة فعلاً التي لم تجد للأسف ردوداً شافية في عصرنا، وإن وُجدت فهي ردود تفتقر إلى الدعم المادي والعلمي والإعلامي والمطبعي، وهذا من أسباب توغل الإلحاد في شباب وشابات هذه الأمة، لا يجدون من يقاوم الإلحاد الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة، لأن العلماء القادرين على مناقشة قضايا العقيدة أصبحوا يستخدمون كأداة سياسية من أدوات الاستبداد حسب التقسيمات والمدارس القديمة التي لم يعد لها وجود حقيقي، بدلاً من دفعهم لمواكبة شبهات العصر وأسئلة العصر ومشكلات العصر وعلى رأسها الاستبداد.

تفكيك منظومات الاستبداد (١٦): الاستبداد والقسوة في القتل

هناك حكمة في ذكر الله تعالى في كتابه الكريم لبعض التفاصيل في تعذيب الطغاة للناس قبل قتلهم، قال فرعون: (الْأَقْطَنُ أَيَّدِيكُمْ وَرَجَلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى - سورة طه)، وقال تعالى: (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُحُدُودِ. النَّارَ ذَاتَ الْوُوقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ - سورة البروج)، والحكمة هنا أن يدرك القارئ المتدبر لكلام الله قسوة المستبدين الطغاة حين تقع أيديهم على من يتحدونهم ولو بكلمة الإيمان المجردة، فضلاً عن النصح أو النقد، ولكي نفهم كيف أن الحقد في قلوب الطغاة يدفعهم للتعذيب والتشفي وبث الرعب في قلوب الناس، ولا يفهم القتل المباشر. وما يحدث في عالمنا الإسلامي من الطغاة المستبدين من تعذيب واغتتيال لمعارضيه داخل السجون وخارج السجون في أرض الله - بصرف النظر عن مسألة الحدود الوطنية - أصبح ظاهرة خطيرة، وله جذور تاريخية نحتاج إلى تحليلها ومعالجتها.

ومن الخطأ والظلم أن تسمى تلك القسوة (وحشية) كما هو شائع في أيامنا هذه، فالوحوش في البراري والقفار أعلى وأنزه من ما يفعل هؤلاء الطغاة. الوحوش تقتل لكي تأكل وتعيش لا لكي تعذب أو تتشفي، وتستهدف الوحوش بفطرتها نقطة الضعف في الفريسة كخنق الرقبة مثلاً حتى تموت الفريسة بأسرع وسيلة قبل الشروع في أكل لحمها، ثم تتوقف الوحوش عن الأكل والصيد حين تشبع. أما الطاغية المستبد وجنوده فقسوتهم ليست (وحشية) بل (شيطانية)، لأن الحقد في قلوبهم لا يسمح لهم إلا بالتشفي بالتعذيب ولا يرضيهم حتى القتل المباشر لفرائسهم، وهم لا يتوقفون عن العدوان لشبع ولا امتلاء.

وقد رأينا للأسف في تاريخنا الإسلامي منذ أربعين هجرية ذلك السلوك الفرعوني الشيطاني في الطواغيت من حكام المسلمين، وما زلنا نعاني من تلك (الشيطنة) إلى يومنا هذا، فحين قتل بنو أمية الحسين بن علي رضي الله عنه لم يشفع له أنه حفيد النبي ﷺ و(سيد شباب أهل الجنة) كما هو ثابت عند الجميع في حديث جدّه، بل وأمعنوا في طعنه وتقطيعه بالرماح والسيوف، ثم أخذوا رأسه الشريف عبر البلاد إلى أن وضعوها أمام فرعونهم.

وحين قتلوا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ولم يستطيعوا تعذيبه قبل قتله صلبوه بعد قتله وتركوه مصلوباً، ولم يشفع عندهم سنّ ولا مقام أمه ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وقد بلغت سنّها حينئذ مائة عام وعمي بصرها، وكانوا قد قتلوا من قبل أخيها محمد بن أبي بكر الصديق وهو يكاد يموت عطشاً كما يروي التاريخ، فرفضوا أن يعطوه شربة ماء، ودسّه قائد جندهم معاوية بن حديج في بطن حمار ميت وأحرقه! ويمضي التاريخ راوياً فصول المأساة: (فلما بلغ الخبر أم المؤمنين عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وقننت في دبر كل صلاة تدعو عليهم وقبضت عيال محمد بن أبي بكر إليها)، مما أثار حفيظة المستبدين وحقدهم عليها هي أيضاً، ولو بعد حين.

وإذا كان هذا سلوك من سنّوا الطغيان في هذه الأمة مع الصحابة والقراية وأمّهات المؤمنين فحدث ولا حرج عن الطرق التي قتل بها خلفاؤهم من عارضهم من علماء أهل السنة والشيعية والمعتزلة وأصحاب الرأي من الشرفاء، بل وقتلوا حتى الناصحين المقسطين من أبناء عمومته في الأسر الحاكمة نفسها ونبشوا قبور بعضهم، كما نبش مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية قبر يزيد الثالث ابن عمومته الخليفة الأموي الصالح ليخرجه حتى يصلبه ميتاً، رغم أن يزيد الثالث هذا لم يحكم سوى أقل من ستة أشهر. ويروي لنا التاريخ قبلها كيف أن بني أمية قتلوا ابن عمهم الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز

بالسّم ليوقفوا بذلك تقدمه نحو تحقيق العدل والرشد والإصلاح، ثم يتولى هشام بن عبد الملك الخلافة فيفتك بالمعارضين على اختلاف ألوانهم ويعيد تلك الممارسات الشيطانية.

خذ مثلاً ما يرويه التاريخ عن ما فعله هشام بغيّلان الدمشقي وكان عالماً وصاحباً للإمام الحسن البصري، وكان قد استعمله عمر بن عبد العزيز لرد بعض الأموال التي انتهبها بنو أمية إلى بيت المال، فلما ظفروا به بعد قتلهم لعمر بن عبد العزيز استصدروا فتوى من (علماء السلطة) وقتها بردّته حتى يبرروا قتله للناس، فصلبوه بعد أن قطعوا يديه ورجليه، ثم أرسل هشام له من قطع لسانه وهو مصلوب!

ولم يكتفوا بذلك بل وضعوا في حق غيلان حديثاً نبوياً (رواه البيهقي ولو أنه قال: إن صح الحديث ولا أراه يصح، ورواه غيره)، زعموا فيه أن النبي ﷺ قال: (يكون في أمتي رجل يقال له وهب يهب الله له الحكمة، ورجل يقال له غيلان هو أضر على أمتي من إبليس!) وهنا نرى العدوان والحقاقة ليس فقط في التعذيب والقتل بل وفي الاتهام بالردة عن الدين ووضع حديث كاذب يخبرنا أن غيلان المعارض أضر على أمة الإسلام من إبليس اللعين نفسه! وما أشبه الليلة بالبارحة، وما نشهده هذه الأيام من المستبدين لا يبعد كثيراً عن ذلك السلوك المنحرف والنفسيات المريضة والنفاق المتأصل.

وهو هذا الذي زعموا في ذلك الحديث الموضوع أن الله (وهبه الحكمة) هو بالمناسبة وهب بن منبه الحبر اليهودي الذي دخل في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم نهاه عمر بعد فترة أن يحدث أصلاً وإلا (نفاه إلى أرض القردة) على حد ما قال له عمر. ولا بد من الإشارة هنا أن علاقة الاستبداد بواضعي الروايات الدخيلة على نصوص الإسلام والتي اصطلح على تسميتها بـ (الإسرائيليات)، موضوع مهم، له مقام آخر، وله كذلك شبه عجيب بواقعنا اليوم!

ولم يكن حكام بني العباس ومن تلاهم من الحكام المستبدين الطغاة إلى يومنا هذا بأقل قسوة ولا حقد على الناصحين المصلحين، ونزع الحقوق الإنسانية الأساسية عنهم على أساس تهم حتى لو صحت لا تبرر تلك المعاملة الشيطانية، ولا نقول الوحشية. وما ذكرناه في هذه العجالة هو غيض من فيض وما خفي كان أعظم. وإشكالية شرعنة القتل لمجرد معارضة الاستبداد السياسي وظلم الحكام هي في الحقيقة إشكالية كبيرة في تراثنا الفكري والفقهي منذ أربعين هجرية وإلى اليوم، وتحتاج منا إلى مراجعة جادة لجذورها العميقة والعودة إلى المبدأ الخالد: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا - سورة المائدة)، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تفكيك منظومات الاستبداد (١٧): العلماء بين السلطة والمعارضة والثورة

انقسم علماء الإسلام على مدار التاريخ في تعاملهم مع ظاهرة الاستبداد - في ما يبدو لي - إلى ثلاثة أقسام نطلق عليها هنا: علماء السلطة، وعلماء المعارضة، وعلماء الثورة، وهذه الأقسام هي هي لم تتغير منذ بدأ عصر الاستبداد بالقضاء على الخلافة الراشدة، إلى يومنا هذا.

فقد كانت مقاليد السلطة السياسية في عصر الخلافة الراشدة في يد علماء الأمة، ذلك لأن الخلفاء الراشدين كانوا هم أنفسهم من علماء الصحابة رضي الله عنهم، وكانوا يُختارون ويحكمون بناء على قربهم من رسول الله ﷺ وبالتالي علمهم بكتاب الله والسنة وتحاكمهم إليهما. وكان الوزراء والولاة الذين عاونوا الخلفاء الراشدين في ذلك العصر في عمومهم من علماء الصحابة والتابعين. في ذلك العصر لم يكن هناك انفصال ولا صراع ولا إشكال بين (العلم) و(الإمارة)، ولا بين (العلماء) و(الأمراء).

ثم لما بدأ عصر الاستبداد بقضاء الإمبراطورية الأموية على الخلافة الراشدة، وتولية أمور المسلمين بناء على معايير النسب والميراث والسيف، لا معايير العلم والمصلحة والشورى، هنا حدث الفصام التاريخي بين (الأمراء) و(العلماء)، وتتابع على ولاية أمور المسلمين أمراء لبسوا ألقاب وأثواب خلافة رسول الله زوراً، رغم أنهم لم يكونوا من أهل العلم ولا من أهل الرأي بل ولا من أهل الإيمان أحياناً. منذ ذلك العصر - وإلى يومنا هذا - رسخ في تصورات الأمة أن (الأمير) غير (العالم)، وأن الأمير وظيفته أن (يحكم) و(يسوس) و(يقرر)، و(العالم) وظيفته أن (يفتي) و(يشير) و(يعظ).

وانقسم العلماء منذ ذلك الزمان في تعاملهم مع الاستبداد إلى ثلاثة أقسام: قسمان على طرفي نقيض وقسم بين بين. أما طرفا النقيض فهما بين قسم من العلماء يلتحم بالسلطة المستبدة ويصبح جزءاً من منظومتها وفقاً لمصالح معينة بعضها شخصي وبعضها للمصالح العام، وهؤلاء يمكن أن نطلق عليهم علماء السلطة، وبين قسم يثور على السلطة المستبدة وينفصل عنها شعورياً ومكانياً ويدخل معها في صراع مفتوح، وهؤلاء يمكن أن نطلق عليهم علماء الثورة. وأما القسم الثالث فهو نوع من العلماء لهم تأثير واضح وتلاميذ أكثر، ولكنهم لا يخضعون تماماً للسلطة ولا يخرجون تماماً عليها. هؤلاء هم علماء المعارضة الذين يقضون حياتهم مع الاستبداد بين شد وجذب وكر وفر. ولنضرب أمثلة سريعة للتوضيح.

علماء السلطة هم من أهل العلم في الأمة بلا ريب، ولكنهم رأوا أن عملهم مع السلطة الواقعية (المتغلبة) ولو كانت مستبدة فيه خير لهم وللدین. ابن شهاب الزهري مثلاً كان من علماء الإمبراطورية الأموية وكان فقيراً معدماً قبل أن يختار ليعمل في قصر عبد الملك بن مروان (ملازماً لبابه) على حد تعبير الذهبي في سير أعلام النبلاء، بل إن ابن شهاب يروي بنفسه أن مسؤول ما سماه (الرزق) عند الخليفة نهرياً شديداً حين تخلف يوماً أو يومين فلم يعد لها، ولكن ابن شهاب أيضاً خدم الإسلام بكثير من روايات الحديث الصحيحة التي رواها وجمعها في كتب قيمة، خاصة حين عمل لاحقاً مع الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضي عنه.

وهشام بن عروة مثال ثان لعلماء السلطة الذين لهم فضل في الإسلام رغم دخولهم في منظومة الاستبداد وخدمتهم لها، إذ كان يستدين ليقضي حاجاته (ثقة بالله وبأمر المؤمنين) على حد تعبيره هو حين ذهب إلى أبي جعفر المنصور الخليفة وأراد أن يقبل يده - لولا رفض أبي جعفر - ليقضي عنه دينه، والقصة وغيرها في تاريخ بغداد.

أما في عصرنا، فعالم السلطة (مجرد موظف) على حد التعبير الذي سمعته من أحد العلماء الكبار منذ سنوات، وبالتالي فهو لا يستطيع أن يعارض سياسات المستبد ولا أن يصدع بالحق وإلا عرّض وظيفته أو حتى حياته للخطر، ولكنه على أي حال يسعى في حدود المساحات المتاحة لخدمة الإسلام والمسلمين بقبول وزارة أو منصب في حكومات الاستبداد والعمل للإسلام من خلال ذلك المنصب في حدود السلطات المتاحة له ومن خلال المنابر التي يسمح بها المستبد. ولهذا يسعى الاستبداد للقضاء على الأوقاف والمؤسسات المدنية، والتي كانت في الماضي تعطي هؤلاء العلماء حريتهم واستقلاليتهم.

وأما علماء الثورة فسيدهم سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي رضي الله عنهما، ومن تبع هذا الطريق الودع بإحسان من سعيد بن جبير وعبد الله بن الزبير ومحمد النفس الزكية، إلى يومنا هذا. هؤلاء لا يرون مساحة للتفاهم ولا التعاون مع السلطة المستبدة بل يرون مفاصلتها والصدع بالحق في مجابته ولو كلفهم ذلك حياتهم. وفي عصرنا هذا هؤلاء هم العلماء الذين أعدمتهم أنظمة الاستبداد أو الاستعمار في كل بقاع العالم المعاصر، كعمر المختار وعز الدين القسام وعبد القادر عودة وسيد قطب، وغيرهم كثير، معروفين ومجهولين.

وأما العلماء (المعارضون) فهم دائماً في صراع مع الاستبداد وبين شد وجذب، ولكنهم لا يفتؤون يرتحلون من نفوذ سلطة إلى أخرى بحثاً عن مساحة للحركة وسقفاً أعلى للتأثير، يدخلون السجن ويخرجون، يتهمون ويكرمون، يتكلمون ويجبرون على الصمت، ولكن كلاً منهم يحاول من خلال مسيرة حياة معقدة أن يخدم الدين ويقيم أركانه ويحافظ على معالمه، وهؤلاء هم سفيان الثوري والشافعي وأحمد بن حنبل وابن تيمية والعز بن عبد السلام وأغلب العلماء الذين نعرفهم من تاريخنا القديم، وهم أيضاً أكثر في عصرنا الحاضر، وكل يعمل على شاكلته.

أما الأدعياء الذين ينضمون زوراً لأي من هذه الفرق الثلاثة، فليس الحديث هنا عنهم. فبعض علماء السلطة هم مجرد أدعياء للعلم في حقيقتهم وهم أصلاً عملاء للأجهزة الأمنية، كل همهم هو التكسب وتحقيق المصالح الشخصية، وهؤلاء ليس لهم من الخير نصيب والله أعلم بهم. وبعض علماء الثورة ومدعي الجهاد أيضاً أدعياء أو جهلة يضررون أكثر مما ينفعون، وبعضهم كذلك عملاء للأجهزة الأمنية ينفذون خططها المركبة من أجل وأد الجهاد الحقيقي والتخلص من الشباب المخلص الواعي. وبعض علماء المعارضة كذلك يلعبون لعبة السياسة لمصالح خاصة، يريدون الدنيا ولا يريدون الآخرة.

وأما من انضم صادقاً لأي من هذه المواقف الثلاثة من علماء الأمة فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. ولكن على العالم الذي يقبل أن ينضم ويتعاون مع نظم الاستبداد لمصلحة ما يراها وللتعامل مع واقع معين، عليه أن يعلم أنه على خطر عظيم، وأن يراجع نيته باستمرار ولا تغره الدنيا وزخارفها، وأن يحفظ على نفسه دينه وعلى الناس دينهم، وأن لا يقول كلمة الباطل إذا لم يستطع أن يقول كلمة الحق، وأن لا يظلم أو يعين على ظلم، ولا يقتل ولا يعين على قتل، ولا يسرق أموال المسلمين ولا يعين على سرقتها، وأن يستثمر قربه من الساسة ومنصبه الرسمي ما استطاع لذلك سبيلاً لكي يدعم قضايا الإسلام ويرفع الظلم عن المظلومين.

وعلى العالم الذي يختار المفاصلة والثورة أن يعلم كذلك أنه يدخل معركة غير متكافئة بمقاييس الدنيا، وأن الانتصار يقلون، والمخلصين يندرون، وبالتالي فليحذر من إسقاطه عن طريق عيوبه التي يدرسها الخصوم من المستبدين جيداً ويستثمرونها بلا رحمة. عليه أن ينتقي أتباعه جيداً وأن يتعلم من دروس الماضي القريب والبعيد أن الثورة خيار خطر وأن دماء الأبرياء حرام كحرمة الكعبة.

وعلى العالم المعارض أن يستشير ويستخير أبدأً، وأن يدرك أن الله تعالى يداول الأيام بين الناس فلا يبتس ولا يهين ولا يحزن، ويعلم كذلك أن رياح السياسة غدارة وتتغير دائماً، ولذلك فلا يصح أن يلبس موقفاً سياسياً متغيراً لباس الشرع الثابت القطعي، ولا يصح أن يهرب من سلطة في بلد ما لتفترسه سلطة أخرى في بلد آخر ولو كانت أخف ضرراً وأقل ضريبة على دينه ودين الناس، ولا يصح أن يقع لسانه أو قلمه فريسة لأهل السياسة ولو كان فيهم خير، وإنما ينبغي له أن يظل واعياً بعيوب كل نظم الاستبداد على أنواعها، ويظل ناصحاً للأئمة المسلمين وعامتهم ومحافظاً على الإسلام قبل أي جماعة أو مؤسسة أو هيئة أو حزب، وأن يحرر نفسه ما استطاع من الحاجات المادية حتى لا يفقد حرية لسانه وقلمه، وحتى يظل قائماً بحجة الإسلام على الناس، ولو انحرف علماء السلطة واغتيل علماء الثورة.

تكفيك منظومات الاستبداد (١٨): الاستبداد والنفاق

هناك مفاهيم إسلامية أصولها كلمات قرآنية خالصة، كلمات لم تعرفها العرب بمعانيها القرآنية إلى أن عرّفتها آيات الوحي وبيّنتها وفصلتها، وهذه المفاهيم تتعلق بفئات تتلبس بتلك المفاهيم وتتمثل بمعانيها في مجموعات من الناس في الواقع المعيش. من تلك المفاهيم والفئات مفهوم (النفاق) وفئة (المنافقين)، وهي كلمة اختفت تقريباً من الاستعمال اللغوي - بالمعنى القرآني في هذا العصر، رغم أنها مهمة ولها صلة وثيقة بكثير من ما نعاني منه اليوم خاصة في بلوى الاستبداد.

وأصل الكلمة في لغة العرب فيه معنى الإخفاء، مثل نفاق الفأر أي دخل جحره، وأصل ذلك الاستعمال كلمة النفق وهو الطريق في باطن الأرض، ولكن المعنى القرآني للنفاق هو إظهار الإيمان وإستبطن الكفر. ونظراً لأهمية الموضوع فقد حكى القرآن عن فئة المنافقين في مئات الآيات من التنزيل الحكيم منذ أوائل سورة البقرة وحتى السورة الكاملة التي خصصت للموضوع وسميت باسم تلك الفئة (المنافقون)، والتي استفتحت بالآية: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)، أي أنهم كاذبون في قولهم: نشهد أنك لرسول الله، لأنهم يبطنون الكفر.

علاقة الاستبداد والطغيان في الحكم بالنفاق في الإيمان علاقة قديمة، إذ أنه منذ أن علا المستبدون الطغاة إلى سدة الحكم في بلاد المسلمين ظهر معهم النفاق والمنافقون أصحاب علامات النفاق جميعاً، ومنها العلامة التي ذكرها النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، والتي روى عنها يقول: (وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيَّ أَنْ لَا يُجِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ). وهذا حديث صحيح رواه مسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم بأسانيد صحيحة لا يعكر عليها أن أحد الرواة - وهو عدي بن ثابت - اتهم بما سماه بعض أهل الحديث بال (تشيع) فضعفوا هذا الحديث بروايته!

وموضوع تضعيف الرواة الثقات بتهم (التشيع) أو (الاعتزال) أو (القدر) موضوع طويل، ولكن تكفي الإشارة هنا إلى أن عدي بن ثابت هذا من كبار التابعين الذين شهدت لهم الأمة بالإمامة وقول الحق للسلطان الجائر، ويكفي مثلاً لهذا ترجمة الإمام الذهبي له والتي بدأها بقوله: (عدي بن ثابت الإمام الحافظ الواعظ الأنصاري)، وقد روى عدي عن البراء بن عازب رضي الله عنه - ولاحظ جهاد البراء للفئة الباغية في زمن الفتنة، وروى عدي كذلك عن سعيد بن جبيرة رضي الله عنه - ولاحظ أن سعيداً قد قتله الحجاج بن يوسف الثقفي سفاح بني أمية، وغير ذلك مما يدلنا على أن تضعيف بعض أهل الحديث لعدي بن ثابت وحديثه في موضوع النفاق هو مجرد موقف سياسي لصالح المستبدين المنافقين، و(التشيع) نفسه في ذلك الوقت المبكر على أي حال كان موقفاً سياسياً ولم يكن بالمعنى المذهبي البدعي الذي تطور من بعد.

من يبحث في ثنايا التاريخ يري - في ما وصل إلينا على أي حال - أمارات النفاق في كثير من مستبدي عصر الملك العضوض، ولو أن الباحث المنصف يحترار أحياناً في متاهات التاريخ حين يروي الرواة عن (فضائل) أولئك المستبدين مما يدل في رأبي على عمق أغوار أنفاقهم ودهاء خطابهم وتعدد سياساتهم،

والتاريخ يكتبه المنتصر على أي حال فيحرف فيه الحقائق كما حرّف أهل المصالح الكلم عن مواضعه في كل زمان، وعند الله تجتمع الخصوم.

ولكن، ما لنا نتوه مع التاريخ البائد وأثاره المدرسة وعندنا أصل الأصول كاملاً، ألا وهو كتاب الله تعالى، والذي فيه بيان مبين للعلاقة المباشرة بين (الطاغوت) و(المنافقين) الذين يريدون أن يتحاكموا إليه. قال

تعالى في سورة النساء في سياق حديثه عن المنافقين ونفاقهم:
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا).

وفي كتاب الله كذلك بيان واضح ومفصل لصفات المنافقين وأعمالهم، مما ينطبق على المستبدين قديماً وحديثاً وشرقاً وغرباً، ويمثل معايير محددة لتصنيفهم وفهمهم. ومن ذلك سياسة الإفقار والتجويع لأصحاب الحق وأهلهم، فقديماً قال منافقو المدينة: (لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفِضُوا)، واليوم يسد منافقو العصر بكل ما عندهم من قوة موارد المال للأفراد والمؤسسات والحكومات التي تنشد الحق وتقاوم الباطل في أي صورة كانت، حتى أضحي الدعم والرعاية والوظائف وسوق الأعمال اليوم سلاح من الأسلحة الأساسية للمستبدين لشراء الذمم وتركيع الأفراد والمؤسسات والحكومات والشعوب.

وقديماً كان منافقو المدينة (يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)، وهم بذلك (يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ) كما أخبرنا الله تعالى في القرآن، واليوم نرى تحالفات النظم الاستبدادية ضد أهل الحق عياناً بياناً مع أعداء الأمة ومحتليها وقاتليها ومهجري أهلها ومغتصبي حقوقها، وقديماً كان من منافقي الأعراب (مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصْ بِكُمْ الدَّوَابِرَ) وكان منافقو المدينة يلمزون النبي ﷺ في الأموال العامة في بيت المال (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)، واليوم يختلس المستبدون المنافقون بيت المال كله أو جله أو يدعون ملكيته أصلاً بلا حق، ثم يدعون التصديق منه على شعوبهم في هيئة (منح سامية) أو (تبرعات كريمة)، وما زالوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر على أي حال، وقديماً قال منافقو المدينة: (لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ)، واليوم يظن المنافقون المستبدون أن في سجن العلماء الصادقين وتهجير الدعاة إلى العدل وقتل الشباب الحر والاعتداء على الفتيات المناضلات، ثم تدمير القرى والإفساد في الأرض - أن فيه إذلال وإرغام لهؤلاء وإعزاز وتثبيت لهم، ولكن يقول تعالى معقبا: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ).

وتوصيف تلك الفئة من المنافقين توصيفاً سليماً بالمفاهيم والمصطلحات الإسلامية السليمة هو أول نصر في معركة الوعي، الوعي الذي يعين على الحكم على تصرفاتهم والتعامل معها بشكل سليم، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، وهذا الوعي يحمي الشباب من الحيرة في فهم التناقض بين القول المعسول على الشاشات والفعل الإجرامي على الأرض، وقد كثر، ويحمي الأمة من الانخداع باللقاب وشعارات ومظاهر (إسلامية) براقة يغطي بها أهل النفاق نفاقهم، حتى يضربوا الحق والعدل والمؤمنين بهما في مقاتل لا يستطيع أن يصل إليها الأعداء الصرحاء، والواقع لمن يتأمل خير شاهد ودليل.

تفكيك منظومات الاستبداد (١٩): عودة لمطلب الدولة المدنية

حكى لي أستاذنا الشيخ الدكتور حسن الترابي رحمه الله عن حوار دار بينه وبين حسني مبارك في التسعينيات أيام كان الشيخ الترابي في حكومة السودان. قال الترابي: (عرضت على مبارك في القاهرة مشروعاً لفتح إقامة للفلاحين المصريين في السودان وتمليكهم أراضي ضمن خطة متكاملة لزراعة أراضي واسعة في السودان تكفي لحاجات السودان ومصر بل وتكفي لإطعام العالم العربي كله). رد مبارك قائلاً: (ما أقدرش). سأل الترابي: (لماذا؟). رد مبارك: (الأمريكان يذبحوني! بناخذ القمح من عندهم). قال: (فعرضت عليه تنفيذ ولو جزء من الخطة الزراعية على الأقل عن طريق تسهيل إجراءات التأشيرات بين البلدين على الحدود ودون إعلان عن أي مشروع). رد مبارك: (بإعلان أو من غير إعلان. الأمريكيان عارفين كل حاجة. ما أقدرش).

هذا مثال بسيط لحوار بين حكام من العالم العربي يدلنا على سبب مهم من أسباب أزمة السودان الاقتصادية الحالية ونحن في سياق حراك شعبي واسع للاحتجاج عليها، ويدل في منظور أوسع على سبب من أسباب فشل دويلات ما بعد الاستعمار بشكل عام في تحقيق مصالح شعوبها في كل أنحاء العالم الإسلامي بلا استثناء. هذه الدويلات المتشرذمة -بصريح العبارة- ما زالت تحت حكم الاستعمار وإن كان في شكل جديد، وتحتاج إلى حركات تحرر جديدة.

السلطة الحالية في هذه الدويلات (الإسلامية) عندها خطوط حمراء تخضع لها بإخلاص، وهذه الخطوط تضمن استمرار الشعوب المستعمرة في أزماتها وبقائها دوماً تحت سقف معين للازدهار. المهم هو استمرار تلك الدويلات في تنازعاها مع الجيران، وفي اعتمادها على المستعمر لكي تأكل وتعيش وتتداوى وتتعلم، بل ولكي تدافع عن نفسها من فزاعات دويلات الجيران تارة ومن (الإرهاب) تارة، لا من المحتل أو المستعمر الحقيقي.

وقد علمتنا السنوات الأخيرة دروساً باهظة الثمن، لعل من أهمها أن الحراك الشعبي فقط على نظم الاستبداد أو القمع أو الفشل أو الفساد - وكلها منظومة واحدة في نهاية المطاف - لن يؤدي إلى تغيير حقيقي على الأرض، بل أدى في كل الحالات وفي كل البلدان لانتقالات داخلية من أذرع نفس النظم الفاسدة على بعضها، سواء في رأس هرم السلطة أو انقلاب تحته بدرجة أو درجتين، ثم يعقب ذلك تنازلات دولية أكبر ووضع حقوقي وسياسي واقتصادي وصحي وتعليمي وأمني أسوأ من ما كان، ذلك لأن القوى الخشنة الحقيقية -رسمية وغير رسمية- في تلك الدويلات تدعمها أموال الدولة المنهوبة من أصحاب السلطة، ولو لم تكفي فسيدعمها المنافقون من الأعراب والمنافقون من المتصهينين، وهي تعمل للبقاء في إطار المشروع الاستعماري في خارطته الجديدة، وهي إذن لن تتوانى عن قمع شعوبها وقتلهم بالألوف بل والملايين لو حاولوا إخراج الاستعمار في أشكاله الجديدة من بلادهم أو مقاومة الخارطة الجديدة المرسومة. لم يعد الاستعمار أعزلاً في مواجهة شعوب العالم الإسلامي مباشرة، بل يواجهها بطبقة أصحاب السلطان والمصالح الذين يقطنون أعلى هرم السلطة، وهؤلاء يدفعون الجزية لأعداء الشعوب - في صور كثيرة - لحمايتهم من شعوبهم، ثم يدفعون أكثر من مصائر نفس الشعوب ليوافق المستعمرون الجدد على توريث أولادهم وأقاربهم من بعدهم. هذا هو الحال في مجمله من غرب أفريقيا إلى بلاد العرب إلى شرق آسيا، إلا ما ندر.

(ماذا نفعل؟ ما هو مفتاح الحل؟) هو السؤال الكبير الذي يسأله الشرفاء من أصحاب العقول والضمائر في أنحاء العالم الإسلامي، وهو السؤال الذي لا توجد إجابة حاسمة له إلى يومنا هذا. ولكن على حال هذا رأي لعله يفيد خاصة في سياق الموجة الجديدة من الحراك الشعبي في السودان والجزائر: مفتاح الحل هو العودة لمطلب (الدولة المدنية) والالتفاف حوله.

فمع توحش - أو بالأحرى تشيطن - مجموعة (الواحد بالمائة) التي تدير موارد هذا العالم وتضليل مجموعة (العشرة بالمائة) الخادمين لهم والمستفيدين من بقاء هذا النظام العالمي الاحتكاري، فلنا أن نتوقع بسهولة - كما يتوقع العقلاء في الشرق والغرب - أن موجات الاحتجاجات والثورات ستتوالى وتتزايد حدة واتساعاً - في الشرق بل وفي الغرب كذلك. ولكن ستتستمر الشعوب في العالم الإسلامي خاصة في دفع أثمان باهظة من دماء وأعراض وأعمار شبابها وفتياتها وأصحاب العقول والضمائر والفكر والعلم فيها ما لم يتوحد العقلاء خلف مطلب واحد، ألا وهو مطلب (الدولة المدنية).

مطلب (الدولة المدنية) معناه أنها لا يحكمها لواءات العسكر ولا قيادات الأمن. هؤلاء لهم حدودهم المعنية بعيداً عن دائرة الحكم الذي يجب أن يتولاه مدنيون مؤهلون وواعون. وهذه في نظري لا يمكن أن تتحقق في الواقع إلا أن يأخذ زمام المبادرة في كل بلد مجموعة من الشرفاء من العسكر أنفسهم، على أن تدعمهم مجموعة أخرى من الشرفاء من طبقات (الصفوة) في كل مجتمع أياً كان تعريفه للصفوة. الحراك الشعبي دون تأييد حقيقي غير مخادع من نخبة من العسكر ودون نخبة أخرى تشق عصا الصفوة ذات اليد العليا في المجتمع وتتحاز للعامة - هو حراك لن يؤدي لشيء. ولا يصح في هذه المرحلة التعبير عن أي أيديولوجية سياسية حزبية أياً كانت إلا (الأيديولوجية المدنية)، والتي تمثل حدود القيم العليا المشتركة بين الشرفاء والعقلاء وتضع نصب أعينها أولاً وأخيراً إزاحة كابوس حكم العسكر (بالاستعانة بالعسكر الشرفاء الذين يؤمنون بمدنية الدولة). ولا يصح بحال استخدام وسائل العنف خارج هذا الإطار، لأنه لن يحل شيئاً ولا يؤدي إلا زيادة الطين بلة.

مطلب (الدولة المدنية) بمعنى أنه لا يحكمها قبيلة معينة دون إشراك حقيقي للشعوب سواء أكان النظام الذي يرتضيه الناس (ملكياً) أم (جمهورياً). الأسماء لا تهم، ولكن المهم هو أنه قد آن الأوان للعائلات المالكة والأسر النافذة وطبقات السطوة التي تحكم العالم الإسلامي - أن لهم أن تشترك شعوبهم بصرف النظر عن تنوعاتها الداخلية إشتراكاً حقيقياً في كل السلطات الخمسة، لا رمزيات وشكليات خداعة في صورة مجالس نيابية أو شورية أو بلدية وهمية لا سلطان لها ولا رقابة لها على الحكام ولا قرار، ولا قضاء غير شريف يأنمر بأمر الحكام أو يضعهم فوق القانون وخارج نطاق تطبيقه، وإذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، ولا مجتمع مدني كرتوني تحت رعاية السلطة لا يجرؤ على النقد أو التعاون مع نظرائه في الكفاح أو تطوير الحياة العامة خارج الأطر (السيادية)، ولا إعلام أبواقه يمتلكها الحكام أو رجالهم المخلصين ويحتكرون الكلمة كما احتكروا المال ووسائل العنف ويضعون الخطوط الحمراء للإعلام كما تملئ كراسيهم ومصالحهم، ولا ثروات دولة بل وجنسياتها تمنح فقط لأصحاب الولاء ويبقى أصحاب المعارضة (بدون) جنسية أو جنسية درجة ثانية كما نرى في دول كثيرة من غرب أفريقيا مروراً بالعالم العربي كله وإلى شرق آسيا.

مطلب (الدولة المدنية) بمعنى اشتراك المواطنين - كل المواطنين - دون حظر على تساوي المسلمين وغير المسلمين، والرجال والنساء، ومكونات البلد من كل الأجناس والأقليات - في الحقوق والواجبات المدنية. بدون هذه المساواة والمصالحة بين مكونات الشعوب لن تقوم لها قائمة، وسيظل الاستعمار في شكله

المعاصر مستفيداً من الانقسامات وتأجيجها. كيف لا وهم الذين ابتدعوا شعار (فرّق تسد)، وما تفريق العراق بعد الاحتلال إلى تلك التقسيمات العجيبة (سنة وشيعة وأكراد) عنا ببعيد.

مطلب (الدولة المدنية) معناه الإيمان بوضع مصلحة المواطن أولاً، تقاتل الدولة من أجل المواطن وليس ضده، وتضع سياساتها العامة من أجل الصالح العام فعلاً، وتجيّش الجيوش والشعوب من أجل حماية ذلك الصالح العام. وحين تقوم تلك الدولة التي تضع الصالح العام نصب أعينها فلا شك أنها ستتعاون إقليمياً مع نظرائها وستبدأ في تكوين شراكات واتحادات على كل المستويات وتبدأ في تدوير العصبية الجاهلية والهويات الزائفة الحالية نحو خريطة جديدة فيها تكتلات واتحادات جديدة. الدولة المدنية بهذه المعاني كلها هي الطريق الواقعي للاتحاد الإسلامي المنشود، بدلاً من هذا التشرذم الذي لا مثيل له في خريطة العالم.

هذا هو البديل عن الخريطة الجديدة التي يطرحها الاستعمار فيجزئ فيها الجزأ ويقسم المقسم.

ويعد. فهذه النظرات في هذا المقال كلها (إسلامية) و(شرعية) و(مقاصدية)، وكل ذلك عليه أدلة عقلية وعقلية فصلتها في ما اتسع من غير هذا المقام. ولنا أن نسأل: ما هو الطرح (الإسلامي) في هذا إلا ما يحفظ حياة الناس ومصالحهم العامة والخاصة ويرتقي بمستوى العدل والأمن والكفاية والحقوق في مجتمع الإنسان؟

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٠) سلاح الدعاء على الطغاة

يروى التاريخ أن الإمام المحدث الفقيه العابد سفيان الثوري كان ينكر على أمراء الدولة العباسية ظلمهم وينصحهم كلما رأهم، فأراد أبو جعفر المنصور (ال خليفة) أن يسكته، فعرض عليه منصباً للقضاء في العراق. ولما رفض سفيان أصر أبو جعفر وهدد سفيان بالقتل، ففرّ سفيان هارباً إلى أن وصل إلى مكة. ولما علم أبو جعفر أنه في مكة أمر بالقبض عليه وأن يُصلب على صليب خشبي على باب الحرم الشريف في مكة حتى يأتي أبو جعفر ويقتله بيده، وكان أبو جعفر وقتها في طريقه للحرم قائداً للناس في موسم الحج. فلما سمع سفيان أصوات الجند يبحثون عنه في مكة توجه للكعبة فتعلق بها ودعا الله تعالى فقال: (اللهم إنني أقسمت عليك ألا يدخل أبو جعفر مكة). فوقع أبو جعفر في نفس الساعة من سهوة فرسه على الطريق قريباً من مكة فمات فوراً. وحُمل أبو جعفر إلى مكة ميتاً وكان سفيان فيمن صلى على جنازته في الحرم! وقد علق الإمام الذهبي رحمه الله على هذه القصة بعد أن روى تفاصيلها في سير أعلام النبلاء ثم قال: (هذه كرامة ثابتة).

وحين رفض سعيد بن جبير التابعي الجليل ترغيب ثم ترهيب الحجاج بن يوسف الثقفي سفاح بني أمية، أمر الحجاج بقتله بالسيف، فضحك سعيد فقال الحجاج: ما أضحكك؟ قال سعيد: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك. قال الحجاج لجنده: اقتلوه. فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين. قال الحجاج: اصرفوه عن القبلة، فصرفوه عنها. فقال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله، فصرخ الحجاج: كبوه على وجهه. فقال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى. فأشار الحجاج إلى جنده أن يذبحوه. فنظر سعيد إلى السماء وقال: (أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة)، ودعا على الحجاج فقال: (اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي). وقد كان. فلم يلبث الحجاج بعد دعاء سعيد عليه إلا أربعين يوماً، كان لا ينام فيها إلا ويرى سعيداً في خياله يأخذ بثوبه أو برجله ويقول: يا عدو الله! فيم قتلنتني؟ فيستيقظ فزعاً، ثم مرض الحجاج بعدها فمات. ولحق القاتل بالمقتول، وعند الله تجتمع الخصوم.

وحين طغا الملك الأموي الثاني يزيد بن معاوية فقتل جنوده الحسين بن علي رضي الله عنهما شر قتلة، وقتل جنوده كثرة كاثرة من خيرة الصحابة والقراة والتابعين في حرة المدينة، بل أباح المدينة نفسها لجنوده يعيثون فيها فساداً ثلاثة أيام، ثم أرسل جنوده لغزو مكة للظفر بعبد الله بن الزبير رضي الله عنه وقد احتذى بالكعبة، أصابته دعوات الداعين ومات فجأة شاباً خلال نفس الأيام التي اعتدى جنده فيها على الحرم. وقد وصل لنا من التاريخ الذي رواه الثقات كيف خطب خلف يزيد على الخلافة ابنه معاوية بن يزيد (معاوية الثاني) فقال: (... ثم قُلد أبي الأمر وكان غير أهل له ونازع ابن بنت رسول الله فقُصف عمره وانبتت عقبه وصار في قبره رهيناً بذنوبه)، ثم بكى معاوية الثاني وقال: (إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه وقد قتل عتره رسول الله وأباح الحرم وخرب الكعبة، ولم أذق حلاوة الخلافة فلا أتقلد مرارتها) - راجع مثلاً الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي وسير أعلام النبلاء للذهبي وغيرهما.

وقد سمعت من عدد من المصادر المباشرة أن عمي القاضي الشهيد الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله حين ساقه جنود الطغاة في مصر للإعدام سنة 1954م بتهمة زائفة وبعد محاكمة هزلية مشهورة، قدموا له ورقة مطبوعة إذا وقع عليها أفرجوا عنه وأوقفوا حكم الإعدام، وكان فحوى الورقة رسالة لحاكم مصر في ذلك الزمان فيها اعتذار عن آراء الأستاذ وكتابات ومواقفه وأنه يتراجع عن الطريق (المنحرف) الذي سلكه، إلى آخره. وحين رفض الأستاذ عبد القادر عودة وساقوه إلى حبل المشنقة كان آخر ما قال: (ولست أبالي حين أقتل مسلماً - على أي جنب كان في الله مصرعي ... اللهم اجعل دمي وبالاً عليهم)، وفعلاً مضت الأيام ورأينا كيف استقبلت الأمة كتب الأستاذ عبد القادر وعلمه وآراءه خير استقبال، وكيف أتت أسوأ الخواتيم وأخزاها لكل من اشترك في قتل هذا العالم الجليل ظلماً من قضاة زور وجلادين وحكام. ولحق القتلة بالمقتول، وعند الله تجتمع الخصوم.

هذه أمثلة قديمة وحديثة لها مثيلات كثيرة في ماضي الأمة وحاضرها مع الاستبداد والطغاة، مما يدل على أن سلاح الدعاء سلاح ناجع إذا ما انقطعت الأسباب ونفدت الحيل وغابت القوة إلا من قوة من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ - الحج 38)

وإننا في هذه الأيام المباركات وقد دخل العشر الأواخر من شهر رمضان، أقرب للاستجابة إن شاء الله في الدعاء على الظالمين الطغاة، والمنافقين البغاة، وقد روى البخاري أن رجلاً من أهل مكة أسلموا ففتنتهم قريش وعذبوهم فظل النبي ﷺ زماناً إذا قال سمع الله لمن حمده في الركعة الأخيرة من صلاة العشاء قنت ودعا فقال: (اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ. اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ. اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ. اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَيَّ مُضَرَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يَوْسُفَ)

وإننا اقتداء بهذه السنة الشريفة ندعو فنقول: اللهم بحق هذه الأيام المباركات. اللهم أنج عبادك وإماءك الأمرين بالقسط والمعروف والعدل والحق المظلومين والمسجونين والمعذبين في كل بلد وفي كل مكان. اللهم أشدد وطأتك على من ظلمهم، وأدل دولهم، ويسر لهذه الأمة أمر رشد وخير يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر. يا قوي يا عزيز. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

تفكيك منظومات الاستبداد (٢١): الاستبداد وسنن الابتلاء

الفلسفة المادية التي تتجلى في المنهجية الوضعية في العلوم المعاصرة، لا منطبق لها إلا الأسباب والنتائج المادية. لا يصح في التفكير (العلمي) المعاصر عندهم تفسير لأي ظاهرة إلا أن يكون عن طريق (أسباب) مادية محسوسة

أدت إليها، مما يُشترط أن يقاس ويحسب ويلاحظ رياضياً أو معملياً. وإلا فالتفسيرات التي لا تخضع للحواس المادية أو التي تتعلق بغايات معنوية مستقبلية أو عقائد إيمانية غيبية لا تقع عندهم ضمن دائرة العلم ولا دائرة المنطق. هذا هو حال المنهجية (العلمية) المعاصرة التي يتبناها للأسف أغلب البشر مسلمين وغير مسلمين.

أما في المنهجية الإسلامية الأصيلة - وليس المنهجية التبريرية التي انهزمت أمام المادية - فالأسباب بعضها مادي مباشر وبعضها معنوي غيبي، والتفسير المنطقي للظواهر قد يتعلق بأسباب من الماضي كما يتعلق بغايات للمستقبل، أي بغايات معينة يسعى النظام الكوني برمته لها ضمن منظومة من القوانين العليا التي صممت أصلاً لتشد ال حاضر تجاه المستقبل. هذه الغايات والقوانين

العليا هي منظومة السنن الإلهية أو السنن الربانية، أي النواميس التي وضعها الله تعالى لنظام الكون باط راد وإحكام، وقال عنها سبحانه: (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا - فاطر ٤٣).

من هذه السنن ما يتعلق بالابتلاء والبأساء والضراء والعذاب حسب المفاهيم القرآنية، كرد فعل كوني للطغيان البشري والاستبداد والفساد في الأرض. (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . الروم ٤١)، (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . الأعراف ١٣٠)، إلى آخرها. إذن هناك فساد وبلاء ونقص عام يصيب الناس أحياناً، وغاياته حسب السنن الإلهية أن يتعظ الظالمون ويتذكروا الحق ويعودوا إليه.

وهناك سنن مقابلة تتعلق بأن تمتلئ الأرض بالبركات والرزق والمدد حسب المفاهيم القرآنية، كرد فعل كوني واعي للإيمان والتقوى والاستغفار من الأخطاء والعيوب. (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - الأعراف ٩٦)، (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا - نوح ١٠-١٢)، إلى آخرها، والنصوص القرآنية والبيان النبوي على صاحبه الصلاة والسلام في هاتين السنن كثيره ومتشابهة يضييق المقام عن تفصيلها.

وما نراه اليوم من بلاء عام يتعلق بوباء الكوفيد-١٩ أو الكورونا هو من سنن الابتلاء والعذاب لا ريب في ذلك، ولكن تلك البلاءات ليست حدثاً جديداً على هذا العقد الأخير من أعمارنا، وإن كانت العدوى بهذا الفيروس تحديداً خطيرة وخفية نظراً لعدم ظهور أعر اض المرض قبل أيام من حملته مما يؤدي إلى انتشاره السريع، ونظراً لخطورته على ضعاف المناعة الطبيعية، ونظراً لتأثير الإجراءات الضرورية لاحتوائه على اقتصادات ونمط حياة بعض الدول ذات

الهيمنة، مما أدى إلى اهتمام خاص بهذا المرض، وهو اهتمام في محله على أي حال، وإجراءات وقائية ضرورية إن شاء الله. إلا أن سنن الابتلاء وظهور الفساد في البر والبحر في تصاعد حاد وغير مسبوق منذ سنوات عديدة، ويلاحظ ذلك كل متابع للظواهر الأرضية الكلية ومنحنى الكوارث الطبيعية فيها وتوجهه المتصاعد، واستهتار البشر عموماً بالفساد وعواقبه واستمرارهم في عبادتهم للمال والطاغوت والشهوات - مسلمين وغير مسلمين.

وسنن الابتلاء رداً على الطغيان البشري والإفساد في الأرض لها دورة ذات مراحل واضحة بيّنتها آيات الكتاب العزيز، تبدأ بالوعظ والإنذار، ثم الإملاء والإمداد، ثم وقوع البلاء قريباً من ديار الظالمين، ثم وقوع العذاب لعلمهم يرجعون، ثم إذا لم يعودوا إلى ربهم ونسوا ما ذكروا به فُتِحَ عليهم أبواب كل شيء (حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون - الأنعام ٤٤)، ونحن قد دخلنا إذن في مرحلة العذاب والفتنة ولعلمهم يرجعون، فهل تعي البشرية في عمومها الدرس وتفكر في عبادة الله حقاً وتكريم الإنسان حقاً وإقامة القسط والميزان حقاً؟ أو على أقل تقدير: هل يدرك المؤمنون طبيعة المرحلة فيصلحوا أنفسهم فتقلب عليهم خيراً وتوفيقاً وفلاحاً إن شاء الله تعالى؟

وقد يستشكل بعض الناس فيقولون إن هذا الابتلاء عام، بل قد يعاني من تبعاته المؤمنون أكثر من غيرهم، والأخبار أكثر من الأشرار، والفقراء المساكين أكثر من الأغنياء المستكبرين، والدول والمدن الضعيفة أكثر من الدول والمدن القوية، والعقلاء المسالمين أكثر من السفهاء المعتدين، فكيف يكون هذا من سنن الله وأين الخير فيه؟ والجواب أن عموم الابتلاء بالعذاب هو أيضاً من السنن الإلهية، وليس فيه ظلم ولا جور حاشا لله، وإنما فيه فتنة وتمحيص لكل الناس مؤمنهم وكافرهم، ومصلحهم وطاغيتهم، كل على شاكلته. فمن سنن الله أن البلاء يعم إذا عم الفساد، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألته أم المؤمنين زينب و أم المؤمنين أم سلمة في رواية رضي الله عنهما: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (إذا كثر الخبث)، ولذلك دعا موسى صلى الله عليه وسلم حين أخذت الرجفة أي الزلازل الصالح مع الطالح في زمنه، فدعا: رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ. أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا - الأعراف ١٥٥). فإذا أكثر السفهاء والطغاة والمستبدون على أنواعهم الفساد والشر كما نرى في واقعنا المعاصر، واختل التوازن الكوني العام، فإن سنن الله لا تحيد، وينجي الله في نهاية الأمر الذين قاموا بأمانة النهي عن السوء، كما يشاء سبحانه.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ - الأعراف ١٦٥).

علينا أن ندرك إذن أن ما يحدث في عصرنا خاصة في السنوات الأخيرة من ظلم للإنسان - المسلم وغير المسلم والعربي وغير العربي، وسفك للدماء بمختلف الوسائل، وانتهاك الأعراض والحريات والحقوق، واختطاف الأبرياء والبريئات، وإخراج الناس من بيوتهم شرقاً وغرباً، وإهلاك لما خلق الله من حرث ونسل في الوديان والبحار والأنهار والغابات، والاستخفاف بالوحي

والإيمان والعبادة والأخلاق والقيم، وتشويه الدين واللعب به على موائد السياسة والتجارة والإعلام، وشرعنة الشذوذ والفسوق والعصيان شرقاً وغرباً، وسجن وتعذيب واضطهاد الصالحين والمفكرين والعلماء والذين يأمرون بالقسط من الناس رجالاً ونساءً وشباباً وشيوخاً، وصعود طوائف من أسافل الناس وسفهائهم في كل مجتمع - شرقاً وغرباً - على حقوق ودماء وأعراض غيرهم من الشرفاء والأبرياء، إلا من رحم الله - كل هذه الظواهر المعيشة لها تبعات في غضب الأرض والسما، ورد الفعل الذي نراه، وما يعلم جنود ربك إلا هو. وبعد الإدراك الواعي للواقع حسب هذا المنظور الإسلامي

السنني، علينا أن نسعى لتغيير ذلك الواقع، بدءاً من تغيير أنفسنا إلى الأقرب لمرضاة الله والأقسط من القول والعمل، وانتهاء بتغيير نظم الطغيان والفساد والاستبداد من أسفل لأعلى، كل على شاكلته وحسب وسعه. (لا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا). فَإِنْ فعلنا ذلك فإن هذه المحن ستنتقلب إن شاء الله إلى منج، ويخرج المؤمنون من الامتحان أنضج إيماناً، وأوعى عقلاً، وأصلب عوداً، وأحزم تدبيراً، وأقدر على الإصلاح في هذه الأرض، ويصطفى الله تعالى من يشاء من الشهداء، وهو أعلم وأحكم. وأما الفيروس فستدور دوائر الأيام، ويذهب إن شاء الله كما ذهبت كل طواعين التاريخ، ولكن الذي يبقى هو الدرس المستفاد والعمل الصالح وإجابة

السؤال الكبير: هل نكون من الذين قال الله فيهم (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ - الأعراف ٩٥)؟ أم نكون من الذين قال الله فيهم:

(وَلَنَبِّئَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ - البقرة ١٥٥-١٥٧)؟

نسأل الله أن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وأن ينجي المؤمنين الصادقين من كل مكروه وسوء، وأن يرفع البلاء ويعفو عن السيئات وينشر رحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه. آمين.

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٢): إذا نصحوا لله ورسوله

يقول تعالى في كتابه الكريم: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم - التوبة ٩١)، ولا نملك أن نشارك في الجهاد في سبيل الله -الذي تعين في هذه الأيام على كل أحد كما لا يخفى- إلا بالنصح لله ورسوله، ولذلك عدنا -بعد تحرف لنزال فكري أعمق- لاستكمال سلسلة "تفكيك منظومات الاستبداد"، والتي كانت قد توالفت خلال العقد الذي تلا "الربيع العربي"، بغرض الإسهام في تخليص أمتنا من أسوأ ما تعاني منه من بلايا في عصرنا، وهي نظم الاستبداد أو الطغيان، وعلاقة تفكيك نظم الطغيان المعاصرة في كل صورها وأشكالها بما يحدث في فلسطين الأبية لا يخفى على عاقل.

وقول الله تعالى: (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون - التوبة ٤١): ينطبق على واقعنا دون داع للاختيار بين وجوه تفسير الخفة والثقل كما فعل بعض أهل التفسير، بين الشباب والشيخوخة، والرجال والنساء، ومشايخ وغير مشايخ، وأغنياء وفقراء، ونشاطاً وغير نشاط، وركباناً ومشاة، وذئب ضيعة - أي عيال يضيعون بفراقه - وغير ذئب ضيعة، والشجاع والجبان، وفي حال العسر واليسر، بل المقصود هو شمول الأمر بالنفرة لكل حالات الإنسان في كل سياق. ونقرأ ضمن تعليق أبي بكر بن العربي الإشبيلي الأندلسي رحمه الله على هذه الآية في كتابه أحكام القرآن قوله: "قد تكون حالة يجب فيها نفي الكل إذا تعين الجهاد على الأعيان بغلبة العدو على قطر من الأقطار أو بحلوله بالعقر، فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج إليه فإن قصروا عصوا، ولقد نزل بنا العدو قصمه الله [أي القشتاليين في هجومهم على أشبيلية] سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا وتوسط بلادنا في عدد هال الناس عدده، وكان كثيراً وإن لم يبلغ ما حدوده، فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدو الله وقد حصل في الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة وتظهر منكم إلى نصرته دين الله المتعينة عليكم حركة فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع هذه الأقطار فيحاط به فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له. فغلبت الذنوب ووجفت القلوب بالمعاصي وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وجاره وإن رأى المكروه بجاره، فإننا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل". وها نحن نشهد في حياتنا نزول أعداء الإسلام غازين لأرضه في فلسطين، وأحوالنا كما وصف ابن العربي أحوالهم تماماً، فنقول كما قال.

ثم يقول تعالى بعدها: (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون - التوبة ٤٢)، فبعد الأمر بالجهاد بالأموال والأنفس في الآية الماضية ومقابله من تقاعس البعض ودعواهم بعدم استطاعة الخروج ولا استثمار الأموال ولا إهلاك الأنفس، تأتي هذه الآية لتفصح ما يستثمرون فيه أموالهم ويهلكون فيه أنفسهم عن طيب خاطر، ألا وهي المكاسب الدنيوية والمنافع التجارية، والـ "عَرْض" يشير إلى أطماع الدنيا بأنواعها قليلة أو كثيرة، ووُصفت بالعَرْض لأنها معروضة عليهم للنظر إليها من ناحية الدنيا وبريقها الذي قد يسع الأفق، ولو أن لها نواحي أخرى من الهلكة والخسران، وهي أيضاً عارضة أي مؤقتة سريعة الزوال. وأما وصف السفر بالقاصد، فهو الذي يحقق المقصد أي الغاية على أفضل وجه، والقصد في السبل: (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر - النحل ٩) هو الخط المستقيم الذي يتوسط الخطوط الجائرة يميناً ويساراً لكي يصل إلى الغاية بأقصر وأقوم الطرق، والقصد في المشي: (واقصد في مشيك - لقمان ١٩) هو التوسط بين الإسراع والإبطاء لأنه أقرب لبلوغ الغاية، فالسفر القاصد هو الذي يبلغ أفضل غاياته ويحقق منافعه لأنه متوسط وليس طويلاً فيهرق ويكلف ولا قصيراً فلا يصل بالمسافر إلى بُعد يسمح بتحصيل المنافع المنشودة.

ولكن هذا السفر المطلوب اليوم بعيد وشاق، لا هو بالعَرْض البراق الذي يمر سريعاً ويحقق المنافع الجمّة، ولا هو بالسفر المتوسط المحسوب بدقة من أجل تعظيم المكاسب ونيل الأغراض، وهكذا بعدت الشقة على الذين استنفروا من أجل قتال الروم في تبوك حين نزلت سورة التوبة، وهكذا الجهاد اليوم في سبيل الله في كل صورته العسكرية والعلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية والتربوية والصحية والطبية والبيئية وغيرها، فالجهاد العسكري في ظل اختلال توازن القوى العالمي ليس عرضاً قريباً ولا سفراً قاصداً، والجهاد العلمي في ظل استقرار النظام التعليمي العلماني في مجتمعات المسلمين وغلبة التصورات الجاهلية على العلوم المختلفة وغربة اللغة العربية في أمم الإسلام ليس عرضاً قريباً ولا سفراً

قاصداً، والجهاد الثقافي بعد قرون من الإفساد للثقافة في المجتمعات الإسلامية والإنسانية بوجه عام إلى الحد الذي طبع فيه المطبوعون مع الخنا والخيانة والفساد بأنواعه ليس عرضاً قريباً ولا سفرًا قاصداً، والجهاد الاجتماعي في ظل سيادة الظلم والجهل في عادات اجتماعية كثيرة ليس عرضاً قريباً ولا سفرًا قاصداً، والجهاد السياسي في ظل تقسيم العالم الإسلامي إلى شذرات متصارعة وتقسيم كل شذرة إلى مكونات متنافرة ليس عرضاً قريباً ولا سفرًا قاصداً، والجهاد الاقتصادي في ظل طغيان نادي الواحد بالمائة المتوحش وسيطرته على المقدرات المالية والتجارية والموارد الطبيعية للعالم ليس عرضاً قريباً ولا سفرًا قاصداً، وقس على ذلك.

(وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون): وعند هذه الآية من سورة التوبة يبدأ أطول حديث في القرآن الكريم وأكثره تفصيلاً عن المنافقين -أعاذنا الله وإياكم من النفاق-، وأهمية فهم ظاهرة النفاق وأثرها في التاريخ وفي الواقع لا غنى للفقه الجهادي عنه، فهم الطابور الخامس للأعداء الذين يخذلون الأمة ويضعفوها من الداخل على كل المستويات، وإذا تسلقوا مواقع البطانة في نظم حكمها لم يألوا الأمة خبلاً، كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر - آل عمران ١١٨)، وإذا كانوا في صفوف المقاتلين لم تسلم الأمة من خبالهم: (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة - التوبة ٤٧)، وخطورة المنافقين هو انخداع المؤمنين الطيبين حسني النية بهم، فمناققو البطانة قال تعالى للمؤمنين عنهم: (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم - آل عمران ١١٩)، ومناققو الصفوف الجهادية قال تعالى للمؤمنين عنهم: (وفيكم سماعون لهم - التوبة ٤٧).

ولكن هناك استثناء من الحرج وبراءة من النفاق لحالة خاصة من التخلف عن الجهاد، وذلك في قوله تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم - التوبة ٩١). هذه حالات الضعفاء والمرضى (الذين لا يجدون ما ينفقون). أما الضعف، فهو صفة أصيلة في الإنسان: (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً - النساء ٢٨)، ولكن الضعف المقصود هنا هو افتقاد القوة التي بها يمكن للإنسان أن يحقق المقصود من الخروج إلى الغزو وهو النكاية في الأعداء، ولكن هذا الضعف الذي يمنع من القتال لا يمنع من النصح لله ورسوله ﷺ كما تأمر الآية. وأما المرض، فهو حالة تطرأ على صحة الإنسان تمنعه من الاشتراك في القتال، لأنه يفتقد للقوة مع مرضه أو لأن حالته المرضية ستسوء إذا خرج، وذلك شبيه بحالات المرض التي يؤخذ فيها بالرخص، مثل: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر - البقرة ١٨٥)، ولكن المرض الذي يمنع من القتال لا يمنع من النصح لله ورسوله ﷺ كما تأمر الآية. وأما (الذين لا يجدون ما ينفقون)، فكانت وما زالت حالة كثير من المؤمنين الذين يرغبون في القتال ولكنهم لا يملكون الإمكانيات المادية التي تؤهلهم من التجهز له وليس هناك من يعينهم أو يحملهم، ولهذا كان الجهاد بالمال اليوم من أعظم القربات حتى يمكن لمن لا يجد إمكانيات للتطوع للقتال أن يتطوع، ولكن افتقاد الوسائل الذي يمنع من دعم القتال مادياً لا يمنع من النصح لله ورسوله ﷺ كما تأمر الآية.

(إذا نصحوا لله ورسوله): والنصح لله ورسوله الذي اعتبرته الآية تعويضاً عن عدم القدرة على الاشتراك فعلياً في القتال، هو زيادة على القوة الداخلية للأمة المجاهدة إذا لم يستطع المرء -رجلاً أو امرأة- أن يسهم في القوة الخارجية، وهذه القوة -التي يمكن أن تسمى ناعمة بمصطلحات اليوم في مقابل القوة الخشنة في القتال- هي الصلابة القيمية والتفوق الفكري والنقاء الأخلاقي للأمة، والنصح لله ورسوله ﷺ في المفهوم القرآني توجيه الناس نحو كل أنواع الخير بدءاً من أصل الإيمان بالله تعالى، إلى ما ينفعهم في حياتهم من

منافع، وبينه النبي ﷺ في بعض ما رواه عنه أصحابه، فقال: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ)، قالوا: لمن؟ قال: (الله وليكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) [من حديث تميم الداري، مسلم ٥٥]، والأصل (ن ص ح) يعبر عن خلوص وتجرد وصفاء من الشوب والغلط، ومنه: (توبوا إلى الله توبة نصوحا - التحريم ٨)، أي من القلب خالصة لله ليس فيها شوائب، ومنه الناصح وهو العسل الخالص من الشمع والشوائب، ومنه يقال الأرض المنصوحة أي التي اكتفت من الماء النقي الصالح لزراعتها، ومعناه في الآية أنواع من الإرشاد والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويشمل أي جهد يبذله المرء لاقتراح المشروعات والمبادرات والأفكار والأبحاث وما إليها مما ينفع الأمة في جهادها. هذا إذن هو النصح الذي يعوض به كل مسلم غيابه عن ساحة القتال، بأن يشترك في الجهاد بمعناه الواسع، وفي كل صورته العلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية والتربوية والصحية والبيئية. فإذا أحسن المسلم الجهاد في أي ضرب من ضروبه المذكورة فقد أعذر إلى الله تعالى: (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم - التوبة ٩١). نسأل الله تعالى مغفرته ورحمته. اللهم اغفر لنا وارحمنا، وعافنا واعف عنا. اللهم كن لنا ولا تكن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، وخذلنا ولا تخذلنا. اللهم لا تدع لنا مجاهداً إلا نصرته، ولا أسيراً إلا فككته، ولا شهيداً إلا تقبلته، ولا غمة إلا كشفتها برحمتك يا أرحم الراحمين.

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٣): هدم كيانات الضرار في صورها المعاصرة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون - التوبة ١٠٧)، وهذا درس تأسيسي يأتي في سياق الحديث عن القتال في سبيل الله في سورة التوبة بقصد تحذير المؤمنين -في عصر الرسالة وفي كل عصر- من كيانات الضرار في كل صورها، وهو درس على المجاهدين المنتفضين في فلسطين -ومن يقف معهم من سائر أمة الإسلام- وعيه، والحذر من الضرار والضرارين الماكرين وكياناتهم ومؤسساتهم في كل صورها.

أما مسجد الضرار في عصر الرسالة، فقد بُني (إرصاداً) أي انتظاراً وتحضيراً لشخص (حارب الله ورسوله من قبل) كما تقول الآية، لم يختلف أحد من أهل السير والتفسير والحديث في أنه كان أبا عامر الراهب، أو الفاسق كما سماه النبي ﷺ، وذلك في حوار دار بينهما في المدينة في السنة الأولى للهجرة، سأل أبو عامر: ما هذا الدين الذي جئت به؟ فقال ﷺ: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال أبو عامر: فأنا عليها، فقال ﷺ: إنك لست عليها، قال: بلى إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال ﷺ: ما فعلت ولكني جئت بها بيضاء نقية، قال أبو عامر: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً -يعرض برسول الله ﷺ-، فقال ﷺ: (أجل، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به)،

وكان بينه وبين عبد الله بن أبي بن سلول زعيم الخزرج ورأس المنافقين تحالفاً، وكان من تحالفهما أن زوّجا ابن أبي عامر: حنظلة لبنت عبد الله بن أبي: جميلة، وخاب سعيهما في التحالف لأن حنظلة وجميلة كانا مسلمين صالحين بريئين من النفاق، وقد كانت ليلة زواجهما هي ليلة غزوة أحد، وفيها رأت جميلة رضي الله عنها حين نامت رؤيا أن حنظلة دخل في السماء ولم يعد فعلمت أنه سيستشهد، فلما أصبحا أراد حنظلة أن يلحق بالمجاهدين في غزوة أحد فأشهدت جميلة أربعة من الأنصار أنه دخل بها، واستشهد حنظلة في أحد، وهو الذي بُحِثَ عنه في القتلى فوجدوه يقطر رأسه ماء وليس بقربه ماء تصديقاً لقول النبي ﷺ: (إن صاحبكم تُغسله الملائكة)، وسُمِّي حنظلة الغسيل رضي الله عنه وكانت تفتخر به قبيلته الأوس ويفخر به الأنصار، وأنجبت جميلة من تلك الليلة عبد الله بن حنظلة، الذي عُرف في تاريخ الإسلام بقيادة جيش أهل المدينة يوم مذبحة الحرة.

واختلف أبو عامر الفاسق عن عبد الله بن أبي في أنه لم يبقى في المدينة وينافق، وإنما جاهر النبي ﷺ بالحرب وكان بينه وبين قريش تحالفاً وحارب معهم بجنوده في غزوة أحد، وهو الذي حفر الحفرة التي وقع فيها النبي ﷺ يومئذ، وكان يحرض على القتال مع قريش في غزوة الأحزاب، وهذه الحروب هي المقصودة بـ: (حارب الله ورسوله من قبل)، وقد هرب أيام فتح مكة إلى هوازن وحرصهم على قتال النبي ﷺ في حنين، ثم هرب إلى الشام ولجأ إلى الروم، وأرسل لأتباعه في المدينة يأمرهم ببناء مسجد الضرار ترصدًا لعودته على رأس قوة رومانية، ويبدو أن الغرض كان ادعاه للنبوّة حين يعود، ولكن هرقل لم يرسل معه جنداً، ومات أبو عامر في قنسرين سنة ١٠ هـ طريداً غريباً وحيداً كما دعا على نفسه.

(ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله): هذه الأربعة هي إذن أهداف بناء مساجد الضرار: الضرر بالأمة، ودعم الكفر، والتفريق بين المؤمنين، والإرصاد أو الاستقبال للأعداء المحاربين للإسلام، وهذا ما استهدف مسجد الضرار تحقيقه في عصر الرسالة وفشل، إلا أن هذه الآية تقصد -ضمن ما تقصد- إلى تحذير المؤمنين من مساجد الضرار إلى قيام الساعة، بل إن مفهوم الضرار لا يقتصر على المساجد التي تؤسس لغير وجه الله تعالى وإضراراً بالأمة، وإنما يشمل صوراً مختلفة نشدها في عصرنا وهي مؤسسات أو كيانات ضرار، رصدنا منها خمسة أنواع، كما يلي:

١- مساجد الضرار المعاصرة: هناك مساجد في أنحاء من العالم اليوم بناها منافقون لنفس الأهداف: (ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله)، وقد شهدت بنفسني في بعض المدن الأوروبية -على سبيل المثال- مساجد بنتها بعض السفارات العربية ووضعت فيها كاميرات لرصد المصلين، خاصة الذين يقيمون حلقات للعلم والدعوة في غير أوقات الصلاة، مع التركيز على المسلمين الجدد الذين يعتنقون الإسلام من أهل البلاد الأوروبيين، ثم تقدم إدارة المسجد في المؤثرين الواعدين منهم بلاغات للسلطات الأمنية في البلاد تتهمهم فيها بالإرهاب، فتحقق معهم تلك السلطات -مع خطورة الاتهام بالإرهاب والتشريعات الصارمة المتعلقة به- وتضعهم على قوائم خاصة لمنع توظيفهم وسفرهم وتعاملهم مع البنوك، حتى ولو لم تثبت عليهم أي تهمة. أليست هذه مساجد ضرار كمسجد أبي عامر الفاسق؟ وقد شهدت من أبناء المسلمين في تلك البلاد من لا يستجيز شرعاً الصلاة في تلك المساجد التي يعتبرونها مساجد ضرار، عملاً بقول الله تعالى في الآية التالية: (لا تقم فيه أبدا). وليس كل مسجد بنته حكومة من الحكومات بالضرورة من مساجد الضرار، فقد يأمر الحكام ببناء مساجد لا يريدون بها وجه الله -ولكنها ليست من مساجد الضرار التي لا يجوز شرعاً الصلاة فيها- بغرض الفخر القومي مثلاً، أو التخليد لأسماء ملوك أو أعلام دول، أو التجميل المعماري لحي أو مدينة، أو إرضاء للشعوب المسلمة لسبب سياسي أو آخر، ولكن مسجد الضرار علامته أن يستخدم المسجد لأغراض الإضرار بالأمة متمثلة في

شبابها وبناتها المخلصين أو علمائها الصادقين أو جيوشها الأبية المجاهدة، أو بغرض تفريق الصف المسلم بتكفير المسلمين المجاهدين -على ألوان الجهاد المختلفة- لبعضهم أفراداً أو جماعات، أو غير ذلك من أغراض النفاق كما بينتها سابغ السبع الطوال -الأنفال والتوبة-. والحكم الشرعي في مساجد الضرار المعاصرة هو نفس الحكم الذي سنّه النبي ﷺ، وهو الهدم التام أو التحريق حتى لا يبقى له أثر. على أنه لا يجوز أن يتم ذلك في عصرنا افتتاتاً على السلطة -سواء في بلاد الغالبيات المسلمة أو الأقليات-، إذ أن أضرار الافتتات على سلطة الدولة الحديثة أكبر من المصالح التي قصد إليها حكم هدم مساجد الضرار، فلزم التنبيه ووجب التعامل مع هذا الملف بفقّه وحكمة.

٢- جمعيات وأحزاب الضرار: لا تدخل الجمعيات أو الأحزاب غير الإسلامية -أي التي تمثل أديان أو عقائد أخرى- في مفهوم الضرار، وإنما الذي يدخل فيه هو جمعيات أو أحزاب تنتحل الصفة الإسلامية وتستدعي الرموز والشعارات الإسلامية وتضع على رأسها وفي واجهتها وجوهاً بأسماء وأزياء إسلامية، وقد تدّعي الجمعية البحث في العلم الشرعي أو إقامة مجلس للفتوى أو إنشاء رابطة للعلماء، وقد ينتسب الحزب إلى العمل السياسي الإسلامي أو الجهاد في سبيل الله فينتحل أسماء وشعارات وأهداف إسلامية، إلا أن من وراء تلك الجمعيات أو الأحزاب خطأ مركبة أو "أجندات" لمحاربة الإسلام نفسه واستهداف أمة محمد ﷺ بالضرر والتفريق والتدمير والإضلال. وقد شهدنا في العقود الأخيرة -شرقاً وغرباً- جمعيات تدّعي عند تأسيسها أنها إسلامية وتضع على رؤوس رؤوسها عمائم وخُمر، فإذا بها تسعى لهدم عقيدة الإسلام نفسها عن طريق الدعوة لدين جديد! أو خيانة قضايا الأمة الإسلامية الثابتة باسم الإسلام نفسه، فتشرعن للاحتلال والحرب على الإسلام باسم الإسلام، في فلسطين أو كشمير أو أفريقيا في مقابل ثمن بخس لتلك الرؤوس، وجمعيات أخرى تدّعي البحث في قضايا الفكر الإسلامي والاجتهاد فإذا بها تنشر الإلحاد أو تزدرى الدين والرسول أو تُشيع عقائد منحرفة أو تدعم انحراف الشواذ وزندقة أهل الفواحش، ولا نتحدث هنا عن أخطاء فقهية أو فكرية يمكن أن توضع تحت باب البدع أو الخطأ الشرعي أو الفكري، بل نتحدث عن ضرر وإضرار وكفر وتكفير متعمد ومخطط له بغطاء إسلامي كاذب. وشهدنا كذلك أحزاباً تدّعي أنها جماعات "جهادية"، وتستدعي من تاريخ الجهاد في الإسلام أسماء وشعارات ورايات، فإذا هي في حقيقتها حرب صراح على أمة الإسلام، تستخدم سلاح أعداء الإسلام -الذي يُهَرَّب إليها عن طريق المنافقين المعاصرين- من أجل أن تقتل رجال الإسلام وتعتدي على نساءه وتهدم دوله، وهدفها من وراء ذلك -الذي قامت من أجله أصلاً- هو إجهاض حركات الجهاد الحقيقية وتفريق كلمة المجاهدين والتجسس عليهم وتشويه صورتهم وصورة الإسلام عن طريق خطط عسكرية وإعلامية وسياسية شديدة التعقيد. ثم ينقسم أهل العلم في أمر هذه الفتنة بين واع بخطتها ومصنّف لها التصنيف الصحيح كجماعات وأحزاب للضرار المعاصر، وبين لئب معها -بل وداع إليها أحياناً على جهل وسذاجة- نظراً لقلّة الوعي بتعقيد الحرب على الإسلام ومكر دولها في واقعنا المعيش، رغم أن قصة "مسجد الضرار" درس تأسيس مهم.

٣- مدارس وجامعات الضرار: ولا تدخل المدارس والجامعات غير الإسلامية -أي التي تمثل أديان أو عقائد أخرى- في مفهوم الضرار، وإنما الذي يدخل فيه هو مدارس وجامعات تنتحل الصفة الإسلامية والأشكال التعليمية الإسلامية، وتدّعي تخريج الأئمة أو الخطباء أو المفتين أو القضاة الشرعيين أو الباحثين المتخصصين أو المهنيين، إلا أن من وراء تلك المشروعات الضرار خطأ لإفساد المساجد أو الفتوى أو القضاء الشرعي أو الفكر الإسلامي، فرغم المظاهر والألقاب الإسلامية التي يزعمها "مركز تدريب الأئمة" من مراكز الضرار، إلا أن إمام المسجد الخريج ما هو إلا عميل في قوات الأمن ومنفذ لأسوأ خطط

النفاق والتجهيل والتسطيح وما يسمونه في علوم الأمن "تجفيف المنابع" في أمة الإسلام -أقليات أو أغليات-، ورغم المظاهر التي ينتحلها القاضي الشرعي المتدرب في معهد إعداد القضاة الضرار -وشهدنا ذلك مثلاً في محاكم تنتحل صفة الشرعية تحت سلطات الاحتلال لبلاد المسلمين-، إلا أنه يضارّ بالشرعية وأحكامها ويشرعن للاحتلال وينتحل صفة القضاء الشرعي لتمير الحكم بغير ما أنزل الله على الناس، ورغم العنوان الإسلامي الذي ينتحله قسم أو برنامج يدرّس ويدرس الإسلام في جامعات الضرار، إلا أنه يهدف إلى تدريس إسلام غير الإسلام، وشرعية غير الشرعية، وعقيدة غير العقيدة، وهذا هو حال بعض برامج "الدراسات الإسلامية" في الجامعات العلمانية، لا يقولون إنهم يدرسون أو يدرسون غير الإسلام، بل يضعون السم في العسل، كمقررات دراسية للتخصص بعنوان: "الشذوذ في القرآن"، أو "المصادر التوراتية للشرعية المحمدية"، أو "المصادر العبرية والآرامية للقرآن"، أو "الأبوية في الشرعية الإسلامية"، أو "فضل الاستعمار على العالم الإسلامي"، وما إليه، وهذه مقررات رأينا دعايات لها، تدعي دراسة الإسلام وهي في حقيقتها ضرار به وبأمته.

٤- إعلام وقنوات الضرار: وأما المنافذ والقنوات والمشروعات التثقيفية والإعلامية، سواء في أشكالها التقليدية كطباعة الكتب والمجلات والتلفاز والترفيه، أو الأشكال الجديدة للإعلام على الشبكة الإلكترونية في صورته المقروءة والمسموعة والمرئية، فحدث ولا حرج عن حجم مشروعات الضرار، أي انتحال الصفة الإسلامية لتكون مجرد غطاء أو مدخل تدريجي خادع لمحتوى آخر غرضه إشاعة الفواحش والانحراف عن الحق وتحريف الوحي، ولو قال هؤلاء إنهم ينشرون الرذيلة أو يعرفون الناس بالكفر لكان أهون من القول إنهم يستهدفون الوسطية والترويح والترفيه المشروع عن النفس في أصله، وقد يجذبون الناس إليهم عن طريق النشيد الإسلامي والفن النظيف، ثم تظهر الخطة الماكرة تدريجياً.

٥- دول وتحالفات الضرار: وأخيراً، شهدنا في عصرنا دولاً كاملة وتحالفات سياسية في صورة منظمات كبيرة، لو عرّفت نفسها على أنها لا علاقة لها بالدين أو حتى على أنها حرب على الإسلام وأهله، لكان أهون شراً من تصوير نفسها على أنها دول وقوى "إسلامية"، بل حامية حمى الإسلام وحاملة شعاراته وممثلة قيمه، ثم هي في حقيقتها حرب على علماء الإسلام ومحبيه وصالحيه والداعين إليه، وهي في حقيقتها تبيع قضايا الإسلام لأعدائه في مقابل كراسي زائلة، وهي حرب على ملة الإسلام ونظامه وتشريع وأخلاقه، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، ويدعون بعد ذلك أنهم "إسلاميون"، وهذا اتجاه سياساتي جديد أوصى به معهد تونسي بلير للسياسات عام ٢٠٢٣م، فأوصى بأن تبيد الدول "الإسلامية" حركات الإسلام السياسي المدنية والحزبية، وتهمش الخطاب العلمائي حتى ولو كان داعماً للسلطة أو متصالحاً معها، وتوجه سياساتها إلى بناء ما سماه التقرير "الدول العقدية" (كونفيشيونال بالإنجليزية) التي تحتكر الخطاب الإسلامي لنفسها وتقدم قادتتها على أنهم "إسلاميون جدد" على حد المصطلح الذي صكه التقرير! والتقرير عنوانه: "استرجاع الإسلام السياسي من أيدي الإسلاميين، نحو تعزيز أصوات مسلمة معتدلة". والحق كما تقول بقية الآية: (والله يشهد إنهم لكاذبون).

(لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين): هذا أمر للنبي ﷺ أن لا يصلي في مسجد الضرار أبداً، وهو حكم الشرع في تلك المساجد، لا تجوز الصلاة فيها إلا إذا كان المصلي لا يعلم بنواياها وخفاياها فعسى الله أن يعفو عنه، ولكن الذي يعلم أنها مساجد ضرار فلا يجوز له الصلاة فيها ولو لم يشترك في نشاطها النفاقي. بل إن النبي ﷺ بعث صاحبيه: مالك بن الدخشم ومَعْن بن عدي، وقال ﷺ: (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه)، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال

مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل، فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه.

والمقصود هو معركة صفرية مع ذلك النوع من الحرب على الإسلام من كل أنواع كيانات ومؤسسات الضرار، وأن يحذر المجاهدون الصادقون من مساجد وجمعيات وأحزاب ومدارس وجامعات وإعلام وقنوات ودول وتحالفات الضرار، والله المستعان. اللهم انصر إخواننا المجاهدين الذين يجاهدون لإعلاء كلمتك، ونصرة أمة نبيك ﷺ، وحفظ دينك، وإقامة شرعك، وخذلان أعدائك، وفك أسر أوليائك. اللهم كن معهم ولا تكن عليهم، وانصرهم ولا تنصر عليهم، وآثرهم ولا تؤثر عليهم، وخذل عنهم ولا تخذلهم. اللهم أقم لهذه الأمة أمر رشد وخير، يُعز فيه أهل طاعتك، ويُذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر. اللهم أمين.

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٤): جذور دعم المسيحية المتعصبة لحرب الإبادة الصهيونية

للدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله نظرات تأسيسية في موسوعته ذات الأهمية التاريخية "اليهود واليهودية والصهيونية"، تعيننا على فهم جذور "الأيديولوجية الإمبريالية الإبادية" على حد تعبيره، والتي تفسر سر دعم المسيحية المتعصبة المعاصرة لحرب الإبادة التي نشهدها في فلسطين، وقد أكد الدكتور المسيري رحمه الله إن "الأيديولوجية الإمبريالية الإبادية" تختلف عن القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء، بل إنها تجاهلت القيم المسيحية واستهدفت سيادة الرجل الأبيض على العالم بأي ثمن بشري، فكتب رحمه الله يقول (نقتبس من: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م: ٥ / ١٧٢-١٥٧):

"لنركز على التجربة الاستيطانية الغربية في جميع أنحاء العالم، خصوصاً في أمريكا الشمالية، وهي تجربة كانت تقترض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التي كانت تقف عقبة كدءاء في طريق الإنسان الغربي وتحقيق مشروعه الإمبريالي. وقد قبلت الجماهير الأوروبية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماس شديد، لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية في الداخل والخارج. وتُعدُّ العقيدة البيوريتانية (أو التطهيرية) عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية هي أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة. فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب»، وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين»، ولل سكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلها مصطلحات توراتية إبادية، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في كل أرجاء العالم متجاهلين تماماً القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء). وكان كل هذا يعني في واقع الأمر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر أو نقل الأمراض المختلفة.. وكانت الحكومة البريطانية في عصر الملك جورج الثالث تعطي مكافأة مالية لكل من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله، واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادية بعد استقلال أمريكا، بل تصاعدت.. (يُقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تم إبادته منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين). وقد تكرر نفس النمط في أستراليا التي كان يبلغ عدد سكانها الأصليين ٢ مليون عند استيطان البيض للقارة في عام ١٧٨٨ لم يبق منهم سوى ٣٠٠ ألف. ولا تزال عملية إبادة السكان الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى (وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة). وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة، وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم إما من خلال أسباب «طبيعية» بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية أو من خلال إلقاءهم في البحر لإصابتهم بالمرض. وكانت أعمال السخرة الاستعمارية في أفريقيا ذاتها لا تقل قسوة.. ويمكن أن نتذكر أيضاً حفر قتال السويس بنفس الطريقة وتحت نفس الظروف وبنفس التكلفة البشرية. وقد ورد في إحدى الدراسات أن عدد المواطنين الأوروبيين الذين لهم علاقة بعمليات التطهير العرقي والإبادة داخل أوروبا (إما كضحايا أو كجزائرين) يصل إلى مائة مليون، فإذا أضفنا إلى هذا عدد المتورطين في عمليات القمع والإبادة الاستعمارية في الكونغو وفلسطين

والجزائر وفيتنام وغيرها من البلدان فإن العدد حتماً سوف يتضاعف. ولكن الإمكانية الإبادية الكامنة التي تحققت بشكل غير متبلور وجزئي في التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية، تحققت بشكل نماذجي كامل في الإبادة النازية أو في «اللحظة النازية النماذجية» في الحضارة الغربية.. وكما يقول المؤرخ جون تولاند إن هتلر، في أحاديثه الخاصة مع أعضاء الحلقة المقرّبة إليه، كثيراً ما كان يعبر عن إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين وطريقة "معالجتهم" لقضية الهنود الحمر.. ولذا في مجال تبريره للحرب الشرسة التي شنّها على شرق أوروبا قال هتلر: "إن هناك واجباً واحداً: أن نؤلّن هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمرًا". ولعل أكبر دليل على أن الإبادة إمكانية كامنة، تضرب بجذورها في الحضارة الغربية الحديثة، أنها لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكر وسلوك الحلفاء، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب!.. (وتشبهه في كثير من الوجوه الحملة التي شنّها الغرب ضد العرب في الستينيات والتي يشنّها ضد المسلمين والإسلام في الوقت الحاضر) .. ومثل هذا الحديث لا يختلف كثيراً عن الحديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر الإسلامي.. كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التي قام بها النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية). وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا، أما الآن فهو لا يُكوّن سوى نسبة مئوية ضئيلة، ومصيره بهذا لا يختلف كثيراً عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية. وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة.. وبعد حوالي نصف قرن لا تزال عمليات الإبادة والتطهير العرقي على قدم وساق في البوسنة والهرسك والشيشان ولا تزال بعض الدول الغربية تراقب هذا بحياء غير عادي.. وقد بلغت سطوة هذا المفهوم [أي مفهوم الشعب صاحب الرسالة] حدًا جعلته يبتلع المنظومة الدينية نفسها، فاختلطت الديباجات الدينية بالقيم القومية، بحيث تطلب الانتماء للشعب العضوي الألماني الانتماء إلى المسيحية البروتستانتية..". انتهى الاقتباس.

وقد اقتبست هنا مطولاً من الدكتور المسيحي رحمه الله لنقارن بين المعركة القديمة في عصر الرسالة مع المسيحية الرومانية حين تخلت عن قيمها وقتلت سفير النبي ﷺ إليها واستكبر أساقفتها على نصيحة هرقل باتباع الإسلام وبين ما نراه اليوم من سياسات مسيحية الرجل الأبيض الإمبريالية الإبادية بتعبير المسيحي، والتي يقبع في قلبها اليوم أباطرة الربا وعائلات الملوك وتجار الدين.

ونقرأ في سورة التوبة: (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون - التوبة ٨١)، وسورة التوبة في عمومها تتناول أحداث غزوة تبوك - أو غزوة العسرة - في شهر رجب سنة تسع هجرية، وهذه الآية منها تشير إلى الطقس الحار في نهاية الصيف، وهو التوقيت الذي اختار فيه النبي ﷺ أن يجمع هذا الجيش الكبير - نحو ثلاثين ألف جندي - والتوجه لقتال الروم، رغم ما هو معهود من القيظ في ذلك الموسم في جزيرة العرب، مما جعل مجرد الرحلة إلى أرض المعركة "ساعة عسرة" كما تصفها هذه السورة. والسؤال: لماذا اختار النبي ﷺ هذا التوقيت الصعب وهذا الجيش الضخم؟ إجابته أنه أراد أن يكون الرد سريعاً ومتكافئاً على ما جمعه الروم لمهاجمة المسلمين، نظراً لخطورة التهديد الصليبي في ذلك السياق وميله إلى الإبادة في سياساته الاحتلالية.

ونقرأ من السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون لنور الدين الحلبي، ٣/١٨٣): "بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء المحل المعروف. وذكر بعضهم أن سبب ذلك أن منتصرة العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي قد خرج يدعي النبوة

هلك وأصابته أصحابه سنون أهلكت أموالهم. فبعث [أي هرقل] رجلا من عظمائهم وجهاز معه أربعين ألفاً. وهذا التجهيز الضخم لم يكن سرّاً أنه كان يستهدف المدينة نفسها ليبيد أهلها.

وقد جمع الشيخ المباركفوري بين الروايات وصورّ مقدمات غزوة تبوك، وكتب رحمه الله يقول (الرحيق المختوم، ٣٩٤): "بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطداماً عنيفاً في مؤتة، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتعطرسين، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب، قريبتهم وبعيدهم. ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر ومواطنتهم للمسلمين، إن هذا كان خطراً يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة، ويهدد الثغور الشامية التي تجاور العرب، فكان يرى أنه يجب القضاء على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها، وقبل أن تثير الفلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان. ونظراً إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة، حتى أخذ يهيئ الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة، وكانت الأنبياء تنزّمي إلى المدينة بإعداد الرومان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسوّرهم كل حين، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنون زحف الرومان".

إذن، الخروج في حر آخر الصيف بأكثر قوة ممكنة لم يكن سوء تخطيط ولا خبط عشواء، وإنما كان ضرورة عسكرية وسياسية لمواجهة ما سماه أستاذنا الشيخ محمد الغزالي رحمه الله "المسيحية المتعصبة". كتب رحمه الله في فقهه للسيرة عن غزوة تبوك بصعوبتها وتوقيتها الحرج يقول (فقه السيرة، ٤٣٥-٤٣٦):

"الذي يعترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك: لم سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب؟ وعن الطريقة التي يباشرون بها حكم هذه الأقطار المغلوبة على أمرها؟ والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبي ﷺ شيئاً لا غبار عليه. دعوا العقائد المختلفة تدين عن نفسها وتجذب الشعوب إليها أو تصرفهم عنها. لكن هذا الطلب قوبل بالرد المسلح. فلا دولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن الفرائس التي تضطرب بين جدرانها ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد. قلنا في كتابنا "التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام" في صدد غزوة تبوك: والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأي يخالف في الفروع التافهة فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها؟ لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط وينكر عقيدة الفداء التي تتركز عليها لأنه يبني الجزاء على عمل الإنسان وحده. فليس للإنسان إلا ما سعى، ولا تزر وازرة وزر أخرى. ثم هو ينكر مبدأ الشركة في الألوهية، فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له عيسى وأمه. لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة ويضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة تردّه من حيث جاء، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها. وتضمن الكنيسة بعدئذ انفرادها بالضمير البشري، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ويدعو للصلاة والفلاح.. وقتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة، بل هو كفاح مريع مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات وتملك موارد كثيرة من الرجال والأموال. على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب، والسكوت على تحدي النصارى لهذا الدين ورغبتهم الملحة في القضاء عليه يعتبر انتحاراً وبواراً، فليتحامل المسلمون على أنفسهم إذن ليواجهوا مستقبلهم بما يفرض من تحديات وتفديات".

والشيخ الغزالي رحمه الله كتب هذا الكلام منذ عقود وهو واع بالدروس التي تنطوي عليها هذه الغزوة في سياق المواجهة المعاصرة بين الإسلام و"المسيحية المتعصبة" كما سماها ليس فقط في سياق بعض الجماعات المتطرفة المتأمرة من المسيحيين العرب -وكان للشيخ معهم صولات وجولات خاصة في مصر-، بل إن الذي يدرس واقع النظام العالمي الحالي بشيء من العمق سوف يدرك أن المستوى الأعلى من الطغيان في عالمنا هو النظام العنصري الاحتلالي (الكولوني أو الإمبريالي كما يقال باللاتينية) الذي يمثل تلك المسيحية المتعصبة نفسها! هكذا نفهم جذور تلك السياسات التي نشهدها من حكومات أوروبية وأمريكية، والتي لا يمكن أن توصف إلا بأنها امتداد طبيعي وواضح لكل ذي عينين لسياسات الإبادة التاريخية على طريقة "الأيديولوجيات الإمبريالية" بتعبير المسيحي رحمه الله في موسوعته عن الصهيونية المعاصرة ودورها بالأساس كأداة في يد "الأيديولوجيات الإمبريالية".
(ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين - الأنفال ٣٠).

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٥): إما اعتدلت وإما اعتزلت - دعوة لإحياء الربيع العربي!

نعم! كان ربيعاً ولو دارت عليه الأيام سريعاً فتحول إلى شتاء قارس، ولكنه كان شرعياً وكان كاشفاً وكان مصيرياً وكان مدرسة تعلمنا منها الكثير رغم الثمن الباهظ. الربيع العربي قامت شرعيته على أساس أن حكام المسلمين -في التصور الإسلامي- ليسوا فئة مختلفة عن الأمة، بل مكاناتهم وامتيازاتهم منوطة بأن يخدموا الأمة ويمثلوا إرادتها. لا يمكن أن تكون الأمة في واد وحكام الشعوب المسلمة -إلا حالات نادرة- في واد، وكأنهم يعلمون ما لا نعلم ويفهمون ما لا نفهم، وإلا طالببتهم شعوبهم بتحمل مسؤولياتهم أو التنحي! في مثل موقف الحرب التي يراد بها الإبادة الجماعية لمئات الألوف من الناس -وهو ديدن لا يتخلف عن الحروب الصليبية كما قلنا في المقالة السابقة- تأتي لحظة إثبات أحقية القيادة، ويحين أوان دفع حكام المسلمين لثمن ما يحوزونه لأنفسهم من مقدرات الأمة بصفتهم حكامها. المعادلة الشرعية ليست هي "التغلب" على الشعوب المستضعفة بالسلاح لكي يحكمها حكامها حكم كسرى وقيصر. هذه بدعة ظهرت في بلاد المسلمين منذ القرن الأول الهجري للأسف، وكانت بدعة باطلة وستظل بدعة باطلة. شرعية الحكام -وسلطاتهم وامتيازاتهم وعدم الخروج عليهم- منوطة بإثبات أنهم حريون بهذه المكانة ويقومون بأبسط واجباتها، وإلا عزلتهم الأمة أو أهل الحل والعقد فيها من العلماء الشرفاء وأصحاب الرأي وأصحاب الدين والشأن والخبرة والنسب، حسب السياقات المختلفة للدول المختلفة. هذا هو مقتضى فقه السياسة الشرعية، وهذا ما ننادي به اليوم.

هو النداء الخالد للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز لأحد ولادة الجور: "إما اعتدلت وإما اعتزلت". وليس للأمة عمر ولا خلافة اليوم، ولكن الخليفة على أي حال إنما هو نائب عن الأمة وناطق باسمها وممثل لإرادتها ومفوض عنها، والأمة موجودة لم تمت، ويمكن أن تنطق عن نفسها إن لم ينطق عنها أحد، وحري بها أن تخرج فنقول لولاتها: "إما اعتدلت وإما اعتزلت".

أيها الشباب الواعي من أمتنا المجيدة! لا يمكن أن تتغير خطة إبادة وتغيير لخريطة منطقة بأكملها كما نرى بأم أعيننا، في قتل وتهجير شعب كامل -والآن لا مجال لإنكار هذه الأهداف وقد أصبحت معلنة- لا يمكن أن يتغير هذا المسار بمزيد من الاحتجاجات المدنية التقليدية والتغريد على منصة إكس وتبادل الرسائل الحماسية على واتساب وصنع الفيديوهات على يوتيوب، خاصة في الدول غير "الديمقراطية"

حيث لا تمثل تلك الاحتجاجات المدنية التقليدية أصواتاً انتخابية ولا مصالح اقتصادية ولا ضغطاً ذا بال. هذه الأفعال قد فات أوانها اليوم. ولا يحتمل أن يكون رد الحكام الفارغ بأنهم يحافظون على أمن بلادهم! لأن هذا يعني انفراد الغزاة بالبلاد واحداً تلو الآخر -إلا الذي يسجد لهم ويقدم فروض الطاعة والولاء-.
اقرأوا التاريخ وستجدون سيناريو الأندلس يعود بحذافيره، هي قصة الثور الذي قال حين حان موعد أكله: "أُكَلت يوم أُكَل الثور الأبيض". لا ينبغي أن تغيب هذه الحقائق عن الشباب الواعي من أمتنا المجيدة! الحق الذي لا مرء فيه هو أنه لا بديل اليوم عن أفعال لا تملكها إلا الحكومات في الدول الوطنية الحديثة، والحديث تحديداً هو عن أمرين: ١ - العقوبات الاقتصادية و ٢ - الفعل العسكري، ولا بد أن تنهر الأمة بكل شعوبها حكامها في الدول المختلفة عن مجرد الكلام السياسي والخطاب الذي يناسب التظاهرات والاحتجاجات المدنية! غير مقبول أن يخرج حكام المسلمين فيغردوا على منصة إكس أو يهتفوا على اليوتيوب أو يتظاهروا أمام السفارات أو يقفوا وقفة جماعية في الأمم المتحدة أو يعلقوا الشارات ويلبسوا الكوفيات ويرفعوا الأعلام كما يفعل المدنيون! ما هذا؟
الحكام يا سادة ليسوا مواطنين مدنيين عاديين. الحكام في الدول الحديثة -أيها الشباب الواعي من أمتنا المجيدة- دورهم أن يملكو مفاتيح الاقتصاد (اتفاقات التجارة، والمواد الخام من غاز وبتترول ومعادن، وأموال البنوك، والموارد البشرية، إلى آخرها) وأن يملكو القرار العسكري والأمني (بما فيه الأمن المعلوماتي والغذائي والبيئي والمائي، إلى آخرها). الحكام يا سادة -واختلاف أشكال الحكومات وأنواعها من ملكيات وجمهوريات لا يهم- هم المفوضون من شعوبهم ومن الأمة عموماً بإدارة هذه الملفات نيابة عن الناس وليس افتتاتاً عليهم ولا جبراً لهم. لابد أن نوجه كشعوب إسلامية رسالة "إما اعتدلت وإما اعتزلت" لحكام المسلمين، أي أرونا ماذا فعلتم بمقدراتنا الاقتصادية والعسكرية نيابة عنا في معركتنا المصيرية الجارية؟
ننادي الشعوب العربية خصوصاً بالخروج لإحياء الربيع العربي، والعودة إلى الهتاف الخالد: الشعب يريد! في هذه المرة: الشعب يريد إغاثة فلسطين! الشعب يريد عقاب المعتدين! الشعب يريد ردع الغزاة! الشعب يريد حفظ المسجد الأقصى! وإلا: فالشعب يريد إسقاط النظام!

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٦): ما أشبه الليلة بالبارحة

إذا أردنا توصيفاً واعياً للواقع من منطلق إسلامي فهو التالي: الحرب الجارية هي حرب على الإسلام كدين وحضارة، تخوض هذه الدورة منها قوى الاستكبار العالمية المعاصرة في قلب الأمة الإسلامية في فلسطين، مستخدمين الكيان الصهيوني كمجرد أداة لتحقيق أهداف إمبراطورية الرجل الأبيض في التوسع والهيمنة، وهي أداة سوف يستعملونها حيناً ثم يضحون بها ويغسلون أيديهم من عار ما تفعل في تلك الحرب. والأيام بيننا لمن يشكك في هذه الحقيقة.

والحرب الجارية حرب كاشفة وفاضحة للمنافقين من أفراد الأمة ومن حكام دويلاتها، ذلك لأن الولاية بمعنى النصر للكاافرين على المؤمنين في الحرب دليل لا ريب فيه على أن الموالين منافقون خلص ليسوا من دين الله في شيء، وهذا هو التنزيل الواقعي اليوم لقول الله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء - آل عمران ٢٨)، وقد شهدنا في التاريخ البعيد والقريب سنة إلهية ماضية، وهي أن تفرق أهل الحق وانقسامهم إلى دويلات متنازعة واستعانة بعض تلك الدويلات بأعداء الإسلام على البعض الآخر هو بداية النهاية لهم جميعاً. ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة من التاريخ البعيد والقريب.

تفرقت أمة الإسلام أيام كان بنو إسرائيل يحملون راية الإسلام -مع ملاحظة انتقال هذه الراية من بعد إلى أمة محمد ﷺ بعد بعثته ﷺ وتحويل القبلة إلى مكة-، بدأ ذلك بوفاة سيدنا سليمان عليه السلام فتفرقت مملكته إلى ممالك متنازعة، فاستقل يربعام بمملكة الشمال التي سموها إسرائيل واستقل رجبعام بمملكة الجنوب التي سموها يهود أو يهوذا -وأخذوا بالمناسبة منها الاسم الذي اخترعوه لديانة جديدة لم تكن معروفة قبل تلك الدولة إلا باسم دين الإسلام-، وسرعان ما تقاطلت المملكتان إسرائيل ويهودا في أواخر القرن العاشر قبل الميلاد على أطماع الحكام المنافقين وسفاهاتهم، فلما أحس الجنوبيون من بني إسرائيل بانهمزاهم من الشماليين من بني إسرائيل ذهبوا فتحالفوا مع الآراميين الوثنيين في دمشق للتغلب على إخوانهم من قومهم ودينهم، وكانت النتيجة أن غزا الآراميون المملكة الشمالية بعد غزوها أولاً على طريقة الغزو الثقافي كما نقول في عصرنا، وذلك بأن نشروا الوثنية في عقائدها فعاد بنو إسرائيل إلى عبادة العجول الذهبية ونشروا الانحرافات في أخلاق مجتمعاتها من زنا وخنا وفجور، وكان الأوان قد فات حين اكتشف ملوك المملكتين المتنازعتين -إسرائيل ويهودا- أنه كان عليهم أن يتحالفوا لحرب آرام دمشق الوثنية يداً واحدة، ولكنهم كانوا قد ضعفوا عقدياً فعبدت شعوبهم الأوثان الذهبية التي كان حكامهم يبنونها لهم ليلهوهم بها، وضعفت أخلاقهم بعد أن انتشر فيهم الترف وأنواع الفواحش، ومضت سنن الله تعالى عليهم بأنهم خلال عقود من بعد سليمان عليه السلام كانت طوائف بني إسرائيل كلها قد هُزمت وذهب ملكهم شمالاً وجنوباً وتشتتوا في الأرض. ما أشبه الليلة بالبارحة مع دويلات الإسلام اليوم. ونقرأ في تاريخ دول الإسلام بعد عصر الخلافة الراشدة القصة تتكرر كرة بعد كرة، فهي مثلًا علاقات الود والسلام والتعايش والوئام بين هارون الملك العباسي وشارلمان ملك الفرنجة، في نفس الوقت الذي حارب فيه شارلمان نفسه الدولة الأندلسية المسلمة وإمارة صقلية المسلمة في عشرات الغارات، دون أن يجد هارون العباسي إشكالاً في هذا ما دام شارلمان يحارب الدولة الأموية عدوتهم التاريخية اللدود. وردّ الحُكم الثاني الملك الأندلسي أيامها بالتحالف مع نَقفور الأول الملك البيزنطي، الذي كان بدوره محارباً للدولة

العباسية في نفس عهد هارون، ولم يجد الحَكَم الثاني غضاضة في أن يحارب نَقفور الدولة العباسية عدوتهم التاريخية اللدود. ولا يخفى كيف أن ذلك العصر كان هو نفسه بداية الانحدار ثم السقوط للحضارة الإسلامية جميعاً شرقها وغربها، عباسيها وأندلسيها. وما أشبه الليلة بالبارحة.

ثم نقرأ كيف سقطت الدولة الأيوبية في القرن السابع الهجري بعد وفاة القائد البطل صلاح الدين الأيوبي الكردي رحمه الله، حين انقسمت دولته من بعده بين الكامل في مصر، والمعظم عيسى في

دمشق، والأشرف موسى في باقي الشام، وكيف استعان كل منهم بأعداء الإسلام على إخوته في الإسلام، وكان على رأس ذلك الفضيحة التاريخية بتنازل الملك الكامل -وهو اسم علي غير مسمى كعادة الحكام الطغاة- عامداً متعمداً عن بيت المقدس كرشوة لفرديريك الثاني عام ٦٢٥ هـ ثمناً لمساعدته ضد أخيه المعظم، بيت المقدس نفسه الذي بذل صلاح الدين وبذلت معه الأمة الغالي والنفيس لتحريره قبل ذلك باثنين وأربعين عاماً فقط. ثم استقوى الملك الأشرف -وهو اسم آخر على غير مسمى- بالصليبيين على إخوانه المسلمين، وهلم جرّاً حتى سقطت دولهم جميعاً خلال عقود، وما أشبه الليلة بالبارحة.

ونقرأ في مرحلة الانحطاط من تاريخ الأندلس المجيدة كيف استعانت الدويلات الإسلامية الأندلسية كأشبيلية وطليطلة وسرقسطة بالملوك الأسبان على بعضهم البعض في مقابل أراضي وقلاع وأموال، إلى أن استقوى الكفار واتحدوا وأزالوا ممالك المسلمين كلها بعد ثمانية قرون من المجد الأندلسي، بل أزالوا الوجود الإسلامي كله وقتلوا وطردوا المسلمين من الأندلس إلى آخر رجل وامرأة وطفل، ثم دعم الملكان فرديناند وإيزابيلا السفاح كولومبس في أسطول بحري ليزيل الوجود الإسلامي -الأندلسي والأفريقي- من قارتي أمريكا أو الأرض الكبيرة كما كانت معروفة في ذلك العصر، ثم زعموا أنهم اكتشفوا أمريكا وحذفوا ذكر المسلمين الأصليين من تاريخ أمريكا أصلاً، فأصبح تاريخاً لا يعرفه أحد، وكل ذلك من مآلات مخالفة الأمر الصريح: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين).

واليوم يعيش العالم العربي في ظل نظام سياسي تشظت فيه الدول الإسلامية إلى عشرات الدويلات المتنازعة، بدأ هذا الوضع الغريب بمعاهدة سايكس-بيكو، التي وقعها الوزيران الفرنسي بيكو والبريطاني سايكس ليقسما غنائم حقبة الاحتلال -الذي سموه زوراً بالاستعمار- ليصنعا بذلك عالماً جديداً يستمر فيه الاحتلال وإن كان في صور جديدة سياسية واقتصادية وعسكرية وثقافية، على أن يزخرف ظاهرها وطنيات زائفة وقوميات وهمية وتواريخ مفتراة تحل محل الهوية التاريخية السياسية الإسلامية وتحاربها. وقد وصل سايكس وبيكو لاتفاقية سرية عام ١٩١٦م بمباركة من الإمبراطورية الروسية وقتها تقضي باقتسام الهلال الخصيب وبلاد الشام بين فرنسا وبريطانيا، ثم كشف عن تلك الاتفاقية الشيوعيون حين حكموا روسيا بعدها بعام، مما أثار الشعوب العربية شيناً ما، ولكن التقسيم مضى على أي حال -مع غياب الشعوب عن صنع مقدراتها وضعفها العام في ذلك الوقت- بمؤتمر سان ريمون عام ١٩٢٠م، ثم بغيره من المعاهدات مثل معاهدة لوزان عام ١٩٢٣م، ورسمت تلك الاتفاقيات ومثيلاتها في ما تلا ذلك من عقود حدوداً -خاصة مع مؤامرة انهيار الخلافة الإسلامية العثمانية وتحولها بدورها إلى دولة وطنية محدودة- ظهرت لأول مرة في تاريخ المسلمين كحدود لدول -بل دويلات- ذات سيادة كما يزعمون، وهذه هي الحدود الحالية لما يسمى اليوم بدول تركيا والعراق وسوريا ولبنان والأردن، ثم السعودية، ثم فلسطين، والتي قامت دولة الاحتلال الصهيوني فوق أجزاء كبيرة منها سنة ١٩٤٨م.

وهناك قصص شبيهة بهذه القصة في فحواها وتلاعبات الاحتلال وموازين القوى العالمية بها في كل العالم الإسلامي شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، إلى أن وصلنا إلى كل التقسيمات والحدود الأخرى في العالم الإسلامي، والتي لا تكاد تخلو دولة واحدة منها من نزاع حدودي على خط من خطوطها التي رسموها على

خريطة الأمة، حتى امتدت النزاعات السياسية اليوم من أقصى غرب الأمة بين دول المغرب والجزائر وموريتانيا، إلى دول الخليج العربي، مروراً بكل دولة عربية تقريباً مع جارة أو أكثر من جاراتها، إلى دول المسلمين التركية وفي دول البلقان وشمالها في المناطق الإسلامية في شرق أوروبا، إلى باكستان وبنغلادش والهند وكشمير، إلى أقصى شرق الأمة بين بلاد المالايو والجاويين، ناهيك عن دويلات أفريقيا التي واكب تقسيمها بين المستعمرين القدامى حركة تنصيرية واسعة. هكذا وصلنا إلى حالنا السياسي الذي لا يخفى ضعفه على أحد.

والحرب الدائرة اليوم يُرجى منها -بإذن الله تعالى- أن يعي المسلمون الصادقون في هذه الأمة أبعاد الصراع وعياً جيداً، وأن تستهدف الشعوب دفع حكامها إلى توحيد الأمة سياسياً، ولو واكبت تلك الوحدة تقسيمات لمناطق وإدارات ودول ذات طبيعة خاصة ولكنها متعاونة وليست متصارعة بين بعضها، ولا متناقضة بين جيوشها الرسمية وبين حركات الجهاد السياسي والعسكري في أمتنا، وأن تنكشف الأقتعة الزائفة عن المنافقين الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، الذين لا يريدون لهذه الأمة ولا لشعوبهم خيراً، وإنما يعملون لأنفسهم وكراسيهم، وليس عندهم إشكال في رشوة أعداء الأمة ببيت المقدس كما فعل الملك الذي لُقب زوراً بالكامل، ويُرجى من الحرب اليوم أن تنحاز جموع الأمة الإسلامية -إذا أرادت أن تقف على رجليها- إلى أبنائها المجاهدين الصادقين وإلى من يدافع عن شرفها ووجودها، وأن تتعاون في قضاياها العادلة مع كل الشرفاء من غير المسلمين وما أكثرهم في شعوب الشرق والغرب.

هذه معركة كاشفة وحاسمة على هذا المستوى، والحق منصور لا محالة، والفجر آت لا ريب، ولو أن سَنَّ الله الغالبة المطردة اقتضت أن لا ينصر إلا الصالحين، وأن لا يصلح عمل المفسدين، وأن لا ينحاز أهل النفاق إلى أهل الإيمان، وإلا كانت علامة على خلل في موازين أهل الإيمان، لا سمح الله.

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٧): نحو الانتصار في حرب التصورات كذلك

من الأخطار التي تهدد الانتصار التاريخي الذي نشهده في فلسطين أن نفقد التصور السليم للواقع والتوصيف الصحيح للأحداث ونستبدلها بتصورات وتوصيفات غير إسلامية. ففي الوقت الذي يلتزم خطاب الكيان الصهيوني في كل أشكاله الرسمية وغير الرسمية تصورات محددة عن الواقع وسرديات محددة لوصفه، نجد أن الخطاب الذي يؤيد المجاهدين كثيرًا ما يحدد عن تصور الحرب من خلال التصورات الإسلامية الحقّة إلى مفردات ما أنزل الله بها من سلطان، وحرى بالخطاب الجهادي أن ينتصر في معارك التصورات والسرديات حتى يكتمل الانتصار التاريخي في معارك القتال والتضحيات. وقد عمل الصهاينة على مدار العقود السابقة على صك مجموعة من المصطلحات يتصورون بها الواقع، ويدربون الناس على أن يتصوروه معهم، على رأسها مصطلح الإرهاب الإسلامي، الذي بدأ ترويجه منذ ثمانينيات القرن الماضي وفق خطة ممنهجة كان من أبرز محطاتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها من أحداث. وواكب ذلك مصطلحات مثل معاداة السامية، والأصدقاء من العرب، والشرق الأوسط الجديد، والتطبيع، والحق في الوجود، وحق الدفاع عن النفس، وغيرها. ثم عمل الصهاينة كذلك منذ بداية هذه الحرب على سرديات يصفون بها الأحداث المتتابعة مستخدمين تلك المصطلحات نفسها في ثنايا أكاذيبهم وتزويرهم للحقائق.

ومن المعلوم أن من مقاصد القرآن الكريم الكبرى تصحيح التصورات على كل المستويات، بدءً من التصورات العقديّة التي تصف الخالق سبحانه وتعالى وانتهاءً بالمفاهيم التي تصف الكون والإنسان والمجتمعات، وهذا التصحيح القرآني ليس فكرًا نظريًا مجردًا بل تؤدي الغفلة عنه إلى آثار خطيرة على واقع الأمة الإسلامية والإنسانية عمومًا، وخاصة في سياق الحرب الحالية في فلسطين.

وسؤال: كيف نتصور الحرب الحالية وكيف نصف أحداثها؟ جوابه أن الحرب الحالية هي الحرب القديمة الجديدة بين الإيمان والكفر، بين أهل الحق من أتباع الرسل الذين يؤمنون بالله ويدينون بدين الإسلام ويقيمون القسط بين الناس ويشهدون على الأمم بالحق، وبين أهل الباطل من الطغاة الكافرين المعتدين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ويبغونها عوجًا وظلمًا ويصدون عن سبيل الله ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة. وسؤال: كيف نعرف أئمة الكفر ورؤوس الطغاة من أذناهم وجنودهم؟ جوابه أن رؤوس الطغيان -اليوم وفي كل زمان- هم الذين يديرون آلة الربا ليأكلوا أموال الناس بالباطل، وهم الذين يستعينون بشياطين الإنس والجن من أجل غواية الناس عن مكارم الأخلاق وعفيف العلاقات، وهم الذين يسفكون الدماء دون اكتراث ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، وقد ذكرنا في مقال سابق كيف أن هذه الأوصاف -التي نستقرؤها من القرآن الكريم- تنطبق على امبراطورية الرجل الأبيض المعاصرة، التي يرأسها منهم أباطرة الربا وتجار السلاح وما يسمى برجال الدين عندهم وأسر ملكية مستخفية وراء أقنعة زائفة من الرمزية وادعاء البعد عن السياسة.

وقد شيد قادة امبراطورية الرجل الأبيض على مدار القرون الثلاثة الأخيرة هذه الامبراطورية المتوحشة بسياسات مطردة من إبادة السكان الأصليين في كل بقعة احتلوها وإلى اليوم، نجحوا قديمًا في قتل عشرات الملايين في الأمريكتين وأستراليا وأفريقيا، وحاولوا إبادة منافسيهم داخليًا في الحروب العالمية في القرن الماضي، وها هم اليوم يُشهدونا كيف قاموا بالإبادة عيانًا بيانًا، ولهم مع سياسة الإبادة سياسة أخرى، وهي: فَرَّقْ تَسُدْ، ونجحوا في ذلك باختراع تلك المئات من الخطوط الحدودية الموهومة التي رسموها

على خارطة العالم الإسلامي فقطعوا بها أوصالها إلى شذرات متنازعة لا حول لها ولا قوة، لا تقدر على مواجهتهم خاصة إذا اجتمعوا وتظاهروا، وما هم اليوم يُشهدونا كيف قاموا بذلك عياناً بياناً، وكانت لهم سياسة أخرى أخطر، وهي زرع كيان سرطاني عدواني في قلب الأمة الإسلامية في فلسطين، يستخدمونه في تركيع شعوبها وسرقة مواردها واستنفاد طاقاتها وقتل علمائها وشرفائها وأحرارها ونشر كل فاحشة وانحراف فيها، وأخيراً من سياساتهم أنهم راموا أن يخدم أهدافهم مجموعات من المنافقين -ونسميهم كذلك حسب المفهوم القرآني للنفاق- مكنوهم تمكيناً في أغلب الدويلات التي قسّموها وأعانوهم على نشر ادعاءات كاذبة أنهم حماة الإسلام ورواد العقل والمنطق والتقدم والتحضر، وقد ظهر الآن لكل ذي عينين أن هؤلاء لا يملكون أن يغردوا خارج السرب أو يسيروا خارج القطيع أو يسبحوا ضد التيار - إلا من رحم الله ممن يخاطر بحياته فيعرض نفسه للقتل ليكون عبرة لغيره، والأمثلة حاضرة في الماضي القريب والواقع المعيش.

وهذا الجانب من الصورة ليس ودياً ولكنه ليس كل الصورة، فبقية التصور الإسلامي للواقع هو أنه لا يخلو زمان من قائمين على الناس بحجة الحق، (ولا تزال طائفة من أمتي) -هكذا قال محمد ﷺ بأبي هو وأمي- (ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء فهم كالإناء بين الأكلة حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك)، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: (ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس). صدق رسول الله ﷺ والواقع شاهد والله أكبر شهادة. وبقية الصورة ترسم ملامحها سورة الإسراء: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتيبيرا. عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً - الإسراء ٤-٨).

ثم إن النصر ليس بالعدد: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين - البقرة ٢٤٩)، والله تعالى وعد المؤمنين ولو بعد حين ومن أصدق من الله حديثاً: (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها. ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم - محمد ٧-١١). هكذا ينبغي أن نوصف واقعنا، بهذه المفاهيم والفئات والسنن والقيم والحجج والبشارات.

ويسأل سائل: كيف يمكن أن نخاطب العالم من المسلمين المنحرفين ومن غير المسلمين إذا استخدمنا هذه التصورات الإسلامية الخالصة فحسب؟ ألا يعزل هذا شرائح واسعة من الناس عن تأييد القضية؟ والجواب أنه ليس هناك مانع من أن نستخدم لغة خطاب تليق بشرائح الناس حسب ما يعرفون، ولكن ليس على سبيل تصور الواقع أصالة، بل على سبيل الججاج عليهم بما يعتقدون، من باب: أليست هذه قيمكم الديمقراطية ومواثيقكم لحقوق الإنسان وعهودكم للقانون الدولي وفلسفتكم في الحريات العامة والخاصة ومبادئكم في الأمم المتحدة ولوائحكم في الأخلاق المهنية، إلى آخرها؟ ولكن، حذار أن تقع أمة الإسلام في تصور الواقع أو الغايات المنشودة في المستقبل أو في موازين الخير والشر أو الحق والباطل تأسيساً على الادعاءات الفارغة الليبرالية أو الديمقراطية أو منظومات الدول الوطنية أو حقوق الإنسان أو الأمم المتحدة أو القانون الدولي. ينبغي أن نبدأ في تعليم الدنيا أن يتصوروا الواقع تصوراً مختلفاً، واللحظة مواتية وأحرار العالم اليوم بفضل الله تعالى يكفرون بالأساطير المؤسسة للنظم المهيمنة ويبحثون عن الإسلام

وينظرون إلى القرآن نظرة مختلفة تماماً، والله الحمد والمنّة ثم لأهل غزاة العزة الفضل والسبق والأجر إن شاء الله.

والحق أنه قد آن للنظم المعاصرة المهيمنة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً أن تسقط، بادعاءاتها الإنسانية الليبرالية الكاذبة في ظاهرها وحقائقها الكفرية العنصرية المستكبرة في باطنها، وقد آن لأمة الإسلام أن تعلم البشرية تصورات جديدة: الإيمان والكفر، الحق والباطل، الجهاد والخيانة، الصدق والنفاق، العدل والظلم، القسط والطغيان، الدنيا والآخرة، الجنة والنار. قد آن لأمة محمد ﷺ أن تتبّع الطائفة المنصورة التي بشرّ بهم النبي ﷺ وتحذو حذوها، ظاهرين على الحق، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، فهم كالإناء بين الأكلة حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، بدءاً ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس. هؤلاء هم حملة راية الإسلام اليوم، فليتبّعهم من شاء أن ينتصر في الدنيا-ولو بعد حين- وينجو يوم يقوم الأشهاد، والحمد لله رب العالمين.

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٨): حدود سايكس-بيكو لا اعتبار لها في أحكام الجهاد

من المعلوم من الإسلام بالضرورة أن الجهاد في سبيل الله مشروع كواجب مفروض على كل مسلم في أمة الإسلام لدفع المعتدين ونصرة المستضعفين. قال تعالى في كتابه الكريم: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا - النساء ٧٥-٧٦)، وقال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين - البقرة ١٩٠)، وقال: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز - الحج ٣٩-٤٠). هذا الخطاب القرآني المباشر والأمر الإلهي الواضح الصريح: (قاتلوا) يتعلق بكل فرد من أمة الإسلام كلها في كل أنحاء الدنيا، ولا يتعلق بدولة معينة ولا ولاية ولا مملكة ولا شعب ولا قبيلة ولا جهة ولا منطقة بعينها، ولا يقتصر على أغلبية عددية ولا أقلية من المسلمين، ولا يعرف حدوداً يضعها المسلمون بين ولاياتهم إن كان هناك حدود، فضلاً عن الحدود التي يفرضها أعداؤهم عليهم كما هو واقعنا السياسي المرير.

ولكن فريضة الجهاد في سبيل الله لرد العدوان ونصرة المستضعفين ليست واجبة على كل فرد من أفراد الأمة بعينه، أو ما يسمى في المصطلح الفقهي بفرض العين كما هي فروض الصلاة والزكاة والصوم والحج، بل هي واجبة عام على مجموع أمة الإسلام حتى تتحقق مقاصد القتال في دفع الاعتداء وحفظ النفوس والأعراض والأموال، أو ما يسمى في المصطلح الفقهي المعروف بفرض الكفاية، فإذا قام به عدد يكفي ويسد الحاجة فقد سقط الفرض عن كل فرد من أفراد الأمة المسلمة، وإذا لم يقم به من يكفي الأمة كان واجباً شرعياً لازماً على كل مسلم في كل مكان في العالم، والوجوب يتعين أكثر بمعايير الأقرب فالأقرب جغرافياً والأقرب نفساً ومالاً وبسائر الوسائل، أن يقوموا بدورهم في نصرته إخوانهم وأخواتهم من المسلمين، جهاداً في سبيل الله بالنفس والمال وسائر الوسائل.

والأقرب فالأقرب جغرافياً معناه المقيمون في ما يتصل بأرض المعتدى عليهم من الأمة، والأقرب فالأقرب نفساً ومالاً وبسائر الوسائل معناه كل من يستطيع أن يساعد باليد أي القتال الفعلي أو اللسان أو المال، وعلى رأس المتوجب عليهم أصحاب السلطة من المسلمين، الذين يستطيعون بأوامرهم أن يحركوا الجيوش المقاتلة وينفقوا الأموال المعتبرة ويقودوا الشعوب الغاضبة. الحكام على رأس الفئات المنوط بها القيام بهذه الفريضة وأول الأثمين بتضييعها. هذا هو الحكم الشرعي الذي لا غموض فيه فيما يجري في فلسطين المباركة، وما دامت الكفاية لم تحدث - كما هو معلوم اليوم مما يحدث على أرض الواقع - فنحن أمام إثم يآثم به كل مسلم منا في هذا العالم - الأقرب فالأقرب، والأقرب فالأقرب نفساً ومالاً وبسائر الوسائل، وعلى رأس الأثمين حكام الأمة وأصحاب السلطات العسكرية والسياسية والاقتصادية فيها.

وهذا الحكم الشرعي فيما يحدث اليوم في فلسطين من بدهيات التشريع الإسلامي الذي لا يختلف عليها أحد من أهل العلم بالإسلام على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، بل الأبعد من ذلك أنه حكم منطقي يحكم به

كل عاقل حتى من غير المسلمين، ونحن نرى بأعيننا مصداق تطبيق أعداء الإسلام لحكم التناصر فيما بينهم هذه الأيام، إذ نجد أباطرة العنصرية البيضاء المعاصرة وبلطجيتهم المستأجرين من حكام الصهاينة يطبقونه حرفياً في حربهم على الإسلام، يتناصرون فيما بينهم بغض النظر عن حدودهم "الوطنية" ويرسلون أبناءهم للموت في فلسطين الأقرب فالأقرب ثم الأقدر فالأقدر نفساً ومالاً، وعلي رأس المتضامنين حكامهم وأصحاب السلطة السياسية والاقتصادية فيهم. فما بال أمة محمد ﷺ لا تدافع عن نفسها وهي تُقتل ويُذبح رجالها ونساؤها وأطفالها جهازاً نهراً عياناً بياناً؟ ما الذي يمنعها؟

ولعل من أكبر موانع دفاع أمة محمد ﷺ عن نفسها كذبة شاعت بين المسلمين اليوم، وهي من أكبر الأكاذيب والضلالات التي يروج لها المنافقون المعاصرون -أقصد المعنى العقدي للنفاق- ويعينهم عليها فقهاء مأجورون اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ويعينهم إعلاميون محترفون للكذب يبيعونه في سوق النفاق في الإعلام الرسمي والتواصل الاجتماعي، هذه الكذبة مفادها أن ما يسمى في المصطلح السياسي المعاصر بـ "حدود الدول الوطنية وسيادتها على أرضها" قد حوّل واجب الحكام والجيش والشعوب في كل دولة وطنية معاصرة إلى حماية "حدود" و "سيادة" تلك الدولة فحسب، وأن ما يحدث خارج حدود كل وطن من البلاد الوطنية المعاصرة هو شأن "خارجي" يحدث مع "جيران" أو "بلاد مجاورة"، وأنه يمكن التدخل فيه من باب مصالح الدولة العليا إذا فانت أو أمنها القومي إذا تأثر ليس إلا، وليس من باب الفرض الواجب الأصيل على الدولة ولا الشرط اللازم لشرعية وجودها أصلاً كدولة مسلمة، وشرعية حكامها أصلاً كحكام شرعيين على شعوب مسلمة. ونوط فريضة الجهاد في سبيل الله بحدود الدولة الوطنية هو كذب على الله ورسوله ﷺ وليس هناك أبعد عن الحقيقة ولا أضر على المصالح العليا لأمتنا وديننا -بل وعلى الإنسانية- منه.

صحيح أن الاتجاه العام لعلماء عصرنا هو أنهم لم يروا مانعاً شرعياً في أن يكون هناك تقسيمات إدارية لأمة الإسلام إلى دول أو ولايات أو ممالك تقوم كل سلطة منها بواجبات إدارة الشؤون العامة ووضع السياسات العامة التي تسوس بها شعباً معيناً، أي المشروعية المبدئية لأن تؤدي الدولة المسلمة الدور الذي تؤديه الدول الوطنية في واقعنا السياسي المعاصر، إلا أن هذه المشروعية لوجود دول قومية أو ولايات أو مناطق سلطة أو ممالك إسلامية لا تعني أن واجبات الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الأمة ورداً للاعتداءات على شعوبها وأرضها ومقدساتها ليست مفروضة على الجميع أو سقطت بوجود الحدود الدولية المتعارف عليها، بل يبقى الجهاد في سبيل الله واجب على كل الأمة مجتمعة، وتبقى أدلة أحكامه الشرعية تخاطب المسلمين من حيث كونهم مسلمين فحسب، حكماً ومحكومين دون تعلق بحدود ولا "سيادة"، بل هي لازمة وملزمة لكل مسلم، الأقرب فالأقرب والأقدر فالأقدر نفساً ومالاً، ويبقى على رأس الملزمين بهذه الفريضة الشرعية حكام المسلمين وأصحاب السلطات العسكرية والسياسية والاقتصادية فيهم، لم يغير تلك الفريضة شيء ولم ينسخها شيء ولم يخصص أدلتها الشرعية من آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ شيء.

أو لنقل -بعبارة أخرى- إن حدود "سايكس-بيكو" ليس لها اعتبار شرعي في فقه الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن هذه الحدود كان قد ابتدعها الوزيران الفرنسي بيكو والبريطاني سايكس إبان الاحتلال الفرنسي البريطاني لأغلب مناطق العالم الإسلامي، فوقعتها معاهدة سرية عام ١٩١٦م عُرفت بعد ذلك باسمها "معاهدة سايكس-بيكو"، ثم تلاها ما سمي بمؤتمر سان ريمون عام ١٩٢٠م، ثم معاهدة لوزان

عام ١٩٢٣م، إلى أن وصلنا إلى المعاهدات الحالية التي بموجبها يقسم المقسم ويجزأ الجزأ، وانهارت مع هذا التاريخ المظلم من المعاهدات التأميرية كل أشكال الوحدة الإسلامية وقسم أعداء الأمة الإسلامية أرضها إلى عشرات الدويلات المتنازعة، بدأت بالحدود الحالية لكل من دول: العراق وسوريا ولبنان وتركيا والأردن، ثم ظهرت حدود السعودية، ثم فلسطين، والتي قامت دولة الصهاينة فوق أجزاء منها عام ١٩٤٨م، وما زالت التقسيمات الحدودية و"الوطنية" تتوسع لتشمل على مدار العقود تقسيمات جديدة لمصر والسودان والشام واليمن ووسط أفريقيا والبشناق والهند وجزر شرق آسيا، إلى آخرها، ورسمت تلك التقسيمات على خريطة العالم الإسلامي خلال القرن الماضي حدوداً ظهرت لأول مرة في تاريخ المسلمين، إلى أن وصلنا إلى كل التقسيمات والحدود الأخرى في العالم الإسلامي من المغرب العربية إلى جنوب شرق آسيا، ومن الأمم الإسلامية التي كانت "سوفيتية" إلى جنوبي أفريقيا.

ولا تزال المنازعات الحدودية قائمة بين المسلمين على كل الخطوط الحدودية إقليلاً، مما أنتج عشرات الحروب الداخلية بين أعضاء الأمة خلال القرن الماضي، فضلاً عن النزاعات بين دويلات المسلمين المعاصرة على الأرض والمياه والنفط والغاز وطرق التجارة، وبين الأدلوجات السياسية والتحيزات القبليّة والزعامات الشخصية، إلى آخره، إلى أن وصلنا إلى أنه ليس هناك في العالم المعاصر أمة أكثر انقساماً وخطوطاً وألواناً على الخريطة السياسية من أمة الإسلام. فأصبحت (ولا تنازعو فتفشلوا وتذهب ريحكم - الأنفال ٤٦) منطبقة تماماً على وضع أمتنا الحالي، ونشهد اليوم كيف تتخذ القرارات الدولية المصيرية على كل المستويات بما فيها القرارات التي تخص أمة الإسلام في أرض أول قبلتيها وثالث حرميها في فلسطين، وكأن الأمة الإسلامية لا وجود لها ولا اعتبار. وكان آخر فصول تلك المهزلة ما نشهده هذه الأيام الصعبة من حرب الصهاينة الإبادية على فلسطين، والتي نشهد بأعيننا جهاراً نهائياً بياناً كيف يساند الصهاينة فيها أنصارهم من "الدول القومية" بالمال والسلاح والنفوس، بل وكيف يدعمهم عدد من الدول التي تسمي نفسها "إسلامية" خدمة لمصالحهم الخاصة داخل حدود دولهم، أو بتعبير أدق خدمة لمصالح كل حاكم وآله وملئه على وجه التحديد.

ولكن، تبقى أحكام الجهاد كما هي لم ينسخها شيء، ويبقى الحكم الشرعي بوجود نصرته المسلمين والمستضعفين في فلسطين سارياً على كل مسلم في كل الدنيا ومسؤولاً عنه كل مسلم يوم يقوم الأشهاد، وما دامت الكفاية لم تحدث - كما هو معلوم اليوم مما يحدث على أرض الواقع - فنحن أمام إثم يأتهم به كل مسلم منا في هذا العالم - الأقرب فالأقرب، والأقرب فالأقرب نفساً ومالاً وبسائر الوسائل، وعلي رأس الأثمين حكام الأمة وأصحاب السلطات العسكرية والسياسية والاقتصادية فيها، والله المستعان.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في فلسطين ومن يناصرهم في كل مكان في هذا العالم، الذين يجاهدون لإعلاء كلمتك، ونصرة أمة نبيك ﷺ، وحفظ دينك، وإقامة شرعك، وخذلان أعدائك، وفك أسر أوليائك، وحفظ نفوس وأعراض الأبرياء. اللهم كن معهم ولا تكن عليهم، وانصرهم ولا تنصر عليهم، وأثرهم ولا تؤثر عليهم، وخذل عنهم ولا تخذلهم. اللهم أقم لهذه الأمة أمر رشد وخير، يُعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر. اللهم آمين.

تفكيك منظومات الاستبداد (٢٩): خطر المنافقين في مواقع البطانة والحكم

نمر بأيام قاسية على كل مسلم حقيقي، خاصة بعد أن وصلت الحرب على فلسطين إلى تجويع أطفال المسلمين واغتصاب نساء المسلمين وتعذيب شباب المسلمين، ولا شك أن الاستشهاد بالقتل الفوري أهون على المؤمنين من هذه الفواجع، لأن القتل في سبيل الله لا يعدو أن يكون بشرى بحياة أفضل عند الله تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون - آل عمران ١٦٩-١٧٠)، إلا أن ما نراه يحدث أمام أعيننا اليوم لهو أسوأ ما يمكن أن يلحق بالمؤمن -وكل شريف في هذا العالم- من أذى وفتنة، والفتنة أشد من القتل، والأدهى علينا أن جيوش العرب وجيوش المسلمين من ورائهم -دائرة بعد دائرة حول فلسطين- تشترك عملياً في حصار الشعب المسلم المقاوم الأبّي بأمر حكامها وقادة جيوشها الذين يدعون الإسلام، وهي نفس الأنظمة التي تقتل أو تقمع العلماء والشرفاء والأحرار من شعوبهم إذا طالبوا بالدفاع عن ثوابت وحياة وعرض هذه الأمة، بل وتيسر الحكومات المسلمة -دائرة بعد دائرة حول فلسطين وبلا استثناء تقريباً- إمدادات الغذاء والسلاح للأعداء المحاربين وتلعب لعبة السياسة الدولية الرخيصة لصالحهم جهاراً نهاراً بوجه سافر تارة، وفي كواليس السياسة من وراء ستار مسرح الأحداث تارة أخرى، بالفعل تارة وبعدم الفعل -وهو من أقوى أنواع الفعل كما هو معلوم في علوم السياسات- تارة أخرى.

ولا يسع المؤمن إلا أن يدور مع حكمة الله تعالى في خلقه حيث دارت، فيسلم بحكمة الله تعالى في ابتلاء الناس، والتي منها في أوقات المحن العظيمة -خاصة في أوقات الحرب- أن يتمايز الصف الداخلي للأمة بين المؤمنين الصادقين وبين الذين نافقوا الذين يظهرون الإسلام وهم يستبطنون الكفر في دخيلة أنفسهم وإذا خلوا إلى شياطينهم، تماماً كما قال تعالى عن المنافقين في غزوة أحد مخاطباً المؤمنين: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين - آل عمران ١٦٦-١٦٨)، فهؤلاء كان من علاماتهم أنهم قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، وما أشبه الليلة بالبارحة.

والسؤال الآن: هل يمكن أن نحكم على أناس يعلنون الإسلام بالنفاق العقدي أي بإظهار الإسلام واستبطان الكفر؟ والجواب: اللهم نعم، إذا ظهرت علاماتهم كما نعرفها فيغلب على الظن أنهم منافقون، وهذا هو عين مقصود ذكر علامات المنافقين وتكرارها في القرآن الكريم من أوله إلى آخره، منذ بدايات سورة البقرة التي تبين أنهم يدعون الإصلاح وهم أس الفساد: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون - البقرة ١١-١٢)، ثم سورة آل عمران التي تحذر المؤمنين من تبوأ المنافقين مواقع البطانة في جيوشهم وحكوماتهم: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يآلؤنكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر - آل عمران ١١٨)، ثم سورة النساء التي تكشف تحاكمهم إلى طغيان الطاغوت فوق كل حكم: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن

يكفروا به - النساء ٦٠)، إلى سورة التوبة التي فضحتهم بالتفصيل، ومنه بناؤهم لمسجد الضرار: (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون - التوبة ١٠٧)، [وراجع من هذه السلسلة مقالة: تفكيك منظومات الاستبداد (٢٣): هدم كيانات الضرار في صورها المعاصرة]، وصولاً إلى سورة المنافقين التي تفضح نفسياتهم المريضة على الضد من صورهم الفخمة: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله - المنافقون ٤)، ثم تصف خططهم الخبيثة في سياسات الإفكار والتجويع التي يمارسونها مع أهل الحق: (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا - المنافقون ٤)، إلى آخر علاماتهم في كتاب الله تعالى وبيانه من سنة رسوله ﷺ وسيرته، وما أشبه الليلة بالبارحة.

ومن أكبر علامات المنافقين المعاصرين أنهم يلبسون على الأمة أعداءها ويحرقون وصف الواقع عن حقائقه، فهم يصورون المقاومة البطلة على أنها إرهاب يجب القضاء عليه، يصرحون بذلك مع شياطينهم في دهاليز السياسة، ولو أنهم لا يجهرون بذلك نفاقاً وتدليساً على الشعوب المسلمة ويتحدثون عن تهور جماعات المقاومة وعملياتها غير المحسوبة إلى آخره، ويقولون إنه قد يكون هناك تجاوزات يسمونها قانونية من الصهاينة في رد فعلهم على الإرهاب ويُشغلون الناس بمسرحيات السياسة الدولية ومعاركها الكلامية الفارغة، ثم يتذرعون بالتضامن الغربي مع الصهاينة نظراً لنفوذ لوبياتهم في عواصم الغرب، إلى آخر ما يصفون به الواقع كاذبين حتى يخفوا اشتراكهم في المؤامرة الحالية.

ولكنّ الواقع الذي يعرفه المنافقون جيداً هو أننا كأمة أمام غزو عسكري استيطاني إحلالي استتصالي من إمبراطورية العنصرية البيضاء المعاصرة، يُعتدي فيه على قلب أمة الإسلام في فلسطين وعلى الفئة الوحيدة التي بقيت تجاهد في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، ثم يريد الأباطرة المعاصرون توسيع هجومهم إلى أن يصلوا إلى تشكيل ما يسمونه شرق أوسط جديد خال تماماً من الإسلام، اللهم إلا من بعض الطقوس والعادات على طريقة الأديان الخاملة، أو لعلهم ينجحون في تحويل الإسلام إلى الديانة الجديدة التي يروج لها بعض المنافقين ويسمونها الإبراهيمية - وإبراهيم عليه السلام منها براء-، والأباطرة المعاصرون يريدون أن يفعلوا بمن تبقى من المسلمين المتمسكين بالإسلام ما فعلته نفس الإمبراطورية بالسكان الأصليين في قارة أمريكا، إلى أن قتلوا نحو مائة مليون منهم وأبادوا حضارتهم، ولم يبقى منهم اليوم إلا فئام قليل منكسر، ويريدون أن يفعلوا بمن تبقى من المسلمين المتمسكين بالإسلام ما فعله مؤسسو إمبراطوريتهم العنصرية من الغزاة الأوروبيين مع الشعوب الأفريقية والآسيوية المسلمة، حين قتلوا منهم عشرات الملايين إبان احتلالهم العسكري الغاشم خلال القرنين الماضيين، وخطفوا منهم عشرات الملايين لبييعوهم عبيداً في مستعمراتهم خاصة في الأمريكتين. [راجع من هذه السلسلة مقالة: تفكيك منظومات الاستبداد (٢٤): جذور دعم المسيحية المتعصبة لحرب الإبادة الصهيونية].

لا بد أن تدرك أمة الإسلام إذن حجم وعمق المعركة مع المنافقين المعاصرين في مواقع البطانة والحكم، وتعلم أنهم حلفاء أصليون للصهاينة، وأعداء أصليون لأمة محمد ﷺ، وأنهم -مثل الصهاينة- مجرد أداة في يد قيادة النظام العالمي الجديد (وعلي رأسه نادي الواحد بالمائة والعائلات الملكية الأوروبية العنصرية وأملأؤهم من أصحاب المليارات تجار السلاح والمخدرات والرقيق الجديد وغيرها، المستفيدين من هذا

النظام العالمي الجديد بشكل مباشر)، ولا بد أن تدرك أمة الإسلام أثر هؤلاء المنافقين على الحكومات والجيوش المسلمة في المنطقة، والتي قررت قياداتها بكامل وعيهم وإرادتهم دفع الثمن لبقائهم في سلطاتهم وحماية امتيازاتهم وثرواتهم وبقاء الشعارات الوطنية الزائفة التي يتراأسون الناس بناء على أساطيرها، ولو على حساب الإسلام ومقدسات الإسلام ومصالح أمة الإسلام الاستراتيجية، فدفعوا الثمن من دماء وأعراض أشرف وأطهر وأزكى من تملكهم الأمة من رجالها ونسائها وأطفالها خاصة في أرض الرباط في فلسطين، بل وعلى استعداد لدفع الثمن من مقدسات الأمة بما فيها التضحية بالمسجد الأقصى -لا سمح الله- أولى القبليتين وثالث الحرمين بعد حرمي مكة والمدينة على ساكنها الصلاة والسلام، وهي الجولة الحاسمة التي نحن مقبلون عليه تالياً كما يظهر لكل متابع.

الوعي بهذا الواقع -وإن كان مُرّاً- مسألة تأسيسية حتى تنبني التصرفات على التصورات، وحتى نتعامل مع المنافقين بما يتناسب مع خطرهم على الأمة وبما يتسق مع سنن الله تعالى في صراع الخير والشر، وتدافع الإيمان والكفر، وذلك كما قال تعالى لنبيه ﷺ: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً. ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً. سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً - الأحزاب ٦٠-٦٢).

تفكيك منظومات الاستبداد (٣٠): أسطورة البقرة الحمراء ومخطط هدم الأقصى

الحبر سعيد بن يوسف (أو سعديا غاؤون، المولود عام 268 هـ / 882 م بالفيوم والمتوفى عام 330 هـ / 942 م ببغداد) له ترجمة عربية للتوراة، انتقده عليها كثير من أحنبار اليهود قديماً وحديثاً واتهموه بالتأثر بالإسلام لأنه صحح فيها لون البقرة المذكورة في سفر العدد من التوراة استناداً إلى الأصل العبراني -أي المكتوب بالعبرية القديمة- كما كتبه بعد التحريف على أي حال، صححه من (بقرة حمراء) إلى (بقرة صفراء)، وهذه معلومة طريفة نظراً لأن هذا التصحيح يدلنا على أن أحكام ذبح البقرة الحمراء التي افتروها والتي يريد الصهاينة تنفيذها بعد أيام أصلها قصة البقرة في سورة البقرة. ويعرف المسلمون من قراءتهم للقرآن الكريم أن الله تعالى أمر بني إسرائيل بذبح بقرة، وكان مقصد الأمر هو إظهار قوم موسى عليه السلام على آية من آيات الله في إحياء الموتى لعلهم يعقلون، قال تعالى: (قالوا ادع لنا ربك بيبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جنّت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون. وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون - البقرة ٦٩-٧٣).

وقد حرّف الكتّبة القصة من تاريخهم في كتبهم التي كتبوها من بعد موسى عليه السلام بقرون طويلة، إلى أن وصلت إلى شذرات من القصص، أهم ما حرّفوه فيها -بالإضافة إلى لون البقرة- هو المقصد الأصلي للأمر بذبح تلك البقرة الصفراء، وحرّفوا كذلك القصة الأصلية حين تمالأ بنو إسرائيل على التكتّم والتغطيّة على جريمة القتل التي يشير إليها القرآن، وتنشّطت القصة الأصلية إلى شذرات وجدها الباحثون في هذا الشأن في: التلمود البابلي، وكتاب المقدسات في المشناه (أي المثناة)، وأسفار التكوين والعدد والتثنية في التوراة كما هي في صيغتها الحالية بعد التحريف.

أحنبار اليهود المعاصرون من الصهاينة الغاصبين لأرض فلسطين يبنون على هذه القصة المحرّفة خرافة (البقرة الحمراء) أو (بارا أدوما بالعبرية)، وذلك من أجل هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل الثالث. والقصة أن اليهود رغم احتلالهم العسكري لمدينة القدس كانوا يكتفون باقتحام باحة المسجد الأقصى فحسب كما هو معروف، دون أن يدخلوا المسجد نفسه لا لشيء إلا لأنهم يعتبرون دخوله صعوداً إلى (جبل المعبد) كما يسمونه، أي معبد أو هيكل سليمان عليه السلام الذي يدعون أن أثره يقع تحت المسجد الأقصى ويريدون إعادة بناءه على أنقاض المسجد الأقصى، حماه الله من كل سوء، والسبب عندهم أن ما يطلقون عليه (البقرة الحمراء) لم تولد بعد في أرض فلسطين، ولذلك فأحنبارهم المعاصرون يحرمون على أي يهودي دخول المسجد الأقصى بناء على النجاسة المذكورة عندهم في سفر العدد كما كتبه، وهذا نص ما كتبه لمن أراد أن يعرف التفاصيل:

(وكلم الرب موسى وهرون فقال: هذه فريضة الشريعة التي أمر الرب بها: قل لبني إسرائيل أن يأتوك ببقرة حمراء صحيحة لا عيب فيها، ولم يرفع عليها نير، فتعطونها لأعزاز الكاهن فيخرجها إلى خارج المحلة وتذبح أمامه. فيأخذ الأعزاز الكاهن من دمها بإصبعه ويرش باتجاه خيمة الاجتماع سبع مرات. وتحرق البقرة أمام عينيه بجلدها ولحمها ودمها وروثها. فيأخذ الكاهن عود أرز وزوفى وصبغ قرمز ويلقي ذلك في

وسَطِ حَرِيقِ الْبَقْرَةِ. ثُمَّ يَغْسِلُ الْكَاهِنُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِالْمَاءِ ثُمَّ يَدْخُلُ الْمَحَلَّةَ وَيَكُونُ نَجِيسًا بِحَسَبِ الشَّرِيعَةِ إِلَى الْمَغِيبِ. وَالَّذِي يَحْرِقُ الْبَقْرَةَ يَغْسِلُ ثِيَابَهُ بِالْمَاءِ وَيَسْتَحِمُّ، وَيَكُونُ نَجِيسًا إِلَى الْمَغِيبِ. وَيَجْمَعُ رَجُلٌ طَاهِرٌ رَمَادَ الْبَقْرَةِ وَيَضَعُهُ فِي خَارِجِ الْمَحَلَّةِ، فِي مَوْضِعٍ طَاهِرٍ، وَيَكُونُ مَحْفُوظًا لِجَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِأَجْلِ مَاءِ التَّنْطِيرِ. وَتَحَسَبُ هَذِهِ الذَّبِيحَةُ ذَبِيحَةً خَطِيئَةٍ. وَالَّذِي يَجْمَعُ رَمَادَ الْبَقْرَةِ يَغْسِلُ ثِيَابَهُ، وَيَكُونُ نَجِيسًا إِلَى الْمَغِيبِ. تِلْكَ فَرِيضَةٌ أَبَدِيَّةٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلِلدَّخِيلِ النَّازِلِ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ. مَنْ لَمَسَ مَيِّتًا مِنَ النَّاسِ يَكُونُ نَجِيسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَيَتَنَطَّهُرُ بِذَلِكَ الْمَاءِ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ فَيَطَهَّرُ وَإِنْ لَمْ يَتَنَطَّهُرْ يُنَجِّسُ مَسْكِنَ الرَّبِّ، فَيَقْطَعُ مِنْ إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِشْ عَلَيْهِ مَاءَ التَّنْطِيرِ. فَهُوَ نَجِيسٌ وَنَجَاسَتُهُ بَاقِيَةٌ فِيهِ. وَهَذِهِ شَرِيعَةٌ أَيُّ إِنْسَانٍ مَاتَ فِي خَيْمَةٍ: كُلُّ مَنْ دَخَلَ الْخَيْمَةَ وَكُلُّ مَنْ كَانَ فِيهَا يَكُونُ نَجِيسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَكُلُّ وَعَاءٍ مَفْتُوحٍ خَلَا مِنْ صَمَامٍ مَشْدُودٍ فَهُوَ نَجِيسٌ وَكُلُّ مَنْ لَمَسَ عَلَى وَجْهِ الْبَرِّيَّةِ قَتِيلًا بِالسَّيْفِ أَوْ مَيِّتًا مَيِّتَةً طَبِيعِيَّةً، أَوْ لَمَسَ عَظْمَ إِنْسَانٍ أَوْ قَبْرًا، يَكُونُ نَجِيسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، فَيُؤَخَذُ لِلنَّجِيسِ مِنْ رَمَادِ حَرِيقِ ذَبِيحَةِ الْخَطِيئَةِ فِي وَعَاءٍ وَيُصَبُّ عَلَيْهِ مَاءً حَارًّا، وَيَغْمِسُ رَجُلٌ طَاهِرٌ زَوْفَى فِي الْمَاءِ وَيَرِشُ عَلَى الْخَيْمَةِ وَعَلَى جَمِيعِ الْأَمْتِعَةِ وَالْأَحْيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا، وَعَلَى مَنْ لَمَسَ الْعَظْمَ، أَوْ الْقَتِيلَ بِالسَّيْفِ أَوْ الْمَيِّتَ مَيِّتَةً طَبِيعِيَّةً، أَوْ الْقَبْرَ. وَيَرِشُ الطَّاهِرُ الْمَاءَ عَلَى النَّجِيسِ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ وَالسَّابِعِ وَيُطَهِّرُهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ، فَيَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِالْمَاءِ فَيَطَهَّرُ عِنْدَ الْمَغِيبِ. وَأَيُّ رَجُلٍ تَنَجَّسَ وَلَمْ يَتَنَطَّهُرْ، يَقْطَعُ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ لِأَنَّهُ نَجِيسٌ مَقْدَسَ الرَّبِّ وَلَمْ يَرِشْ عَلَيْهِ مَاءَ التَّنْطِيرِ فَهُوَ نَجِيسٌ. هَذِهِ لَكُمْ فَرِيضَةٌ مَدَى الدَّهْرِ. وَالَّذِي يَرِشُ مَاءَ التَّنْطِيرِ يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَمَنْ لَامَسَ مَاءَ التَّنْطِيرِ يَكُونُ نَجِيسًا إِلَى الْمَغِيبِ. وَكُلُّ مَا يَلْمَسُهُ النَّجِيسُ يَكُونُ نَجِيسًا، وَكُلُّ مَنْ لَمَسَ النَّجِيسَ يَكُونُ نَجِيسًا إِلَى الْمَغِيبِ). [هذا النص من الترجمة العربية المشتركة].

وبناء على هذه النصوص وغيرها وصل أحبارهم في القرن الماضي إلى خرافة مفادها أنهم إذا وُلدت بقرة حمراء في فلسطين وذُبحت وأُحرقت فإن رمادها سيظهر ملايين اليهود من النجاسة المزعومة، ويمكنهم إذن من صعود الجبل أي دخول المسجد الأقصى، وعندها سوف يقومون بهدمه -حسب كلامهم في الخرافة- لكي يبنوا الهيكل المزعوم مكانه، ولكن هذه البقرة الحمراء المزعومة لابد أن تكون خالية من العيوب، وهو ما يعني أن تكون ذات شعر أحمر تمامًا ليس فيه ولو شعرتين من أي لون آخر، وأن تكون بكرًا لم تحمل أبدًا ولم تحلب ولم يوضع برقيبتها حبل وولدت ولادة طبيعية وربيت في ما يدعون أنها (أرض إسرائيل). هكذا حَرَّفُوا قصة البقرة التي قصها الله تعالى في سورة البقرة.

وقالوا إن تلك البقرة إذا بلغت العامين صلح استخدامها في عملية التطهير برمادها بعد ذبحها وحرقتها فوق جبل الزيتون في القدس، وأن يوضع الرماد المتبقي في إناء يحتوي على ماء يرش باستخدام أوراق من نبات الزوفا على أي شخص لامس البقرة من أجل تطهيره من النجاسة، ثم يغتسل الكاهن الذي ذبح البقرة بتلك المياه، ثم يصعدون إلى الجبل ويهدمون المسجد الأقصى ويبنون هيكلهم مكانه، ويؤمن بهذه الخرافة كذلك بعض المسيحيين من الإنجيليين خاصة في أمريكا ويساندوها بكل ما يستطيعون لأنهم يرونها بداية أحداث آخر الزمان، وذلك حتى يعود المسيح -عليه السلام- إلى الأرض المقدسة بعد بناء الهيكل كما يعتقدون، ولذلك فإن عددًا من المنظمات اليهودية -تدعمها منظمات مسيحية- على مدار القرن الماضي ظلوا يبحثون عن تلك البقرة ولا يفلحون في توليدها في فلسطين، إلى أن انتهى بهم الأمر مؤخرًا إلى توليدها بالهندسة الجينية في مزرعة بولاية تكساس الأمريكية حتى يحصلوا على لون الشعر الأحمر الخالص، ونجحوا في ذلك منذ سنتين، و جلبوا خمس بقرات -لا بقرة واحدة- بتلك المواصفات من ولاية تكساس إلى الأرض المحتلة في فلسطين استعدادًا لطقوس ذبحها وحرقتها، والتي يحين موعدها -حسب كلامهم- بعد

أيام، أو خلال عام ٢٠٢٤م على الأكثر، وقد بنت بعض منظماتهم شمعداناً ضخماً من الذهب الخالص ليوقدوه في الهيكل بعد أن يقيموه بعد هدم المسجد الأقصى -كما يزعمون على أي حال- ولنتأمل قول الله تعالى -وصدق الله العظيم- في نفس السورة: (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم. قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون. ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين. الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين - البقرة ١٤٢-١٤٧).

فهل تسمح أمة الإسلام بهذا الهدم لأولى القبليتين ومسرى الرسول ﷺ وثالث المساجد التي يشد إليها الرحال بعد الحرمين الشريفين؟ أم تقوم الأمة الشهيدة على الناس -كما قال تعالى عنها- بحماية مقدساتها والقيام بمسؤولية حمل راية الإسلام وحماية مقدسات الإسلام بما فيها قبلة الإسلام الأولى التي ورثتها منذ عصر الرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام؟ الله المستعان.

تفكيك منظومات الاستبداد (٣١): أمريكا بين إبادة كولومبس وإنسانية كولومبيا

من موافقات الأقدار أن تكون جامعة كولومبيا التي سميت على اسم كريستوفر كولومبس بعد الثورة المؤسّسة للدولة الأمريكية عام ١٧٨٤م - أن تكون هي اليوم الجامعة التي تقود الحراك الطلابي الأمريكي والغربي المتنامي، ليس لمقاطعة الكيان المحتل في فلسطين أكاديمياً ولا حتى للمناداة بتحرير فلسطين كما ينادون فحسب، بل إن هؤلاء الطلبة الرائعين من الجيل الجديد يقودون -في تقديري- حراكاً تاريخياً سيؤول إلى إسقاط تلك الإمبراطورية برمتها تحت وطأة تناقضاتها وبما كسبت أيديها من فساد وإفساد، هذا إذا لم ينهض عقلاء القوم في أمريكا والغرب عموماً -وهم كُثُر- فيستجيبوا لمطالب الجيل الجديد المنصفة، ويمسكوا بدفة الأمور بتجرد للصالح العام، ويقوموا المسار المنحرف عسكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً قبل فوات الأوان، وإلا يفعلوا فسنن الله في الجزاء وتداول الأيام والدول والأمم راسخة لا تتبدل ولا تتحول، ولو بعد حين، عاجلاً أو آجلاً.

وفضح تاريخ كولومبس الذي كذبوا فقالوا إنه (اكتشف أمريكا) بعد أن أباد عشرات الملايين من سكانها الأصليين -وكثير منهم كانوا من المسلمين- من أهم مفاتيح تفكيك منظومة الطغيان المعاصرة برمتها. ويبدأ كشف سلسلة الكذب بسؤال منطقي بسيط: هل يعقل أن كولومبس الذي مات عام ٩١١ هـ / ١٥٠٦م (اكتشف) أمريكا رغم أن خارطة قارة أمريكا -بل القارتين الأمريكيتين- قد رسمها بدقة ابن الزياد (الذي توفي قبله بسبعة قرون عام ٢٣٣ هـ / ٨٤٧م في العراق)؟ ثم خارطة المسعودي (الذي توفي قبله بستة قرون عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م)؟ ثم خارطة الإدريسي (الذي توفي قبله بأربعة قرون عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٦م)؟ بل وخارطة الرئيس العثماني (الذي كان معاصراً له وتوفي عام ٩١٦ هـ / ١٥١١م)؟ ثم كيف يصف ابن الوردي الحلبي الذي توفي عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م -أي قبل كولومبس بقرنين- في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب) تفاصيل الحياة في القارة الأمريكية؟ وكيف وصفها شهاب الدين العمري الدمشقي الذي توفي في نفس العام في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)؟ بل الأدهى من ذلك كله: كيف يمكن للإمام الشعبي التابعي المعروف الذي توفي عام ١٠٠ هجرية / ٧١٨م أن يقول قبل رحلة كولومبس بما يزيد عن ثمانية قرون وهو في الكوفة في القرن الأول الهجري: (إن لله عز وجل عبادة من وراء الأندلس، كما بيننا [أي كالمسافة بين الكوفة] وبين الأندلس، ما يرون أن الله تعالى عصاه مخلوق، رضراضهم الدر والياقوت، جبالهم الذهب والفضة، لا يحرثون، ولا يزرعون، ولا يعملون عملاً، لهم شجر على أبوابهم، لها ثمر هي طعامهم، وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم)؟

الإجابة المختصرة عن كل هذه الأسئلة أن (اكتشاف أمريكا) هو أول الكذبات الكبرى الكثيرة التي قامت عليها الإمبراطورية الأمريكية المعاصرة، بل وتكشف القصة الحقيقية عن جذور العداء الاستتصالي التاريخي بين تلك الإمبراطورية والإسلام، ورحم الله الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي نقلنا في مقال سابق من هذه السلسلة (رقم ٢٤) ما كتبه عن السياسات الاستتصالية الإمبريالية التي تستهدف العرب جميعاً باستخدام الصهيونية كأداة وظيفية، وذلك في سياق ما كتبه رحمه الله في تسعينيات القرن الماضي في موسوعته ذات الأهمية التاريخية (اليهود واليهودية والصهيونية) عن خطط إمبراطورية الرجل الأبيض في إبادة العرب الذين هم قلب الإسلام تاريخاً وجغرافياً.

وقصة كولومبس الحقيقية أن مساحات واسعة من قارتي أمريكا كانت موطناً لمسلمين من أصول أفريقية (من مملكة مالي) وأوروبية (من ممالك الأندلس)، وأنهم عاشوا مع سكانها الأصليين الذين اعتنق كثير منهم الإسلام مبكراً (وبقيت منهم بقايا إلى اليوم من قبائل الشيروكي وغيرها كما سمعت بنفسي من بعضهم)، وأن العربية كانت من لغات الحياة الاجتماعية هناك، وأن المساجد كانت منتشرة في تلك الأرض، وحجاب المرأة على الطريقة الأندلسية كان معروفاً -وأشار إليه بالمناسبة كولومبس نفسه في بعض ما كتب-، إلى أن قرر فرديناند وإيزابيل -الملكين الإسبانين اللذين سقطت على يديهما آخر قلاع الأندلس- تمويل حملة القرصان كولومبس لهدفين: هدف القضاء على المسلمين الأندلسيين في "الأرض الكبيرة"، وهدف سرقة ذهبها لاستجلابه لأوروبا، وبذلك الذهب تحديداً بدأ طغيان إمبراطورية الرجل الأبيض بفروعها الأوروبية المختلفة -إسبانيا، البرتغال، هولندا، فرنسا، بريطانيا، إلى آخرها-، إلى أن آلت الإمبراطورية اليوم إلى سيدها الرجل الأمريكي الأبيض.

وقد توالى الأجيال منذ تأسيس الدولة الأمريكية الأولى ومرت بمراحل مختلفة، ولكن بقيت معها الإبادة الجماعية على طريقة كولومبس كسياسة متبعة، منذ البرازيل وأستراليا قديماً إلى الكونغو والفلبين وفيتنام والعراق في العصر الحديث، وأخيراً فلسطين، ولكن دورة الأيام والليالي دارت إلى أن وُلد جيل الألفية الغربية (الذي يسمونه جينيريشن زد بالإنجليزية) في عصر شبكة الاتصال العالمية (الإنترنت)، وهو جيل في عمومها لا يدرك حجم الجرائم التي يرتكبها حكام بلاده في هذه الدنيا من أجل أن يرثوا ما ورثوا من رفاهية، وهو جيل في عمومها -وخاصة المتعلمين منهم تعليماً راقياً- على الفطرة إلى حد كبير ويؤمنون فعلاً بحقوق الإنسان وحرياته، على الأقل كما درسوها في المناهج المهيمنة الليبرالية الإنسانية (ليبيرال هيومانيزم بالإنجليزية).

وقد كان هدف مشروع الإنترنت الأصلي -إذا رجعنا إلى سياسات رؤساء أمريكا في التسعينيات- هو عولمة النموذج الأمريكي الثقافي، ثم تطور الهدف إلى أن وصلنا إلى أن ينقل التواصل الاجتماعي الحياة الإنسانية برمتها إلى الفضاء الإلكتروني، بما يتيح السيطرة عليها من قبل نادي الواحد بالمائة، وتوجيه العالم بأسره معلوماتياً باستعمال تقنيات الذكاء الصناعي إلى خدمة -بل عبادة- ما يسمى بالنظام العالمي الجديد.

إلا أن التناقضات الداخلية في ذلك النظام المعقد المترامي الأطراف -خاصة مع تزايد نفوذ العملاق الاقتصادي الصيني ونفوذ أصحاب رؤوس الأموال من غير نادي الواحد بالمائة ونفوذ الإعلام الموازي بنجومه ومؤثره على منصات التواصل الاجتماعي- سمح للجيل الجديد ببعض النواذ على الحقيقة. وليس الحديث عن حقيقة ما يحدث في فلسطين فحسب، بل حقيقة النظم المهيمنة على العالم وحقيقة إمبراطوريتهم نفسها. وإذا بهذا الجيل الجديد -خاصة منذ سنوات وباء الكوفيد- يكتشف حجم الهوة بين المواطن العادي في بلادهم وبين نادي الواحد بالمائة ومن يدور في أفلاكهم من ذوي السلطة والمال والجاه، ولكن ظلت تلك الحقائق الكبرى قابلة للتشويه والطمس وتغيب أصحابها بالترغيب والترهيب، إلى أن كشفت غزاة بصمودها الأسطوري ما كشفت وفضحت ما فضحت، وبغزة بدأ الربيع الأمريكي. (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون - يوسف ٢١).

تفكيك منظومات الاستبداد (٣٣): الشهادة .. الشهادة

(ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون - البقرة ١٥٧). تقبل الله القائد المجاهد أبا العبد إسماعيل هنية شهيداً عنده في عليين. هنيئاً له الشهادة التي تمناها ولطالما سألها، ونسأل الله تعالى أن يلحق به كل صادق في طلب الشهادة، بفضلك وكرمك يا كريم. وهذه كليمتا متواضعات -في رحاب استشهاد هذا المجاهد العظيم- عن التصورات الإسلامية الصحيحة المتعلقة بالشهادة في سبيل الله، إذ أنه من المعلوم أن الحكم على الشيء -والعمل الذي ينبني على الحكم- فرع عن تصور الشيء. وقد اختلّت كثير من التصورات هذه الأيام بفضل وباء الخطوط الحمراء الممنهجة: خطوط حمراء تقرضها الدول الجائرة على ما يقوله رعاياها ولو كانوا من أهل العلم، وخطوط حمراء تقرضها منصات التواصل على مستخدميها لكي تتيح استخدام تطبيقاتها مجاناً، وخطوط أخرى تقرضها قنوات الإعلام حسب سياساتها التحريرية أي حسب الدول وجماعات المصالح التي تمولها، وأخرى يفرضها الممولون بثقتي ألوانهم على المشروعات التعليمية والتربوية الإسلامية في مقابل دعمهم لها، نظراً لحرصهم على حماية تجاراتهم ومصالحهم.

ونتيجة هذه الغابة من الخطوط الحمراء التي تحيط بالإنسان اليوم هي اختلال التصورات، وما ينبني عليها من التصرفات، وعلى رأسها التصورات التي تتعلق بالجهاد والشهادة في سبيل الله، وبما أن أمتنا في هذا العام الأخير تخوض حرباً ضروساً من أصعب ما مر عليها من حروب، وتتطلع إلى نصر الله بـ (وعد الآخرة) إن شاء الله، فقد وجب التنبيه على ما في كتاب الله من مفاهيم خارج صندوق الخطوط الحمراء، والله المستعان: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون - آل عمران ١٨٧).

أولاً، من مقاصد تمجيد الشهادة في القرآن الكريم -وهو أمر معروف مشهور- وبيان منازل الشهداء وفضلهم في سنة نبيه العظيم ﷺ -وهو أمر معروف مشهور كذلك-، أن ترتقي أمة الإسلام ويعلو شأنها، فإنه لا يعلو شأن أمة -أي أمة- ولا يتغير حالها من ضعف إلى قوة ومن ذل إلى عزة إلا بالقتال. الأمم -مسلمة وكافرة- تقاتل لتدافع عن نفسها، وتطرد المعتدين عن أرضها، وتنتصر لعقائدها وقيمتها وعرضها وثرواتها ونظمها ودولها، وهذا القتال يسمى عند أهل الإسلام بالجهاد في سبيل الله، وهو فريضة لازمة على أمة الإسلام كذلك لتدافع عن نفسها، وتطرد المعتدين عن أرضها، وتنتصر لقيمتها وعقائدها وعرضها وثرواتها ونظمها ودولها. وهذا الكلام بدهي مفروغ عنه، ومعلوم من الإسلام بالضرورة، ولكن وجب التذكير به نظراً لأنه أصبح غريباً عند أهل الإسلام، بفضل تلك الخطوط الحمراء المذكورة.

وأعداء الإسلام من أباطرة الإمبراطورية العنصرية البيضاء المعاصرة، وأدواتهم: الكيان الصهيوني ودول الضرار (الإسلامية) التي تناصرهم، يعرفون هذه السنن ويدركون أهمية قتال أعدائهم، وهم على كفرهم وإلحاد أغلبهم بكل دين يلقون بفلذات أكبادهم -يأتون (لحياناً) من كل حذب وصوب- لينخرطوا في أتون المعركة الإبادية ضد الأمة، والتي يظنون أنها تبدأ من فلسطين وتنطلق منها لتركيح أمة محمد ﷺ كلها والاستيلاء على خيراتها كغنائم، ولكنها بإذن الله تعالى لن تبارح أرض الرباط في فلسطين حتى يهزمون ويولون الدبر وتدول دولهم وتدور عليهم الدوائر، بإذن الله تعالى.

ومن المفاهيم البديهية كذلك أن الجهاد في سبيل الله -بالوانه المباشرة وغير المباشرة- لا بد له من شهداء. لا يمكن أن تتغير الدنيا من الفساد إلى الصلاح -وهي مهمة هذه الأمة- دون ذات الشوكة: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين - الأنفال ٧)، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الحق وينقطع دابر الكافرين إلا أن تقاتل الأمة وأن تكف جيوشها عن الكلام بما لا تفعل وتبدأ القتال: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص - الصف ٢-٤). ولا يمكن أن تبدأ الأمة القتال وهي متفرقة متشرذمة كما نشهد اليوم: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم - آل عمران ١٠٥).

ثم إنه لا طاعة لـ (أولياء الأمور) إلا أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ويحكموا بالعدل ويردوا الأمور إلى الله ورسوله ﷺ ولا يتحاكموا إلى الطاغوت، وهذا مصداق قوله تعالى حين قال: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا - النساء ٥٨)، ثم قال بعدها: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا - النساء ٥٩)، ثم قال بعدها: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا - النساء ٦٠). وهذا الكلام ليس (إسلام سياسي) ولا (أجندات خارجية) ولا (دعوة للفتنة)، ولا غير ذلك من الترهات. هذا هو الإسلام، فإن شئتم فخذوه وإلا فأعلنوا كفركم به ودعوا عنكم النفاق.

وأخيراً، إن اصطفاء -أو اتخاذ- الشهداء مقصود من الجهاد في حد ذاته، وهو من كرم الله وفضله على أمة الإسلام في كل عصر. الشهادة شرف وتكريم. الشهادة تمحيص ورفع درجات. الشهادة سنة أصحاب الدعوات إلى الله. ونقرأ اليوم ونتدبر -كما تعودنا في هذه السلسلة من المقالات- قوله تعالى:

(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين. وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين. وكأين من نبي قاتل معه [وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: (قُتِلَ معه)] ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين. وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فاتأهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين - آل عمران ١٤٠-١٤٩)، ثم قال تعالى ناهياً عن طاعة الكافرين: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين. بل الله مولاكم وهو خير الناصرين - آل عمران ١٥٠) - صدق الله العظيم.

تفكيك منظومات الاستبداد (٣٤): نصائح عربية للثورة البنغالية

يا أهلنا الكرام ويا أمتنا الحبيبة في بلاد البنغال! هذه نصائح من وحي المأساة التي عاشها إخوانكم العرب على مدار السنوات العشر الماضية أو تزيد، عسى أن تتجنبوا ويلات الثورة المضادة التي هي آتية لا محالة، بل هي قد بدأت بالفعل منذ يوم أمس! بدأ بالفعل شياطين الدولة العميقة وأعداء الأمة الدوليين من كل لون شنّ الحرب عليكم، لإجهاض ثورتكم وتركييع شعبكم وتجوييع البسطاء منكم وقتل الشرفاء من كل شاكلة. فاحذروا!

لا تتركوا الساحات والشوارع الآن ولا في أي وقت قريب. لا توافقوا على تولي قيادات الجيش الحالية لزام الحكم مهما قالوا ووعدوا وتمسكوا وتظاهروا بالوطنية. لا ترضوا بأقل من إعدام القتلة الذين اغتالوا إخوانكم المتظاهرين، والذين قاموا بقتل الشرفاء في بلادكم على مدار العقود الماضية خارج أو داخل ما يسمى بقانون الإرهاب، خاصة من القادة السياسيين والعسكريين والأمنيين والقضائيين. لا تتسامحوا مع أي منهم صغيراً كان أو كبيراً، ولا ترضوا بأقل من إعدام الذين تورطوا في القتل أو التعذيب جميعاً، وتدمير كل السجون والمعقلات التي عذبوا فيها الأبرياء، كلها. وأخيراً، لا تقبلوا بانتخابات (ديمقراطية) نزيهة ولا غير نزيهة، ولا تطالبوا بحكومة (مدنية) الآن. احذروا!
وهذه الأسباب:

١- قيادات الجيش التي اختارها ورباها الطغاة على أعينهم خونة وطغاة مثلهم وشركاء في كل الجرائم التي وقعت، ولا تصح الثقة فيهم لقيادة البلاد ولو لساعة واحدة. هؤلاء أيها الإخوة والأخوات هم أنفسهم (الدولة العميقة) التي ثرتم عليها، والتي لا بد من تفكيكها تماماً ودون أي استثناء. هؤلاء القادة هم الذين بالأمس القريب حموا الرئيسة الفاسدة المخلوعة وهربوها على طائرة حربية، بدلا من محاكمتها وإعدامها على جرائمها، وهذا أكبر دليل على أنهم شركاء لها، ولا ينوون لكم إلا كل شر.

٢- الحكومة (المدنية) ليست هدفاً إسلامياً بالضرورة في مقابل حكومة عسكرية. الإسلام يتسع لأي نوع من الحكومة ما دامت شريفة وعادلة. والأولى الآن في هذه الظروف هي حكومة من قيادات شابة عسكرية ولكنها مؤمنة ونزيهة، وهؤلاء قلة في جيوش المسلمين هذه الأيام ولكنهم موجودون ومستعدون لفداء الحق والعدل بأرواحهم. ابحثوا عنهم ولا ترضوا إلا بأن يتولوا هم الحكم، وادعموهم لكي يقوموا بعملية تطهير واسعة وعميقة لكل الرتب الفاسدة فوقهم إلى قمة الهرم، وإعادة صياغة للدولة بكل فروعها خاصة السياسية والعسكرية والأمنية والقضائية والإدارية. ادعموهم إذا أرادوا عقاب القتلة لأن من قتل يُقتل في الإسلام، ولا يحل شرعاً أن تتنازل قيادة الدولة الجديدة عن هذا المبدأ وتطبيقه.

٣- لا تفتحوا حوارات جانبية اليوم ولا في أي وقت قريب عن (تطبيق الشريعة) على أي مستوى من الأحكام الجزئية التي تتعلق بالمنكرات والعورات وأحكام الأسرة والمذبيبات والكلاميات، ولا تسمحوا بأن يشنت أحد انتباهكم بهذه الأمور ولو كانت صحيحة. لا صوت يعلو في هذه الأيام على تطبيق الحدود الشرعية بصرامة من أجل تنظيف الدولة من القتلة والسارقين والمختلسين والخونة من كل نوع. هذه هي أولوية تطبيق الشريعة عندكم اليوم.

٤- هدفكم ليس إقامة دولة (ديمقراطية) ولا إطلاق (الحريات) على الطريقة الأوروبية. هدفكم في الحكم اليوم هو إقامة دولة قوية وعادلة تستهدف مصلحة الناس، وهذا لن يقوم به إلا قوات من الجيش -من

الشرفاء- التي تحتكر وسائل العنف في الدولة وقادرة على تطبيق الحدود وإشاعة الأمن، وقادرة على إحكام القبضة على الإعلام لمنع الإعلاميين الفاسدين من نشر أي أكاذيب أو ترهات أو تشتيت الناس عن أهداف الثورة في تطهير البلد.

٥- ليس هناك شيء اسمه (سيادة القانون) إذا كان القانون الذي يتحدثون عنه مشبوهاً كالقوانين التي سنّها الطغاة في بلدكم على مدار العقود السابقة لتقنين سرقتكم والطغيان عليكم، والذي كان مشرعوه قد استهدفوا مصالح خاصة سياسية واقتصادية وغيرها من الأغراض الفاسدة. هذه القوانين باطلة، ولا تقبلوا اليوم من أي جهاز تشريعي أقل من إبطال كل القوانين سيئة السمعة وعدم التحاكم إليها.

٦- لا يصح الآن أن تجرى انتخابات ديمقراطية نزيهة ولا غير نزيهة. يا إخواننا الأحبة في الجماعة الإسلامية البنغالية! لا تدخلوا معترك السياسة الآن على الطريقة الديمقراطية الغربية! ولا يغرنكم بريق السلطة بعد طول اضطهاد عن واقع جماعاتكم. الواقع هو أنكم على هامش المجتمع مهما كانت قدرتكم على حشد أنصاركم -وهم أقلية في المجتمع- للتظاهر. خذوا وقتكم حتى تدرسوا الدولة العميقة وتفهموا جيداً كيف تتعاملون معها في قادم الأيام والسنوات. ربوا كوادراً محلية ودولية على مدار عقد أو اثنين لكي يستطيعوا قيادة الدولة في الوقت المناسب. إذا انفضت جموع الناس في الأيام القادمة فلن تستطيعوا إعادتها إلى الشارع بنفس القوة لحمايتكم أو حماية أنفسهم، اعلموا أنكم ليس لكم سلطان على الدولة العميقة -وعلى رأسها قيادات الجيش الحالية- التي تكرهكم وتريد قتلكم جميعاً إلى آخر رجل. واعلموا أنكم ليس لكم سلطان حقيقي على وسائل العنف في يد الجيش والشرطة، ولا بد أن تعتمدوا على الشرفاء فيهم -مهما كانوا أقلية- من أجل إدارة الدولة في المرحلة القادمة. أعينوهم وساعدوهم ولا تتطلعوا إلى السلطة -رجاءً-، فموازن القوى الخشنة الحقيقية في داخل البلد وخارجها لن تسمح لكم بسلطة حقيقية وستسعى لتصفيتكم، ولن تحميكم دولة أخرى، لا باكستان ولا غيرها.

٧- أخيراً، لا بد أن يخطط الثوار لكي يتعاظم تأثيرهم على الإعلام لتحقيق التوعية على المدى القصير، والتعليم لتحقيق التوعية على المدى البعيد. اضربوا بيد من حديد على الإعلاميين الفاسدين الذين يريدون العودة بكم إلى النظام القديم، ولا تتخذوا بشعارات حرية الإعلام. ليس هناك شيء اسمه إعلام حر لا في الشرق ولا في الغرب، بل الهدف هو إعلام صادق ومعبر عن أهداف ثورتكم، فمن كذب في الإعلام فحاكموه. واهتموا بالتعليم حتى يمكن خلال سنوات أن ينشأ جيل جديد يؤهله تعليمه لكي تقف الدولة على قدميها وتحافظ على وجودها.

هذه نصائح من محب، وهي كلها من وحي تجارب الربيع العربي المرة، وقد نادينا مع آخرين -وكانوا قلة- بمثل هذه النصائح أيام الربيع العربي فلم نلق أذناً صاغية، وسبق قدر الله فيما قدر، وإنما الأعمال بالنيات، وعند الله تجتمع الخصوم. أما أنتم فلا ينبغي أن تلدغ الأمة من جحر مرتين، فالحذر الحذر. ألا هل بلغناكم؟ اللهم فاشهد. نصركم الله وسدد خطاكم.

تفكيك منظومات الاستبداد (٣٥): دعوة مجددة إلى إحياء الربيع العربي

نشرت (مقالة رأي) في هذه السلسلة على هذه الصفحة في اليوم السابع والعشرين من شهر أكتوبر ٢٠٢٣م -أي بعد عشرين يوماً من بدء الحرب على غزة-، كان عنوانها: (إما اعتدلت وإما اعتزلت - دعوة لإحياء الربيع)، وكتبت فيها أقول:

(في مثل موقف الحرب التي يراد بها الإبادة الجماعية لمئات الألوف من الناس -وهو ديدن لا يتخلف عن الحروب الصليبية كما قلنا في المقالة السابقة- تأتي لحظة إثبات أحقية القيادة، ويحين أوان دفع حكام المسلمين لثمن ما يحوزونه لأنفسهم من مقدرات الأمة بصفتهم حكامها. المعادلة الشرعية ليست هي "التغلب" على الشعوب المستضعفة بالسلاح لكي يحكمها حكامها حكم كسرى وقيصر. هذه بدعة ظهرت في بلاد المسلمين منذ القرن الأول الهجري للأسف، وكانت بدعة باطلة وستظل بدعة باطلة. شرعية الحكام -وسلطاتهم وامتيازاتهم وعدم الخروج عليهم- منوطة بإثبات أنهم حريون بهذه المكانة ويقومون بأبسط واجباتها، وإلا عزلتهم الأمة أو أهل الحل والعقد فيها من العلماء الشرفاء وأصحاب الرأي وأصحاب الدين والشأن والخبرة والنسب، حسب السياقات المختلفة للدول المختلفة. هذا هو مقتضى فقه السياسة الشرعية، وهذا ما ننادي به اليوم ... أيها الشباب الواعي من أمتنا المجيدة! لا يمكن أن تتغير خطة إبادة وتغيير لخريطة منطقة بأكملها كما نرى بأم أعيننا، في قتل وتهجير شعب كامل -والآن لا مجال لإنكار هذه الأهداف وقد أصبحت معلنة- لا يمكن أن يتغير هذا المسار بمزيد من الاحتجاجات المدنية التقليدية والتغريد على منصة إكس وتبادل الرسائل الحماسية على واتساب وصنع الفيديوهات على يوتيوب، خاصة في الدول غير "الديمقراطية" حيث لا تمثل تلك الاحتجاجات المدنية التقليدية أصواتاً انتخابية ولا مصالح اقتصادية ولا ضغطاً ذا بال. هذه الأفعال قد فات أوانها اليوم. ولا يحتمل أن يكون رد الحكام الفارغ بأنهم يحافظون على أمن بلادهم! لأن هذا يعني انفراد الغزاة بالبلاد واحداً تلو الآخر -إلا الذي يسجد لهم ويقدم فروض الطاعة والولاء-. اقرأوا التاريخ وستجدون سيناريو الأندلس يعود بحذافيره، هي قصة الثور الذي قال حين حان موعد أكله: "أكلت يوم أكل الثور الأبيض". لا ينبغي أن تغيب هذه الحقائق عن الشباب الواعي من أمتنا المجيدة!). [رابط المقالة في الهامش أدناه]

واليوم بعد مرور عشرة أشهر من الحرب لم تستجد أي قوة مؤثرة للرد على العدوان سوى قوة المقاومة بأشكالها وصورها -نصرهم الله وأيدهم-، ولم يؤثر في مسار الحرب من خارجها إلا بعض الأصوات الشريفة والنفوس الحرة من شباب وأساتذة الجامعات في بعض بلاد الغرب، وهؤلاء ضغطوا قليلاً على الواقع بمناسبة موسم الانتخابات في عدد من البلاد في هذا العام ٢٠٢٤م، وخاصة في أمريكا، فأنجزوا ثلاث نتائج لا رابع لها:

(١): تأجيل المحاربين لخططهم المبيتة بذبح البقرات الحمر وهدم المسجد الأقصى -والتي ما زالوا يخططون لها على أي حال-، و(٢) تأجيل الحديث عن استعمال أسلحة نووية -من النوع محدود التدمير-، والذي ما زال خياراً مطروحاً على طاولتهم يناقشونه بين الحين والآخر، و(٣) إدخال قدر شحيح من المساعدات التي تسمى (إنسانية)، ولو أنها مغموسة بدماء الشهداء الذين يقصفون أحياناً عند استلامها، مما تجنبت به غزة -إلى اليوم- موت مئات الألوف خلال أيام معدودة كما كانت نوايا المحاربين التي لا يخفونها. وما عدا ذلك، فالإبادة الجماعية لغزة -كل غزة- جارية على قدم وساق، والوضع ينحدر بسرعة، والمحاربون الآن

يتحدثون عن حرب أكبر تتيح لهم الوصول إلى دولتهم التي يحلمون بها من النيل إلى الفرات، لا يخفي قادتهم هذه النية، ولماذا يخفونها وليس هناك رادع ولا وازع؟

إذن، ما زالت الدعوة إلى إحياء الربيع العربي هي في تقديري الدعوة الوحيدة التي يمكن أن تعكس المسار الكارثي التي تتجه إليه أمتنا. إذا لم تقف الشعوب العربية -والمسلمة بشكل عام- وقفة جادة مع حكامها، تحاسبهم على مسؤوليتهم في وقف هذه المهزلة التي تتعرض لها أمة الإسلام -خاصة في دول الطوق المحيطة بفلسطين-، فلننتظروا أن تحكمهم (إسرائيل الكبرى) قريباً، وأن تطرد سنن الله تعالى في استبدال جيل الهزيمة من الفاسقين بجيل النصر من المؤمنين، ولكن بعد أربعين سنة من التيه.

ونقرأ ما قاله تعالى عن قصة قوم موسى، والتي تنطبق على أحوالنا اليوم:

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجال من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين - المائدة ٢١-٢٦).

تفكيك منظومات الاستبداد (٣٦): لا بد من جهاد المنافقين

لو لم يكن النفاق والمنافقون موضوعاً يهَمُّ الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان لما جعل الله سبحانه له في القرآن العظيم تلك المساحات الكبيرة من الآيات الكريمة، من أوائل سورة البقرة (ومن الناس من يقول آمنا بالله وبالْيَوْمِ الآخِرِ وما هم بمؤمنين - البقرة ٨)، الآيات، ثم سورة آل عمران: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يآلؤنكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون - آل عمران ١١٨)، الآيات، ثم سورة النساء: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً - النساء ١٤٥)، الآيات، وهلم جزءاً مروراً بمئات الآيات في القرآن الكريم، والتي تفصّل أحوال المنافقين وعلاماتهم وخطورتهم تفصيلاً، إلى أن نصل إلى سورة كاملة من سور المفصل باسم: سورة (المنافقون).

ولابد من إعادة هذا المفهوم القرآني المركزي إلى مكانه اللائق به في الفكر والثقافة الإسلامية، لا بد أن يعلم المسلم أن تعريف المنافق هو إنسان كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله ﷺ أصلاً في دخيلة نفسه: (وما هم بمؤمنين - البقرة ٨)، أو هو في أحسن أحواله مذذب لا يجزم في قلبه بأن هناك إلهاً ولا رسالة نزلت من السماء على رسول أصلاً فيتردد: (مذذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء - النساء ١٤٣)، إلا أن هذا الكافر الشاك يتظاهر بالإسلام ويعمل بأعمال المسلمين ويقول بأقوال المسلمين في ظاهره، لا لشيء إلا من أجل مصالح معينة عند المسلمين - أو غيرهم - لا يمكن أن تتحقق إلا إذا تظاهر بأنه مسلم: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون - البقرة ١٤).

صحيح أن آيات القرآن تشمل المنافقين الذين كانوا على عهد النبي ﷺ وهؤلاء كان لهم خطرهم الكبير على الدعوة الإسلامية في عصرها الأول، وكان لهم خطرهم على قائدها ﷺ الذي تحالفوا مع أعدائه من كل لون، وحاول اثنا عشر منهم قتله ﷺ في عقبة تبوك وفشلوا في ذلك: (وهموا بما لم ينالوا - التوبة ٧٤)، إلى آخره - إلا أن آيات المنافقين في القرآن لا يُقصد بها الاقتصار على فضح منافقي عصر الرسالة فحسب، بل هي دروس ضرورية للأمة في كل زمان ومكان، لكي ينتبه عقلاؤها وأولو الألباب فيها إلى خطر النفاق والمنافقين، ولكي يتعلموا كيفية التعامل مع تلك الظاهرة الخطيرة.

وبعض الناس يعترض على اتهام الناس بالنفاق بالمعنى العقدي، أي استبطان الكفر وإظهار الإيمان الذي اصطلح على تسميته بالنفاق الأكبر، وما يترتب على ذلك الاتهام من التعامل معهم كما نتعامل مع الكفار سواء بسواء، وحجتهم أن النفاق حال قلبي لا يطلع عليه إلا الله تعالى، ولعلمهم يتذرعون بالقاعدة التشريعية التي يُحاسب فيها الناس على ما يُبدون من أعمال لا على ما نطن في قلوبهم من نيات، والقاعدة صحيحة لا ريب، ولكنها لا تنطبق على من يتجاوز نفاقه خصوصية نفسه وخفايا هواجسه، بل يرتكب أعمالاً ويقع في شناعات في الواقع الحي، هي بعينها علامات النفاق التي ذكرها الله ورسوله ﷺ. هنا يمكن أن نحكم على هؤلاء بالنفاق بناء على تأكد ارتكابهم لتلك الأفعال، بل ونجري عليهم أحكام الكفار المحاربين إذا حاربوا معهم، كما نرى بأم أعيننا في واقعنا اليوم.

وقد جرت سنن الله تعالى أن المحن يتمايز فيها المؤمنون عن المنافقين، وجرت سنن الله بأن الصف المؤمن لا يمكن أن ينتصر قبل أن يتحقق هذا التمايز: (ليميز الله الخبيث من الطيب - الأنفال ٣٧)، (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين - العنكبوت ١١)، والقصد من تمييزهم هو أن يُعزل هؤلاء عن صفوف المؤمنين ولا يُحسبون عليهم ولا يتمكنون من مواقع السلطة أو التأثير فيها، إذ أنهم خطر وضرر لا يُحتمل: (فإن

رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا - التوبة (٨٣)، (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا - آل عمران ١١٨).

إذن، إذا ظهرت علامات النفاق في أناس كما علمناها من القرآن والسنة بما لا يدع مجالاً للشك، حكمنا عليهم بالنفاق يقيناً، وعاملناهم كأعداء أصليين للأمة بما يستحقون من معاملة، خاصة في أوقات الحرب التي لا يستحقون فيها إلا معاملة غليظة كمعاملة الكفار المنافقين واغلاظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير - التحريم ٩، وقال تعالى فيهم: (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله - المنافقون ٤).

وفيما يلي عشرة كاملة من أبرز علامات المنافقين في القرآن الكريم، في رؤوس أقلام حسب ما يسمح به المقام، والتي إذا تحققت بلا شك في أناس حكمنا عليهم بلا شك أنهم من المنافقين، وعاملناهم بما ينبغي لهم من معاملة:

(١): نصره الكفار على المؤمنين: هؤلاء يعدون الكفار بالنصرة ثم يقومون بها فعلياً، ولو كانت على خفية خوفاً من المسلمين: (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتهم لننصرنكم - الحشر ١١)، ومن النصره اتخاذا اليهود والنصارى أولياء، أي حلفاء وقت الحرب - والمقصود بطبيعة الحال المحاربون المعتدون منهم. - قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين - المائدة ٥١-٥٢). فأولياؤهم (منهم) أي يهود ونصارى كما قال الله، وصدق الله.

(٢) إفقار وتجويع أنصار الإسلام حتى يكفوا عن نصرته: هذه اليوم أصبحوا يسمونها سياسات "تجفيف منابع الإرهاب" أو "تجويع الشعوب لتركيبتها" أو "إفقار الإسلاميين حتى يموتوا جوعاً أو تقع نساؤهم في البغاء"، كما يردد المنافقون وينفذون منذ نصف قرن وإلى اليوم في غزة، لا تخفي ذئابهم ذلك إلا لماماً. وهذا من أكبر علاماتهم وهي مصداق قوله تعالى عنهم: (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزان السماء والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون - المنافقين ٧).

(٣) كثرة الحلف بالله حماية لأنفسهم ومصالحهم: قال تعالى عنهم: (اتخذوا أيمانهم جنة - المنافقون ٢)، جنة أي وقاية وحماية. (ثم جاءوك يحنفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً - النساء ٦٢). (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم - التوبة ٤٢)، (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم - التوبة ٥٦)، (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه - التوبة ٦٢)، (ومن العجب العجاب أن هؤلاء يجيئون يوم القيامة فيحلفون لله تعالى نفسه كذباً: (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم - المجادلة ١٨).

(٤) يبتغون العزة في الكفر، ويظنون الذلة في الإيمان: هم في عصرنا معجبون مبهورون بل عبيد مفتنون بأصحاب السلطة في الإمبراطورية العنصرية الحالية، وهم في نفس الوقت يشعرون بالذلة والعار من انتمائهم إلى أمة الإسلام. قال تعالى عن اختلال موازين العزة والذلة عندهم: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون - المنافقون ٨)، وقال: (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً - النساء ١٣٨-١٣٩).

(٥) التحاكم إلى قوة الطاغوت لا إلى سلطان الحق: المنافقون ليس عندهم بوصلة ولا معيار ولا سلطان لوعي أو حق أو عدل أو خلق أو رحمة أو إنسانية، وإنما البوصلة والمعيار والسلطان الوحيد الذي يحترمونه

هو القوة الغاشمة لوسائل العنف والبلطجة على كل المستويات، أو هي حسب الاسم القرآني البليغ لتلك الظاهرة الخطيرة: التحاكم إلى الطاغوت. قال تعالى عنهم: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به - النساء ٦٠).

(٦) الخوف والذعر: المنافق رعديد مرتعب من حساب الناس له وتجده يخاف من ظله. قال تعالى: (يحسبون كل صيحة عليهم - المنافقون ٤)، (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون - التوبة ٥٦)، والفرق هو الخوف الشديد.

(٧) الجشع المادي والبخل: هدف المنافقين الأكبر هو تلك المكاسب المادية التي يحققونها من المسرحية التي يمثلون أدوار المسلمين فيها، وهم في هذا الشأن لا يشبعون ولو امتلأت بطونهم إلى التخمة، ولو أكلوا مال الصدقة أو حقوق الناس. قال تعالى: (ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون - التوبة ٥٨)،

(٨) قسوة القلوب كأن الرحمة قد نزعت منها: عند المنافق، ليس هناك إشكال ولا تطرف له عين ولا يندى له جبين من قتل الناس البريئة، أو إفساد البيئة الطبيعية بما عليها من مخلوقات. هذا ما تنضح به قلوبهم كما يظهر في أعمالهم: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل - البقرة ٢٠٤-٢٠٥).

(٩) الدعوى الكاذبة أنهم مصلحون وساعون في الخير: وما أكبر وأعرض وأكذب دعاوى المنافقين أنهم مصلحون ومحسنون وتوفيقيون وحلالون لكل أزمة. قال تعالى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون - البقرة ١١)، (ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا. أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم - النساء ٦٢-٦٣).

(١٠) الاهتمام بمظاهر الأجسام مع خراب القلوب: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة - المنافقون ٤).

وبعد. فإنه في ظل هذه الظروف العصبية التي تمر بها أمتنا والحرب الإمبريالية الشاملة التي يشنها الأباطرة من أهل الكفر عليها جهاراً نهاراً، بدءاً من إبادة الشعب الذي يحتل محل القلب من جهادها وكرامتها وعزتها ومقدساتها في فلسطين، والتي بدأت حربهم تتسع إلى حرب شاملة دقت طبولها لإعادة ترتيب الخريطة الدولية كما يريد أعداء الأمة وعلى حساب شعوبها ومقدساتها ومقدراتها، فإنه لا مجال للتسامح مع المنافقين في قيادات الدول ولا في بطاناتها والنافذين فيها وهم كثر في أيامنا النحسات هذه، ولا مجال للتسامح مع المنافقين في صفوف المجاهدين والداعمين على كل جبهة، ولا في غيرها من المواقع. لا مناص من مواجهة ظاهرة المنافقين على كل المستويات في واقعنا والتعامل معها بالجدية التي تليق بخطورتها. لا بد من جهاد المنافقين.

تفكيك منظومات الاستبداد (٣٧): هل يمنع المسلمون هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل؟

دعوت في مقالة في هذه السلسلة منذ خمسة أشهر (رابط المقالة أدناه) إلى تحرك شعبي في بلاد المسلمين لوقف مخطط هدم المسجد الأقصى، والذي بدأه الصهاينة عملياً أثناء هذه الحرب بالخطوة الأولى التي يعتقدون في خرافاتهم وجوبها عليهم (وهي تحريف من القصة المعروفة في سورة البقرة كما قلنا هناك)، تلك الخطوة هي ذبح بقرة حمراء وحرقتها وتطهر المقتحمين للمسجد بماء يخلط برمادها قبل أن يدخلوا حرمة (الذي يسمونه بجبل الهيكل)، وقد قاموا بالفعل بتوظيف الهندسة الجينية في مزرعة بولاية تكساس الأمريكية، وأنتجوا خمس بقرات حمراء - لا بقرة واحدة - ليس فيهن شعرة بيضاء ولا سوداء، واستقبلوهن فعلاً في فلسطين في احتفال رسمي منذ عامين، وحددوا أنذاك عام ٢٠٢٤ لذبحهن والبدء في بناء الهيكل الثالث على أنقاض المسجد الأقصى.

والخطة جارية لم يوقفها شيء إلى يومنا هذا، بل إن المدقق في الصور التي ينشرها الإعلام لغرفة اجتماع مجلس الحرب الإسرائيلي الحالي، يلاحظ على الحائط خلف طاولة الاجتماعات لوحتان، إحداهما خريطة للشرق الأوسط فيها (إسرائيل الكبرى) تمتد بلون واحد من النيل غرباً إلى الفرات شرقاً، ومن الأناضول شمالاً إلى المدينة -على ساكنها الصلاة والسلام- جنوباً، واللوحة الأخرى في غرفة اجتماع مجلس الحرب الإسرائيلي فيها تصميم للهيكل الذين يخططون لبنائه على (جبل الهيكل) أي مكان المسجد الأقصى الحالي.

وبالمناسبة، فإن هذا التصميم الذي اعتمده هؤلاء للهيكل المزعوم كانوا قد أخذوه من الوصف الموجود في (لغافة الهيكل)، وهي إحدى مخطوطات البحر الميت التي عُثِرَ عليها في وادي قمران بالضفة الغربية، وهذا موضوع طويل الذيل كثير الشجون، إذ أن المخطوطة المسماة بـ (لغافة الهيكل) -وهي من القرن الخامس قبل التاريخ الميلادي- تصف بيت المقدس كما كان أصله حين جدد بناءه سليمان عليه السلام، وبالتالي فهي تصف مسجداً يُعبد الله فيه كما عبده الأنبياء جميعاً فيه، منذ داود وسليمان إلى مريم ويحيى وعيسى، عليهم السلام جميعاً.

ومن المضحكات المبكيات في قصة هذه الوثيقة التي يرويها محققها (وهو إيغال يادين، الذي كان من قيادات الجماعات الإرهابية قبل نكبة ١٩٤٨، ثم من مستشاري الحرب عام ١٩٦٧، ثم أستاذاً للآثار في جامعاتهم ومديراً لمتحفهم القومي، حيث يحتفظون بتلك الوثيقة إلى اليوم ضمن وثائق البحر الميت)، كتب أنه اشتراها مسروقة من المتحف الوطني الأردني -قبل احتلالهم للضفة الغربية عام ١٩٦٧- بعد رشوة عدد من المسؤولين في الحكومة الأردنية آنذاك (راجع كتاب إيغال يادين: لغافة الهيكل - التوراة الخفية لطائفة البحر الميت، طبعة راندم هاوس في نيويورك ١٩٨٥، ص ١٣ وما بعدها).

أما بيت المقدس، فكان على مر العصور مسجداً وسيظل مسجداً بإذن الله. وقد روى ابن خزيمة وابن حبان والترمذي من حديث الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَيَأْمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ بِهِنَّ فَأَتَاهُ عَيْسَى فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ فَأَمَّا أَنْ تُخْبِرَهُمْ وَإِمَّا أَنْ أَخْبِرَهُمْ فَقَالَ يَا أَخِي لَا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ سَبَقْتَنِي بِهِنَّ أَنْ يُخَسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ قَالَ فَجَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِيَتِّتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفَاتِ ثُمَّ خَطَبَهُمْ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى

إليّ بخمس كلماتٍ أن أعملَ بهنَّ وأمرَ بني إسرائيلَ أن يعملوا بهنَّ أولاهنَّ لا تُشركوا بالله شيئاً ...)،
والحديث طويل ولكن الشاهد فيه قوله ﷺ: (حتّى امتلأ المسجد)، فالوثائق والآثار -إن صحت نسبتها إلى
تلك الحقبة القديمة على أي حال- إنما تصف بيت المقدس حين كان مسجداً يُعبد الله فيه، وهو الحال الذي
عليه الآن: مسجد لعبادة الله تعالى وحده، ولا تصف (هيكلاً) فيه طقوس وثنية لذبح وحرق الأنعام بناء على
عقيدة محرّفة تشرّع القتل والطغيان وكل أنواع الفساد في الأرض، كما يريدون.

وقد تساءلنا منذ خمسة أشهر ونكرر التساؤل بنصه:

هل تسمح أمة الإسلام بهذا الهدم لأولى القبلتين ومسرى الرسول ﷺ وثالث المساجد التي يشد إليها
الرجال بعد الحرمين الشريفين؟ أم تقوم الأمة الشهيذة على الناس -كما قال تعالى عنها- بحماية مقدساتها
والقيام بمسؤولية حمل راية الإسلام وحماية مقدسات الإسلام بما فيها قبلة الإسلام الأولى التي ورثتها
منذ عصر الرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام؟ الله المستعان.

تكفيك منظومات الاستبداد (٣٨): احتفلوا بمولد الرسول المجاهد الشهيد

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا - النساء ٤١).

ليس هناك حرج شرعي في أن يتخذ المسلمون في ثقافتهم العامة من يوم ميلاد النبي ﷺ يوماً خاصاً للتعريف به للعالمين -بأبي هو وأمي-، وقراءة سيرته العطرة، ورد الشبهات عن مقامه الكريم، ودراسة أخلاقه وهو صاحب الخلق العظيم، ودعوة المسلمين إلى التأسّي بأسوته الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ومحاجة أهل الكتاب بما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل عنه، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فأخفوا كتاب الله أو حرفوه. ولا مانع من قرص الشعر ونشر المدائح الجميلة التي لم ولن تبلغ ما مدحه به ربه سبحانه وتعالى، وصدق الشاعر الذي قال:

أرى كل مدح للنبي مقصرا .. وإن سطرت كل البرية أسطرا
فما أحد يحصي فضائل أحمد .. وإن بالغ المثني عليه وأكثرنا
إذا الله أثنى بالذي هو أهله .. كفاه بذا فضلاً من الله أكبرا
وفي سورة الأحزاب صلى عليه .. فما مقدار ما تمدح الورى

(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً - الأحزاب ٥٦).

إلا أن هناك محظوراً شرعياً ومألاً فاسداً ومكراً كِبَاراً في بعض أشكال الاحتفال بالمولد النبوي التي لا مناص من أن نحذر منها أمتنا، فهناك في هذه الأيام الصعبة من نراهم يتخذون من يوم ذكرى مولده الشريف -عليه أفضل الصلاة والسلام- مناسبة لتخدير الأمة في وقت تُدبج فيه من الوريد إلى الوريد، يتخذون من يوم مولده مناسبة للرقص والغناء واللهو والطعام والشراب، مع الفارغ من الكلام والمبتدع من الطقوس.

أو يتخذون من يوم مولده مناسبة لحديث في غير محله عن لين الرسول ﷺ، ونحن في سياق فتن لا يصح معها الحديث إلا عن شدته على الظالمين المعتدين والمنافقين الماكرين، وحديث في غير محله عن عفو الرسول ﷺ، ونحن في سياق جرائم لا يصح معها الحديث إلا عن عقابه للمجرمين وغضبه على من يشفع في حدود الله، وحديث في غير محله عن سلام الرسول ﷺ، ونحن في سياق حرب ضروس لا يصح فيها الحديث إلا عن رد الاعتداء ودفع الصائليين الباغين، وحديث في غير محله عن تعايش الرسول ﷺ وحوار الأديان، ونحن في سياق لا يصح فيه الحديث إلا عن قتاله ﷺ الذين يقاتلون أمته يريدون أن يبيدوها من الوجود.

وإنه في ظروف الحرب الشاملة التي تشنها ملل الكفر اليوم على ملة الإسلام، والتي يأتي على رأسها الحرب على أهل الدين والرباط والكرامة والشرف والعزة في فلسطين، وفي ظروف اقتحام اليهود للمسجد الأقصى المبارك يوماً بعد يوم، وحديث دولتهم الفاشية على إقامة معبد على "أجزاء من المسجد الأقصى" والخطة الحقيقية أنه على "أنقاض المسجد الأقصى" المبارك، في ظل هذه الظروف لا يصح إلا أن نفهم رحمة الرسول ﷺ في سياق جهاده للباطل وإقامته للحق، وأن نوعي أمتنا بمقصد وجودها شهيدة على الناس والرسول ﷺ عليها شهيداً، وأن نذكرها بأن تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام كان إيذاناً باستلام أمة محمد ﷺ لراية التوحيد من بعد أن انحرف أهل الكتاب عنها، وأمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من بعد أن أصبحوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ومسؤولية عمارة المسجد الأقصى الذي كان مسجداً في عصور كل الأنبياء وسيظل مسجداً إن شاء الله تعالى: (سبحان

الذي أسرى بعبدته ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله - الإسراء ١)، أولى القبلتين وثالث المساجد التي تشد إليها الرحال بعد الحرمين الشريفين، الذي يريد أعداء الأمة هدمه اليوم بتواطئ تاريخي من قادة جيوشها وقراصنة أموالها وسحرة إعلامها.

يا شباب أمة محمد ﷺ. احتفلوا هذا العام بالرسول المجاهد الشهيد، المجاهد الذي أمره ربه تعالى فقال: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم وماؤاهم جهنم وبئس المصير - الممتحنة ٩)، واحتفلوا بالرسول الشهيد الذي قال تعالى عن أمته: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا - البقرة ١٤٣).

تفكيك منظومات الاستبداد (٣٩): حكم الافتئات على الدولة بالقتال

أثارت العملية التي قام بها الشهيد ماهر الجازي الحويطات -رحمه الله وتقبله شهيداً عنده- سؤالاً فقهياً وقانونياً يتعلق بالافتئات على السلطة بالقتال، والتي يقتضي "تفكيك منظومات الاستبداد" الإجابة عليه، ألا وهو: ما حكم أن يخرج مسلم تحت حكم دولة معينة على نظام الدولة أو قانونها فيرتكب أعمالاً -كالقتل- هي من صلاحيات الدولة لا من صلاحيات أحاد الناس؟

للإجابة على هذا السؤال شقان: الشق الأول يتعلق بماهية العمل الذي يرتكبه ذلك المسلم: هل هو عمل مشروع أم غير مشروع في أصله؟ والشق الثاني يتعلق بالدولة نفسها: هل هي شرعية يجب احترام سلطانها أم هي غير شرعية من أصلها؟

أولاً، هناك فرق بين قانونية العمل ومشروعيته، ففي النظم القانونية المعاصرة -في بلاد أغلبية المسلمين أو الأقليات على حد سواء-، قد يكون العمل قانونياً ولكنه غير مشروع، أي حرام في شريعة الله تعالى، كشرب الخمر أو الزنا أو الربا مثلاً، وقد يكون العمل مشروعاً ولكنه غير قانوني، كتطبيق حدود العقوبات الجنائية الشرعية التي لا يطبقها القانون، أو الجهاد المشروع في سبيل الله رغم وجود معاهدات أو قوانين محلية أو دولية تمنع ذلك.

ومعيار "مشروعية" العمل من عدمه في التصور الإسلامي السليم ليس القانون، بل هو الشريعة، فإذا توافقت مواد القانون وحيثياته مع أحكام الشريعة وضوابطها فعلى المسلم احترامه، إذ أن المسلم الصالح مواطن صالح وحريص على النظام العام، سواء في بلاد الأغلبية المسلمة حيث ينص الدستور على مصدرية الشريعة للقوانين، أو حتى في بلاد الأقليات حيث ينص الدستور على علمانية الدولة أو أولوية أي دين آخر. في هذه الحالة لا يجوز للمسلم أن يفتئت على سلطة الدولة فيطبق القانون بيديه، بل عليه أن يخول هذا للسلطات المعنية، ويعتبر افتئاته معصية شرعية قبل أن تكون جريمة قانونية.

أما إذا كان القانون أو المعاهدة أو الميثاق -محلياً كان أو دولياً- في تناقض مع أحكام الشريعة، فليس له اعتبار، أي أنه لا يآثم المسلم شرعاً إذا خالف قانوناً أو معاهدة هي نفسها مخالفة لشرع الله تعالى، بل يجب على المسلم حينئذ أن يخالف هذا القانون ولا يطبقه إذا طوبى بتطبيقه، والقاعدة المعروفة من حديث النبي ﷺ: (لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف) - وهو من حديث الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه الذي رواه البخاري ٧٢٥٧ ومسلم ١٨٤٠.

وتطبيقاً لهذه المبادئ، فقد أباح الشريعة أن يقتل أحاد المسلمين صاحب دم مهدور -كالكافر المحارب- افتئاتاً على الدولة، والقاتل في هذه الحالة لا يحاسب بجريمة قتل بل بجريمة "الافتئات على السلطة"، أي تجاوز سلطات الدولة بالتعدي على صلاحياتها الحصرية، هذا إذا كانت الدولة والسلطة شرعية من أصلها!

وأحب أن أنقل هنا من كلام الأستاذ عبد القادر عودة -تقبله الله عنده في الشهداء- في موسوعته الفقهية القانونية "التشريع الجنائي الإسلامي"، إذ كتب عن قتل أحاد الناس لمهدور الدم، يقول: "يترتب على زوال العصمة أن يصبح الشخص مهدر الدم، أي مباح القتل، فإذا قتله آخر لا يعتبر قاتلاً لأن قتل المهدر لا يعتبر جريمة من حيث فعل القتل، إذ الفعل مباح، ولكن لما كان قتل المهديين من شئون السلطات العامة وموكولاً إليها فإن قتل الأفراد لهم يعتبر اعتداء على السلطات العامة ومن ثم يعاب قاتل المهدر باعتباره

مرتكباً لجريمة الافتيات على السلطات العامة لا باعتباره قاتلاً. وهذا هو الراجح فى المذاهب الأربعة" (التشريع الجنائى الإسلامى، مبحث القتل العمد، ٢/١٦).

ولكن هذا الحكم يسرى إذا كانت تلك "السلطات العامة" شرعية من أصلها، والشرعية-أى السياسية- فى شريعة الإسلام لا تقوم بـ "التغلب" فحسب، أى بقهر الناس بالحديد والنار-قهر كسرى وقيصر- على حكومة ما، لأن ذلك التغلب على السلطة بالقهر لا يقيم شرعية سياسية فى الإسلام ولو رضخ له الناس كرهاً، وإنما تتحقق الشرعية السياسية برضا الاتجاه العام من المحكومين بالنظام الذى يحكمهم، ويقبلون بوجه عام الحكام الذين يترأسون ذلك النظام، أياً كان نوع الحكومة، وتتحقق بأن يكون ذلك النظام بسلطاته التنفيذية والتشريعية والقضائية ملتزماً-فى اتجاهه العام أيضاً- بالمعايير الشرعية فى سن القوانين وصنع السياسات والحكم بين الناس. فإذا لم يكن النظام شرعياً أصلاً لم يتحقق الافتئات أصلاً.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٠): فليتعاون عقلاء الأمة ضد عدو الأمة المشترك

يا أهل القبلة من المؤمنين بالله تعالى رباً ومحمد ﷺ نبياً وبالقرآن وحياً أوتيه، ألا يسعنا في مواجهة الحرب الضروس على أمتنا الإسلامية من أباطرة الكفر المعاصر -ومن لا يرى الواقع هكذا فليراجع فهمه إن كان طالباً للحق-، ألا يسعنا أن نتنادى إلى موقف سياسي وعسكري واقتصادي وإعلامي موحد كحد أدنى نتفق عليه لكي نحمي نفوس الناس ومقدسات الأمة في قلب أرضها؟ والحديث هنا هو عن أعضاء الأمة الإسلامية كلها -ومن هم في حماها من غير المسلمين- لا عن حماية نظام من النظم التي تسمى اليوم بالدول الإسلامية، بل إن من قيادات تلك الدول من كشف عن ملته الحقيقية ويحارب اليوم فعلياً مع الأعداء. هلا وضعنا كل من ينصر الأمة من المسلمين بل ومن غير المسلمين -والمعيار الكاشف هو فلسطين- في جانب، والأعداء المحاربين والمنافقين -ولو كانوا من حاملي الأسماء المسلمة- الذين يحاربون معهم فعلياً في جانب آخر؟ هلا تمايزت الصفوف بين "مع" و "ضد" حتى تستقيم هذه الحرب كما تستقيم كل حرب، بل كما يفعل الأعداء أنفسهم اليوم ولا نفعل؟

هلا طرحنا جانباً ترهات "المؤثرين" على مواقع التواصل الاجتماعي، ومواقفهم غير المدروسة واقتطافاتهم الشاذة لوصف تلك الفئة أو ذاك الشخص من أجل جمع المال من أعداد "المعجبين"، وهلا تنبهنا للخطط الطاغوتية الخبيثة المعقدة التي تنخر في نسيج الأمة بألف مؤامرة ولو تعارضت المؤامرات، وهلا وضعنا في سياقها الصحيح المعارك التاريخية لأمم قد خلت عاشت في كوكب مختلف وسياق واقعي لا نعرف نحن أغلب تفاصيله، وهلا تريتنا مع تصنيفات لفرق إسلامية لم تعد تمثل واقعاً حقيقياً علي المستوى الفكري أو العملي، وأدركنا أن الواقع أكثر تركيباً وتشابكاً ويتطلب فهمه تصنيفات جديدة، كما يدرك أهل البحث والفكر على أي حال؟

هلا عدنا إلى التعريف الأصيل لفئة عرفها علماء الإسلام على مدار تاريخ طويل، وهي فئة "أهل القبلة"، والتي وسعت في الماضي: الجماعة بألوانها، وشيعة أهل البيت بألوانهم، والخوارج، والمعتزلة، وكافة المذاهب الكلامية والفقهية والسياسية، مقاتلين وغير مقاتلين، مبتدعين أصليين ومتأولين فيصبيون ويخطؤون، إلى آخره؟ هلا تغاضينا عن "البدع" التي يراها كل فريق في ممارسات الفرق الأخرى واتفقنا على الإيمان بالقرآن الكريم -ليس لأحد من فرق الإسلام قرآن غيره- والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام -ولو اختلفنا الآن في مصادرها ورواتها بين مخطئ ومصيب-؟ صحيح أن هناك صواباً وخطأً في هذه المسائل كليهما وجزئياً، وهناك بدع تُخرج المسلم عن دائرة الإيمان، وهناك بدع أصغر، إلى آخره، ولكن هذه ليست قضيتنا الآن وكلنا يُطلق عليه أفتك الأسلحة ليُقتل! ألا نؤجل هذه السجلات الآن وقد بلغت مدة الحرب الإبادية على أمة الإسلام عامًا كاملاً؟ الأعداء يريدون استئصال كل المسلمين -ولو قتلوا مئات الملايين وفعلوها سابقاً في الأمريكتين وأفريقيا وغيرها- إلا من يسجد لهم ويركع ويتبع ملتهم، أو يُقتل! ألا نستطيع أن نحتمل الذين نظن فيهم التعامل بوجهين -إن صحت الاتهامات على أي حال- كما احتمل رسول الله ﷺ منافقين نفاقاً أكبر ضمن جيوشه عسى أن ينصلح حالهم؟ ألا نستطيع أن نحتمل أصحاب البدع -إن صحت الاتهامات على أي حال- من أجل مصالح أعلى كما قبل صلاح الدين الأيوبي -مثلاً- أن يكون وزيراً للملك الفاطمي المسمى بـ "العاضد لدين الله" على ضلاله وطغيانه، ثم وجه صلاح الدين

الخطاب الإسلامي حصرياً إلى المعركة المصيرية في فلسطين آنذاك، حتى استطاع بعد أن تمايزت الصفوف في المعركة أن يتمايز الصف المسلم داخلياً ويضبط البوصلة بدقة في الوقت والزمان المناسبين؟ أما ما كان من جرائم سابقة من دولة -أو جماعة تابعة لدولة- فليس هناك دولة إسلامية حالية -اللهم إلا دويلات محدودة التأثير-، ليس هناك دولة إسلامية حالية سلمت من دماء المسلمين وأعراضهم بغير حق ظمناً وعدواناً وقتلاً يقتضي القصاص، سواء قتلت من رعاياها أو من غير رعاياها من المسلمين -ليس هناك فرق بين "الجنسيات" في حرمة الدماء-، ولو أردنا الحصر لنكأننا جروحاً لا تقتصر على العشرية الفائتة منذ الثورات العربية فحسب، بل تمتد من نفس الدول "الإسلامية" المعاصرة على مدار القرن الماضي كله، ولذكرنا هنا قائمة بأسماء كل دول "منظمة التعاون الإسلامي" لا نستثنى منها أحداً تقريباً. والقتل في شريعة الله لا يسقط بالتقادم: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً - النساء ٩٣)، ولا يعفي من مسؤولية دم بريئ واحد وقوع القتل في وقت حرب أو فتنة أو ثورة أو غيرها. حرمة الدماء مطلقة في الإسلام.

ولكن أمام هجوم الأعداء الكاسح على أمة الإسلام لاستئصال بيضتها حرفياً، لا يجوز أن يتحاسب العقلاء على الدماء اليوم ويتركوا العدو المشترك ليفتك بالجميع. أي عقل أن يفرح امرؤ بقتل قيادات للمقاومة إذا كانت تلك القيادات تقاتل الأعداء اليوم أياً كانت نياتها، ولو كانوا كفاراً صرحاء يعبدون الأصنام، فضلاً عن أهل القبلة من المسلمين الذين يتورطون في معادلات القتال فيصيبون ويخطئون، ولو كانت الأخطاء كبيرة؟ وكيف إذا كان ذلك المقاوم إذا قُتل في المعركة أتى دور الفرح الغافل تالياً؟! بأي عقل يحكم هؤلاء وبأي فقه، اللهم إن كانوا كارهين للإسلام الحركي المجاهد -وما أكثرهم في صفوف "المؤثرين" اليوم- ويخفون نياتهم وتوجيهات الحكومات العميلة لهم وراء تلك الأقنعة الزائفة من حب العدالة وطلب القصاص؟ يا أهل القبلة، لا يسعنا في هذه المواجهة التاريخية إلا أن نعرض عن أي خلاف بين أو مع تلك الحكومات والجماعات والفرق والشخصيات الإسلامية كلها، وأن نؤيد أي دولة أو جيش أو فصيل أو جماعة أو فرقة أو شخصية مسلمة مقاتلة أياً ما تكون، بل ونصطف مع غير المسلم الحر الذي ينطلق من منطلقات إنسانية إذا جاهد معنا وناصرنا. فليتعاون عقلاء الأمة ضد عدو الأمة المشترك! ليس هناك عقل ولا فقه وراء ذلك. الله المستعان.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤١): عوائق في طريق الدعوة إلى الجهاد

دعا المجاهدون الأبطال تيجان الرؤوس وعز الأمة في غزة العزة علماء الإسلام إلى أن يتجاوز حديثهم عن الجهاد ما سموه: "التضامن القلبي واللفظي الخجول"، ودعوا علماء الأمة: "لتبيان حقيقة الصراع، وبيان شرعية وقدسية معركتنا وفريضة الجهاد للدفاع عن أقصانا وأرضنا المقدسة، بعيداً عن الخطابات الطائفية التي تفرق الأمة"، وهذه دعوة يحتاجها فعلاً قسم من العلماء الذين لم يتعدى خطابهم "التضامن القلبي واللفظي الخجول" أو الذين يشغلون شباب الأمة بمعارك جانبية تضر ولا تنفع، وتفرق الأمة في وقت تحتاج فيه إلى التعاون حتى مع غير المسلم المساند، فضلاً عن المسلم المجاهد من أهل القبلة والملة. وأما علماء الأمة العاملين المخلصين -من كل بلاد الدنيا- فقد قالوا وكتبوا في شتى الصور عن فرضية الجهاد في فلسطين -وفي كل أرض يغزوها أعداء المسلمين اليوم-، ولم يكتفوا أن الجهاد مفروض على الحكومات الإسلامية التي تتحمل المسؤولية الأولى في الذود عن بيضة الإسلام وعن نفوس المسلمين، وأن الجهاد في هذا السياق مفروض أيضاً على كل قادر من الأفراد بغض النظر عن التقسيمات الوطنية المستحدثة بين الشعوب، وبغض النظر عن نوع الجهاد الذي يمكن أن يقدمه المسلم كل حسب قدرته. صحيح أن هذه الدعوات لم تكن كافية لتغيير واقعنا الجهادي، ولم تؤثر كما أثرت دعوات علماء الأمة للجهاد التي نقرأ عنها في تاريخ أمتنا المجيد. ويأتي على رأس أسباب ذلك ثلاثة عوائق في طريق الدعوة إلى الجهاد، هي جزء من واقع أمتنا، ومطلوب من العلماء العاملين المخلصين والحركات والمؤسسات الإسلامية -والدول إن شاء حكامها- العمل على تجاوزها، والتي يمكن أن نشير إليها بما يسمح به المقام بما يلي: أولاً: الطغيان السياسي: النخب السياسية المسلمة النافذة اليوم في البلاد الإسلامية في كل العالم الإسلامي من غرب إفريقيا إلى شرق آسيا -إلا حالات قليلة-، وخاصة في الدول العربية المحيطة بفلسطين، لا يهتمها ما يسمونه بـ "القضية الفلسطينية" بقدر ما تهمها كراسيها ومصالحها والملأ الداعم لها، والشعب الغافل الذي يحسن الظن بها، بل وتعتبر تلك النخب من يسمونهم بـ "الإسلاميين" عقبة العقبات في طريق استقرار حكمهم وتوريثه لأولادهم أو جماعات المصالح التي يمثلونها في الحكم، سواء لشعبية الأحزاب والشخصيات الإسلامية وخطرها في المنافسة على الحكم، أو لخطورة المجاهدين في أرض الرباط على المنافع السياسية والاقتصادية التي يحصلون عليها -بشكل مباشر أو غير مباشر- من التعامل مع الكيان الغاصب. وهم إذن لا يسمحون بأي تأييد للجهاد في أرض الرباط، فضلاً عن الدعوة إليه وحشد الناس له، بل وأصبحوا أخيراً لا يسمحون للعلماء العاملين بالتعرض للشأن العام أصلاً، ويضربون بيد من حديد على من يخالفهم في ذلك، وهم قد استعدوا لتلك الحرب -التي كانوا يعرفون أنها آتية- على مدار العقد الماضي، فوضعوا صفوة علماء الأمة من كل الاتجاهات وراء القضبان، مع إعاقة وقتل بطيء ممنهج ومتعمد مع سبق الإصرار لهم، وجيشوا الجيوش من الشرطة المحلية والمراقبة الإلكترونية التي تحول دون أن تتحول الدعوات الرمزية التي يطلقها العلماء -البعيدون عن قبضتهم- إلى فرص للحشد الجماهيري للجهاد أو التطوع له، وسمحوا لبعض الناس في قليل من البلدان -في مجال ضيق- بالنظاهر "السلمي" تنفيساً عن غضبهم ليس إلا، ودون أي مردود على الواقع التطبيعي، أي الاستسلامي النفاقي بتعبير أدق.

والنتيجة أن الخيار الوحيد المنطقي لتجاوز تلك العقبة هي دعوة العلماء الناس إلى الخروج على تلك الحكومات وإسقاط شرعيتها، وقد قام بذلك البعض دون نجاح، فهذا لم يعد مطلباً مقبولاً للجماهير نظراً

لويولات التي عانوا منها خلال العقد الفائت، ومئات الألوف من الأبرياء الذين عذبتهم تلك السلطات بشتى أنواع العذاب خلال نفس العقد، ومثلهم الذين قتلتهم نفس تلك الأنظمة بدم بارد بتهم مفتراة كالإرهاب ومخالفة ولي الأمر والخروج على الحاكم الشرعي، وبالتجويج المنهج ونقص الدواء والإفقار العام، ثم المخدرات و"الترفيه" والإعلام المسموم، حتى يتلهى الناس عن قضايا الأمة ونصرة الحق، فضلاً عن الملايين الذين هُجروا من شتى بلاد المسلمين إلى شتى بلاد الدنيا فراراً بدينهم ونفوسهم، وهؤلاء غالباً ما يفقدون القدرة والرؤية التي تمكنهم من مواصلة مسيرة التغيير على مستوى الأمة.

وهذه الحكومات "الإسلامية" لو توحدت على كلمة سواء لصالح الإسلام لهزموا الإمبراطورية العنصرية المعاصرة وبلطجيتها في الكيان الصهيوني هزيمة ساحقة وسريعة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، فهم يملكون -بمجموعهم- قدرًا كبيرًا من ثروات العالم الطبيعية والبشرية بل والنقدية ولو حسبناها بالدولار، ويملكون -بمجموعهم- قدرًا لا يُغلب من السلاح بدءًا من المسيّرات والصواريخ وانتهاءً بالقوة النووية، فضلاً عن عدد الجنود الهائل الذي يصل إلى الملايين في بعض الجيوش المسلمة، ولكن الأعداء اشتغلوا على مدار القرن الماضي لتفريق حكوماتهم ولصنع ذلك الفراغ القيادي الهائل في الأمة، وصدقت غولدا مائير رئيسة وزراء الكيان الغاصب -وهي كذوية- حين كتبت في مذكراتها التي نُشرت قبل نصف قرن تقول: "سيفاجأ العرب ذات يوم أننا أوصلنا أبناء إسرائيل إلى حكم بلادهم". ولكن على أي حال، فالتغيير قادم لا محالة، والأيام دول، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثانياً، عدم امتلاك المسلمين لوسائل تواصلهم: لطالما دعا من لهم دراية بالأمور التقنية من العلماء -وما زالوا يدعون- إلى أن امتلاك الأمة لوسائل اتصال خاصة بها من فروض الكفاية، وقد حاولت بعض الشركات والدول الإسلامية خلال العقدين الماضيين في هذا المضمار ولكنها لم تصمد أمام ضغوط الأعداء ولم تدعمها حكومات المنافقين، ولكن عدم امتلاكنا لهذه المنظومات لا يبرر لنا الاكتفاء بالكلام الخجول عن الجهاد، بل يجب العمل من خلال المساحات التي تسمح بها التناقضات الداخلية في المنظومات الحالية، بدءاً من تناقض المصالح التجارية لشركات الاتصالات المعولة مع الخطوط الحمر التي تفرضها كل شركة حسب سياساتها، وانتهاءً بتناقضات تلك الشركات مع بعضها في خضم تنافسها التجاري والمعلوماتي الاحتكاري.

وهذه التناقضات مفيدة وينبغي استثمارها، وهي التي مكّنت القارئ الكريم -كمثال- من قراءة هذا المقال الآن على شاشات حواسيب لم يصنعها المسلمون غالباً، بل صنعتها غالباً شركات معادية للمكتوب عليه، ومن خلال تطبيقات وبرمجيات شركات معولة محتكرة لشبكة المعلومات معادية في غالبها كذلك، وعن طريق الحاسبات المركزية في عقد التواصل الشبكي التي لا يملكها المسلمون، وخطوط اتصال وأقمار صناعية، إلى آخرها، وكلها لا يملك منها المسلمون إلا قليلاً، اللهم إلا أنصبه من رؤوس الأموال يدفعها بعض أصحاب الأموال من المسلمين، دون أن يكون لهم نصيب كبير في قراراتها السياسية والأمنية، فضلاً عن أن يملك أهل الجهاد من ذلك شيئاً.

وهذه إشكالية حقيقية نظراً لأن الجهاد المعاصر يحتاج إلى اتصال وإعلام مستقل عن الأعداء، وهو ما نجح فيه المجاهدون في غزة بعنقرية وإنجاز تاريخي، ولكن الجيوش المسلمة وكثير من الجماعات الإسلامية الأخرى مخترقة في جانب الاتصال، مما يعرضها لخطر داهم إذا حاولت أن تجاهد أعداءها بجدية، والإعلام المسلم -غير النفاقي- يؤدي دوراً لا غنى عنه ولكن يعيبه الالتزام بخطوط حمر محلية ودولية لا تسمح بدعوات الجهاد والحشد له على قنواته، فوجب إذن على من يستطيعون خوض هذا المجال أن

يستثمروا التناقضات والثغرات الموجودة داخل المنظومة العالمية الاتصالية والإعلامية المعاصرة وإتاحة طرق اتصال لضمان نجاح المجاهدين في التنسيق والتشديد.

ثالثاً، الضعف في فقه السياسة الشرعية: كم هو بعيد عن جادة الطريق ذلك الفقه للسياسة الشرعية الذي لا يضع الجهاد كأولوية شرعية فوق كل أولوية في هذه المرحلة، أو ينشغل ويشغل الناس بقضايا فرعية لا تعلق لها بحال الأمة وواجبات الوقت، أو يعتبر المجاهدين خوارج عن طاعة أولياء الأمور، الذين هم جميعهم بلا استثناء مقصرون في حق الجهاد المفروض، أو يفرق بين أهل القبلة بناء على أطروحات السفهاء والطغاة من هذا الفريق أو ذاك، بدلاً من أن يوحدتهم تحت راية الجهاد في الحرب الجارية على أشدها، أو يقدر أن معارضة الحكام المسلمين المتخاذلين ولو بالتوبيخ العلني ليست هي الخيار الشرعي الأمثل، رغم أنهم يخونون قضية الأقصى وسائر قضايا الأمة عياناً بياناً، ويبيعون دماء المسلمين لمن يدفع أكثر، وتظهر عليهم علامات النفاق كلها بلا ريب، أو لا يستوعب أن تقسيمات المسلمين الإدارية الحالية إن جازت من باب تنظيم مصالحهم مؤقتاً فإنها لا تجوز بحال وتصبح بدعة مقيتة إن كانت حصيلتها هي إثارة نغرات الجاهلية بينهم، وكسر شوكتهم، وإضعافهم أمام أعدائهم، وهو الحاصل اليوم، ودوائر العلماء فيها بلاء كبير من هذه الآراء المنحرفة.

ولكن، رغم العقبات المذكورة فإن الأمل في الله كبير عريض، والنصر قريب إن شاء الله وقادم لا محالة بمجرد أن يتأهل المؤمنون لتحقيق سننه المطردة التي لا تبديل لها ولا تحويل، وقد بدأ بعض ذلك في التحقق، والدعوات الصادقات للجهاد التي يطلقها المخلصون تبلغ أهلها على أي حال، فيستجيبون لها ويجدون الحيل التي يتغلبون بها على العوائق، ثم إن من قُتل من أهل الجهاد -أو الذين يدعون إلى مساندتهم- شهداء كرام، أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم .. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٢): ألا إن نصر الله قريب

كان النبي ﷺ كثيراً ما يكتفي بقراءة القرآن مجرداً عن الحديث البشري، أو ينيب عنه من يقرأ على الناس من آيات الله تعالى دون تعليق، وهذه سنة نبوية عظيمة حري بالمؤمنين الذين يتصدون للدعوة إلى الله ولقيادة الأمة على كافة المستويات أن يطبقوها في خطابهم الدعوي والتوعوي، حسب المقام.

وقد تلا النبي ﷺ على وفد نجران ثمانين آية من سورة آل عمران - كما روى أصحاب السير -، إلى أن وصل إلى قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين - آل عمران ٨١)، وقد روى عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلاً فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة [يعني سورة الصف] كلها. وروت أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها قالت: ما أخذت (ق) والقرآن المجيد [أي: ما حفظت سورة ق] إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ ب: {براءة} [أي سورة التوبة] مع أبي بكر [رضي الله عنه أي وهو أمير على الحج بعد غزوة حنين]، ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي، فدعا علياً [أي بن أبي طالب رضي الله عنه]، فأعطاه إيها [أي ليتها على الناس]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حين أرسلت قريش عتبة ليفاض النبي ﷺ وقال له ما قال، قال له رسول الله ﷺ: أفرغت؟ قال: نعم، قال: فقرأ رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم (حم) تنزيل من الرحمن الرحيم) حتى بلغ: (فإن عرضوا فقل أنذرنا صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) [أي سورة فصلت: ١ - ١٣]، فقال عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: لا.

فلنطبق هذه السنة النبوية العظيمة في ظل هذا الحدث الجلل اليوم، ألا وهو استشهاد القائد المجاهد الكبير / يحيى السنوار أبو إبراهيم، تقبل الله جهده وجهاده ورفع مقامه. فلنقرأ ونتدبر أواخر سورة آل عمران، فما أوجنا في يومنا هذا لكل كلمة فيها ولمعانيها ومقاصدها. يقول تعالى في محكم كتابه الكريم،

بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، باسم الله الرحمن الرحيم:

((أَوَلَمْ أَصْبِحْكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (165) وَمَا أَصْبَحْكُمْ يَوْمَ الَّتَقَى الِجْمَعَانَ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175) وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ (176) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَصْرِوْا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (177) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (178) مَا كَانَ اللَّهُ لِيُنزِلَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَمَا تُلَاقُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَإِن تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلَ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (182) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ الْأَنْبَارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلَمَّ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْأَلْمِينِ (184) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ غَرُورٌ (185) لَتَبْلُوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عِزِّ الْأُمُورِ (186) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (187) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاوَا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِيَ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا لِأَكْفَرَن عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّت تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195) لَا يَغْرَنكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَدِ (196) مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) لَكِنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّت تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِزْلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (199) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200) ((— صدق الله العظيم

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٢): الفعل بعدم الفعل واستغلال الشعوب

تتفق كتب علم السياسات جميعاً على أن القرار السياسي هو: (الفعل أو عدم الفعل من قبل الحكومة الذي يستهدف أثراً في الواقع). فالقرار السياسي نوعان: النوع الأول هو الفعل، والنوع الثاني هو عدم الفعل، والذي هو قرار يعتبر في حد ذاته نوعاً من الفعل. لماذا؟ لأن الحكومة في الدولة المعاصرة -أي حكومة وأمام أي قضية- تملك أدوات لا حصر لها وإمكانات مؤثرة للفعل، فإذا قررت الحكومة أن لا تفعل شيئاً تجاه أي قضية عامة، فهذا في حد ذاته فعل وله أثر مباشر على الواقع.

هذا النوع من الفعل عن طريق عدم الفعل ينطبق على المهزلة أو الملهاة التي رأيناها أمام أعيننا في ما سمي بالقمة العربية الإسلامية، وهي التي تحدث فيها المتحدثون كما اشتبهوا فقالوا كلاماً كثيراً طويلاً عريضاً دون أن يفعلوا شيئاً. هذا التصرف في علوم السياسات -وعند العقلاء- هو في حقهم فعل سياساتي كبير للغاية وله أثر خطير على واقع أمتنا، خاصة على المرابطين الصامدين في فلسطين! وكنت قد نشرت (مقالة رأي) في هذه السلسلة في اليوم السابع والعشرين من شهر أكتوبر ٢٠٢٣م -أي بعد عشرين يوماً من بدء الحرب على غزة-، كان عنوانها: (إما اعتدلت وإما اعتزلت)، كتبت فيها أقول: ((لا بديل اليوم عن أفعال لا تملكها إلا الحكومات في الدول الوطنية الحديثة، والحديث تحديداً هو عن أمرين: ١ - العقوبات الاقتصادية و ٢ - الفعل العسكري، ولا بد أن تنهر الأمة بكل شعوبها حكامها في الدول المختلفة عن مجرد الكلام السياسي والخطاب الذي يناسب التظاهرات والاحتجاجات المدنية! غير مقبول أن يخرج حكام المسلمين فيغردوا على منصة إكس أو يهتفوا على اليوتيوب أو يتظاهروا أمام السفارات أو يقفوا وقفة جماعية في الأمم المتحدة أو يعلقوا الشارات ويلبسوا الكوفيات ويرفعوا الأعلام كما يفعل المدنيون! ما هذا؟

الحكام يا سادة ليسوا مواطنين مدنيين عاديين. الحكام في الدول الحديثة -أيها الشباب الواعي من أمتنا المجيدة- دورهم أن يملكو مفاتيح الاقتصاد (اتفاقات التجارة، والمواد الخام من غاز وبتروول ومعادن، وأموال البنوك، والموارد البشرية، إلى آخرها) وأن يملكو القرار العسكري والأمني (بما فيه الأمن المعلوماتي والغذائي والبيئي والمائي، إلى آخرها). الحكام يا سادة -واختلاف أشكال الحكومات وأنواعها من ملكيات وجمهوريات لا يهم- هم المفوضون من شعوبهم ومن الأمة عموماً بإدارة هذه الملفات نيابة عن الناس وليس افتتاتاً عليهم ولا جبراً لهم. لا بد أن نوجه كشعوب إسلامية رسالة "إما اعتدلت وإما اعتزلت" لحكام المسلمين، أي أرونا ماذا فعلتم بمقدراتنا الاقتصادية والعسكرية نيابة عنا في معركتنا المصيرية الجارية؟))

ووصولاً لهذا الكلام بعد أكثر من عام على كتابته أقول:

حكام الدولة الوطنية الحديثة -أي دولة وطنية حديثة فضلاً عن الدول التي تعتبر نفسها (إسلامية)- ليسوا مثل بقية المواطنين الذين يجوز في حقهم أن يتكلموا ويستنكروا ويشجبوا ويحتجوا ويشتكوا ويتظاهروا! لأن أصحاب القرار السياساتي إن فعلوا ذلك دون قرار بفعل أحد الأفعال المنوطة بالدول، فهو مجرد كلام سياسي يراد به استغلال للبسطاء من شعوب أمتنا، وهو في عالم المآلات الواقعية عون صريح ومباشر للأعداء الذين يتكلمون ضدهم ذاك الكلام الساكت الفارغ، بل الأولى هو ترك الكلام أصلاً حتى لا يؤدي إلى تفريغ لبعض شحنات الغضب عند الغاضبين، وتحفيز لنزعات العصبية عن المتعصبين، فيزداد الوضع سوءاً والطين بلة. ليس لها من دون الله كاشفة. الله المستعان.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٣): فلنستبشر بانتصارات كبرى لصالح الحق

قضت سنة الله تعالى في خلقه أنه كلما كان ابتلاء أهل الإيمان والحق كبيراً والمصاب جلاً والتمن عالياً كلما كان النصر كبيراً وحاسماً وتاريخياً، فلنستبشر خيراً رغم صعوبة المنعطف الذي تمر بها أمتنا في هذه الأيام، التي وددنا لو لم نشهدها في حياتنا، ولكننا نعلم يقيناً أن من قضوا شهداء فهم أحياء عند ربهم يرزقون، ومن جاهدوا وصبروا ولم تُكتب لهم الشهادة فقد فازوا بشرف الدنيا قبل ثواب الآخرة، ومن قَصَّروا أو تخاذلوا فلا يلومُنُّ إلا أنفسهم. عفا الله عنا وجبر خواطرننا وألحقنا بالصالحين المجاهدين ولو لم نكن منهم.

ما أصعب هذه الأيام على كل مؤمن، أيام تضرب فيها الإمبراطورية العنصرية دون وازع ولا رادع، تضرب لتقتل -عن وعي وإدراك وتخطيط- مئات الألوف من أشرف وأنبل وأجمل وأفضل من ينتمي إلى أمتنا في أرض الرباط وما حولها، وتتخن فينا بيدين كلتاها ملونة بدمائنا: يد البلاطجة المستأجرين في دولة الكيان، الذين يباشرون القتل بما يزودهم به أباطرة العصر من متفجرات وآليات وجنود ومعلومات، واليد الأخرى يد المنافقين من قادة حكومات وجيوش واقتصادات وتعليم وإعلام العالم الإسلامي، الذين يمارسون -عن وعي وإدراك وتخطيط- الترياق والتضليل والتخدير لأمتنا الجريحة، ويشوهون معالم دينها وشرعها، ويتعمدون إهانة مقدساتها، ويتاجرون مع الأعداء في دماء وأعراض وحرقات شرفائها وعلمائها وروادها وأطهر شبابها، من أجل دنياهم الزائفة الزائلة، وهؤلاء بدونهم ما كانت اليد الأولى ولا الرأس المدبرة لتتقترف ما اقترفت، فجريمة المنافقين أكبر ولذلك كانت عقوبتهم عند الله أشد: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً - النساء ١٤٥)، وعند الله تجتمع الخصوم.

ولكن الله تعالى بحكمته البالغة قضى أن يدفع ويدافع عن الذين آمنوا: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور - الحج ٣٨)، ومن دفاع الله تعالى عن الذين آمنوا إذنه لأهل القتال بالقتال لدفع الظلم: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير - الحج ٣٩)، وعلامة الظلم التي تستوجب الإذن بالقتال في كل عصر هي الإخراج من الديار: (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله - الحج ٤٠)، وهنا لابد من الوعي بأن ذلك القتال هو لخير البشرية جمعاء وليس لعودة أصحاب الديار إلى ديارهم فحسب: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا - الحج ٤٠)، وسنة التدافع المذكورة تتصل بسنة النصر وخلاصتها قوله تعالى بعد ذلك: (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز - الحج ٤٠)، أي أن الذين ينصرون الله مخلصين صادقين -ونحسبهم كذلك- سينصرهم الله، حتماً مقضياً لا محالة ولا مناص، ولو بعد حين، ولذلك وعدهم الله بعدها -أو بالأحرى وعد الذين لم يستشهدوا منهم في الطريق- التمكين في الأرض، فقال: (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور - الحج ٤١).

وأما الذين يكذبون بالدين عموماً وبتلك البشريات السننية خصوصاً فقد قال تعالى عنهم بعدها مخاطباً نبيه ﷺ: (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود. وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير. فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد - الحج ٤٢-٤٥)، ولا يبعد على الله أن يهلك القرى الظالمة في عالمنا فتصبح خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد، فكم فعلها في الأمم والقرى لو اعتبر الناس

وتبصروا، ولذلك قال تعالى بعدها: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور - الحج ٤٦).

فيا أهل الإيمان، لا تبتئسوا ولا تيأسوا ولا تشكوا في نصر الله، فالنصر قادم لا محالة، ونظرًا لفداحة الخطب وشدة الزلزال فقد قضى الله في سننه أن يكون نصرًا مؤزرًا عظيمًا تاريخيًا: (لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم - الروم ٤-٥). وهذا النصر المذكور في سورة الروم - بالمناسبة- لم يكن نصر الروم على الفرس فحسب، بل تزامن هذا النصر مع نصر المؤمنين في غزوة بدر، وقد سئل أبو سعيد الخدري رضي الله عن هذه الآية فقال: التقينا مع محمد رسول الله ﷺ ومشركي العرب، والتقت الروم وفارس، فنصرنا الله على مشركي العرب، ونصر الله أهل الكتاب على المجوس، وفرحنا بنصر الله إيانا على المشركين، وفرحنا بنصر الله أهل الكتاب على المجوس، فذلك قوله: (ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله).

واستكمالًا لكلام أبي سعيد رضي الله عنه نقول: توالى الانتصارات فكان نصر المؤمنين في بدر بداية النصر الأكبر للإسلام بعد سنوات معدودة بما فيه النصر على الروم والفرس كليهما، فمئذ أن تحولت موازين القوى بالنصر على المشركين في معركة بدر الكبرى، ظلت دائرة النصر تتوسع إلى أن مكّن الله لأمة الإسلام في الدنيا، حضارة رائدة سادت الدنيا قرونًا، ويدخل هذا النصر الحضاري الأكبر والتمكين التام في المقصود من قوله تعالى بعدها: (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون - الروم ٦-٧).

إذن، الأيام دول ودولة الإسلام قادمة لا محالة، شاء من شاء وأبى من أبى، والحمد لله رب العالمين.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٤): عودة إلى خيار الجهاد على نظم الطغيان

في صيف عام ٢٠١١م ومن أمام "خيمة الثورة السورية" في ميدان التحرير بالقاهرة حاولت الإجابة -على وسائل التواصل الاجتماعي في تلك الأيام- عن سؤال "خيار العنف" في الربيع العربي، وكان سؤالاً قد طُرح بقوة واختلفت فيه الآراء بين مؤيد ومعارض، خاصة مع إجرام النظام السوري آنذاك ودمويته الشيطانية في التعامل مع المتظاهرين السلميين المتحضرين الذين ينادون بأهazيج الحرية والعدل ليس إلا، واليوم بعد ثلاث عشرة سنة نسعد أيما سعادة بالسياسات الحكيمة الحصيصة التي ينتهجها الثوار في سوريا في جهادهم للبعظة المعتدين، وبتحقيقهم على أرض الواقع لأمنيات تمنيناها وكتبنا عنها في الفضاء الأزرق في تلك الأيام كأمنيات وأحلام بعيدة، فإذا بها اليوم واقع معيش. نسال الله العلي العظيم أن لا تخيب آمالنا فيهم وأن يتمم عليهم نصرهم ويوسع به دوائر الإنصاف والتقويم والتغيير إلى الأفضل في كل عالنا العربي والإسلامي والإنساني.

وقد جمعت تلك التغريدات أو الأمنيات منذ أيام الربيع العربي في مقالة قديمة من هذه السلسلة (رقم ٩) كتبت فيها تحت عنوان "خيار الجهاد المسلح وسؤال المآلات" أقول:

"ما نراه من مأساة مفعجة في وحشية نظم الاستبداد في كل بلاد (الربيع العربي) خاصة في سوريا قد تجاوز كل الخطوط الحمراء إنسانياً حتى وصلنا إلى مستوى الكابوس المفزع و تحت سمع وبصر السياسة الدولية اللإنسانية .. فهل لهذه المآلات المفزعة أثر في إجابة سؤالنا حول مشروعية خيار العنف وإعلان الجهاد على نظم الاستبداد؟ ..

أول ملامح الإجابة عن سؤال العنف هو أنها ليست إجابة واحدة بل إجابات تتراوح بين أقصى درجات (نعم) لأقصى درجات (لا) حسب الواقع، ذلك لأن كل مكان له ظروفه وله حساباته وما يصلح فيه قد لا يصلح في كل الأمكنة. ولكن القاسم المشترك بين كل الأمكنة هو أن يكون خيار الجهاد المسلح خيار استراتيجي مدروس ومقدر بقدره وليس رد فعل عفوي أو عشوائي. ردود الفعل العشوائية العنيفة غير المدروسة تضر أكثر من ما تنفع وبالتالي فهي ليست مشروعاً شرعاً ولا عقلاً. ومعنى استراتيجية الخيار الجهادي هو في الإجابة على عدد من الأسئلة الاستكشافية لتعقيد الواقع الذي فيه سياق السؤال وفهم ملبساته بأكبر درجة متاحة من الدقة ..

[أولاً] الأصل أن الجهاد في سبيل الله وفي سبيل نصرة المستضعفين ورفع الظلم عن المظلومين فريضة إسلامية قرآنية أصيلة وثابتة وباقية ولم ولن ينسخها شيء، (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين - النساء ٧٥) .. وهذا الجهاد ليس بالضرورة في معركة بين الكفر والإيمان، بل يمكن أن يكون ضد الطائفة الباغية ولو كانت من المسلمين: (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي - الحجرات ٩). والسؤال هنا إذن ليس عن مشروعية الجهاد، ولكن السؤال هو متى يكون الجهاد مشروعاً مطلوباً ومتى يكون محرماً مذموماً؟ ..

[ثانياً] المجاهدون قبل أن يجاهدوا لابد أن يخلصوا جهادهم لله، ولابد لهم من صياغة متدرجة وأحداث فارقة وتربية عالية حتى لا يختلط الحابل بالنابل ويتحولوا من مجاهدين إلى مرتزقة غاصبين وقتلة سارقين وشياطين بلا رحمة ولا خلق ..

[ثالثاً] الأصل أنه لا يصح شرعاً أن يفتنت الآحاد ولا المجموعات على سلطة الدولة، إلا أن أصل هذا الكلام ليس على إطلاقه لأن للمرء أن يتساءل هنا: ماذا لو كانت شرعية هذه الدولة نفسها محل استفهام؟ ماذا لو

كانت رؤوس تلك (الدولة) هم مجرد عصابة من الإرهابيين؟ هل تصح محاربتها؟ ورغم أن الإجابة هي نعم إلا أن (كيف) مسألة على أكبر درجة من الأهمية ..

[رابعاً] الولوج إلى خيار الجهاد المسلح يحتاج إلى استيعاب عدد من الدروس القرآنية المهمة، على رأسها تمايز المعسكرين ووضوح الفريقين للجميع، وإعلان الجهاد خطأ كبير إذا لم يتمايز معسكران واضحان للحق والباطل يتفق على تمييزهما الناس، وإلا كان قتلاً باطلاً وكان ضرره أكبر من نفعه ..

[خامساً] لا يصح الجهاد ضد جيوش نظامية وتحالفات دولية عملاقة دون سلاح معتبر وراذع مناسب ودون روافد للقوة الاقتصادية والمعلوماتية والإعلامية وغيرها. لا يمكن أن ندعي الجهاد ببعض السيارات المسروقة والحسابات الموهومة على شركات اتصال لا نملك فيها شيئاً. هذا النوع من (الجهاد) أقرب للمزاح منه للجد، ولا يؤدي إلا إلى كوارث في عالم نزعت من قلوب أصحاب القرار السياسي فيه الرحمة. لا بد من الاستخدام الاستراتيجي للموارد القليلة وتعظيم النتائج المتوقعة بأقل التكلفة المادية والبشرية ..

[سادساً] لا بد من التركيز على رؤوس الفساد، ولا مفر من استهداف المصالح الاقتصادية للمستبدين بالأساس وبشكل واع، ولا بد من تصفية رموز القتل والعدوان التي لا خلاف عليها بين الناس، ولا بد من شق صف الاستبداد والتحالفات الفرعونية من الداخل، وبدون شق صف (النخبة) فليس هناك جهاد مؤثر بل هو انتحار ساذج، ولا بد من عدم التورط في قتل الأبرياء ولو كانت نفساً واحدة ..

والخلاصة في ما يسمح به هذا المقام هو أن الجهاد مشروع وباق ولكن لا بد من الوعي بالواقع وبالشروط التي يتطلبها هذا الخيار في واقع المجاهدين وفي سياق الأحداث. ليس هناك حل عنيف أو غير عنيف دون استراتيجية ووعي وحكمة ..“.

وها هم أبطال الشام على الأرض يحققون لنا تلك الأمنيات القديمة باستيفائهم الشروط وتجنبهم المحاذير، بل ويضيفون مزيداً من الإحسان والحكمة والاستعداد بفضل الله تعالى، وقد كان طريقاً طويلاً ومخاضاً عسيراً، ولكن نسأل الله تعالى لهم التوفيق والفلاح، وأن لا تخيب آمالنا فيهم يا أكرم الأكرمين، وأن تكون انتفاضة جند الشام -كما كانت في تاريخ أمتنا المجيد- إرهابية لاستيقاظ جند مصر من سباتهم الطويل، فهؤلاء جميعاً لا غنى لأمة محمد ﷺ عنهم لكي تدافع عن نفسها حق الدفاع، وتحرر أقصاها الأسير، وتنصر المستضعفين في كل مكان، خاصة في أرض الرباط في فلسطين.

وأخيراً، ومع تحرير مدن سورية واحدة تلو الأخرى -خاصة حماة- نذكر أساتذتنا الكرام من رجالات الشام وعلمائها وشرفائها الذين رحلوا عن دنيانا قبل أن يروا هذه اللحظة التاريخية، ونترحم عليهم وندعو الله لهم أن يتقبل جهادهم عند سلطان جائر وما لاقوا في غربتهم في سبيل الله، وأن يجعل ما يتولد عن هذه الأحداث الجسام من خير في موازين حسناتهم يوم يقوم الأشهاد، ولهؤلاء حديث آخر، والحمد لله رب العالمين.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٥): يا ثوار سوريا .. أقيموا حد الحرابة على المعتصبين

إذا كنتَ حاكمًا أو مسؤولًا في دولة، فلا يصح شرعًا ولا عقلاً أن تضع اللين أو الرحمة في غير موضعها، وإلا كنتَ مخلًا بأمانة الحكم ومعطلًا لفرائضه التي فرضها الله، وإن قلتَ -وأنتَ حاكم مسؤول في دولة- إنك لا تحب أن تلقى الله وعلى يديك دماء أحد حتى القتلة والسفاحين والمعتصبين، فأنتَ ضعيف، ولا ينبغي أن تتصدى لأمانة الحكم لأنك لست أهلًا لها، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي أوْتمن عليه فيها، وقتل القتلة العامدين والمعتصبين المحاربين من حقها وأمانتها. لن تكون أرحم من محمد ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، والذي عفا -كمثال- عن أهل مكة عفوًا عامًّا ولكنه في نفس الوقت أمر بقتل عتاة المجرمين ولو تعلقوا بأستار الكعبة.

ومنذ أن قامت (الثورة المضادة) بفتح السجون لقمع الثورات التي قامت على الأوضاع الفاسدة الظالمة في عالمنا العربي، كنا نظن أن الاغتصاب في سجون طواغيت العرب حالات فردية، وقد وصل إليّ -شخصياً- عدد محدود من الأسئلة على مدار السنوات العشرة الماضية تستفتي في جواز الإجهاض من الحمل من الاغتصاب في السجون المصرية، فظننت أنها حالات شاذة. إلا أن الذي يتكشف هذه الأيام -من شهادات الأسرى المحررين من السجون السورية ومن وجود الأطفال في تلك السجون- هو أن اغتصاب النساء في سجون الثورة المضادة كان سياسة متبعة وحرباً ممنهجة وجريمة مقصودة، وهذا مستوى مختلف من الشيطنة والإجرام يتطلب اجتهاداً مختلفاً للتعامل معه في شرع الله وقوانين العدالة، ويتطلب حسماً وحزمًا لا يتنافى مع العفو العام عن أصحاب الخلاف السياسي، أو حتى العفو عن المقاتلين والجنود الذين استسلموا بعد هزيمتهم في الحرب، محاربين لمحاربين.

ومن باب أداء أمانة العلم بالتشريع الجنائي الإسلامي وفي سياق فقه الواقع الحالي، فإنني -كأخ محب وطالب علم متخصص- أهيب بالإخوة الثوار في سوريا باعتبار الاغتصاب جريمة حرابة متكاملة الأركان، وتطبيق "حد الحرابة" الشرعي على معتصبي النساء في السجون، ومعهم كل من أمر بتلك الجريمة وسهّل وقوعها ممن فوقهم من صانعي السياسات الأمنية إلى رأس الهرم. قال تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم - المائدة ٣٣).

وإدخال المعتصب في حد الحرابة ليس غريباً على الفقه الإسلامي. صحيح أن بعض الفقهاء في تاريخنا لم يدخلوا ما اصطلح على تسميته بـ "الحرابة في الفروج" في حد الحرابة واقتصر على جريمة سرقة الأموال بقطع الطريق، إلا أن هذا رأي ضعيف يستند على شكلية وحرفية لا دليل عليها، ويفوت المقصود الأصلي من هذه العقوبة المفروضة في شريعة الإسلام، حتى أن ابن حزم الأندلسي رحمه الله الذي عُرف عنه ظاهريته وحرفيته الشديدة لما عُرف الحرابة التي تستوجب الحد كتب يقول عنها: "كل من حارب المار أو أخاف السبيل بقتل نفس أو أخذ مال أو الجراحة أو انتهاك فرج فهو محارب" (المحلى ١١/٣٠٨)، فاعتبر انتهاك الفروج بالاغتصاب من أنواع الاعتداء كالقتل والسرقة والجراحة، وهو قياس بالأولى على أي حال لأنه أشد إفساداً، وإذا كان من يفعل ذلك بالمارة في الطريق مجرمًا، فالذي يفعله بالمسجونات تحت مسؤوليته في سجن حكومي أفحش اعتداءً وأشد جرمًا، وأكثر استحقاقًا للخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة.

وصدق ابن العربي المالكي رحمه الله حين كتب عن هذه المسألة يقول: "سألت من كان ابتلاني الله به من المفتين [أي عن الحرابة في الفروج] فقالوا ليسوا محاربين لأن الحرابة إنما تكون في الأموال لا في الفروج فقلت لهم إنا لله وإنا إليه راجعون ألم تعلموا أن الحرابة في الفروج أفحش منها في الأموال وأن الناس كلهم ليرضون أن تذهب أموالهم وتحرب من بين أيديهم ولا يحرب المرء من زوجته وبنته ولو كان فوق ما قال الله عقوبة [يقصد آية الحرابة] لكانت لمن يسلب الفروج، وحسبكم من بلاء صحبة الجهال وخصوصاً في الفتيا والقضاء" (أحكام القرآن ٢/٩٥).

والحرابة في الفروج هو نفسه مصطلح "الاغتصاب" القانوني الذي نعنيه هنا، وهو الذي حكم به عدد من المجامع الفقهية المعاصرة وقوانين العقوبات في بلاد الأغلبية المسلمة بالإعدام أو السجن المؤبد على مرتكبه، وهي فتوى متكررة من دار الإفتاء المصرية، وترجمت مؤخراً إلى قانون رقم ١١ لسنة ٢٠١١م ونص المادة ٢٦٧: "من واقع أنثى بغير رضاها يعاقب بالإعدام"، واعتبار الاغتصاب من الحرابة هو أيضاً فتوى هيئة كبار العلماء في الدورة الثامنة عشرة لمجلس هيئة كبار العلماء بالطائف (قرار رقم ٨٥، ١٤٠١ هـ)، وذكرت نفس الحكم دائرة الإفتاء بالأردن ضمن قرارها (رقم ٢٠٤ - ٢٠٠٤م بتاريخ ١٦ من ذي القعدة ١٤٣٥ هـ)، وهو من القوانين والفتاوى الرسمية في عدد من بلاد الأغلبية المسلمة، وإن لم تكن كلها. يا إخواننا الثوار، لا يمكن أن يبدأ عهد جديد في سوريا إلا بالقصاص في هذه الجريمة، ولابد من تطبيق الحكم: (أن يُقْتَلُوا) بتشكيل قوة خاصة لاعتقال ومحاكمة -بشكل ناجز- وإعدام كل من تورط في اغتصاب النساء في الجهاز الأمني كله، ومعهم كل من أمر بذلك ممن فوقهم في سلم صانعي السياسات الأمنية حتى رأس الهرم، وأن يتم ذلك في أبشع صورة ممكنة، وأقترح أن تكون العقوبة بالرمي بالرصاص بعد ربطهم على هيئة الصلب، وذلك حتى تبدأ الحكومة الجديدة بوضع الأساس لثقافة جديدة في عهد جديد يحترم كرامة الإنسان وأعراض الناس. ليس وراء هذا الإجراء حكم عادل حقيقي ولا مصالحة وطنية رشيدة. والله المستعان.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٦): أيها الإسلاميون .. دعوها فإنها منتنة

الانحياز إلى الهويات القومية والوطنية من أكبر عيوب الذين يعملون للإسلام اليوم من خلال العمل الإسلامي المنظم، بل أرى أن انحياز المسلمين -وخاصة صفتهم من (الإسلاميين)- إلى الهويات القومية والوطنية يحتل مركز القلب من مأسينا كأمة إسلامية، من أكبرها إلى أصغرها، بدءاً من مأساة غزة الهائلة، إلى خبر اليوم المؤسف بقرار حكومة لبنان بتسليم الأخ والصديق والشاعر الأستاذ / عبد الرحمن يوسف القرضاوي إلى أمراء الإمارات ليقتلوه.

أفهم أن المواطنين البسطاء المغرر بهم في بلادنا الإسلامية يعتبرون أن هويتهم الوطنية هي أعمق أعماق وجودهم، حسب الدويلة التي ينتمون إليها -وكل العالم الإسلامي دويلات-، ولعل لهم عذراً من غسيل المخ الذي حدث لآخر جيلين أو ثلاثة من آبائهم على مدار المائة سنة الأخيرة أو تزيد، والذي لوث عقولهم بأفكار من أمثال أن وحدة المسلمين السياسية أصبحت جزءاً من التاريخ، وأن العالم أصبح عبارة عن دول (حديثه) ذات شعب وأرض وسيادة، وأن الحدود الوطنية مسألة (طبيعية) لأنها رُسمت لتحقيق مصالح قومية عرقية معينة، وأن على الدولة الوطنية أن تعمل لمصالح شعبها فحسب -هكذا يدعون كذباً على أي حال-، وأن ما عدانا من دول وشعوب يعتبرون (أجانب)، وإن كان بيننا وبين بعضهم روابط من اللغة أو الدين أو النسب أو غيرها، إلا أنها روابط ثانوية لأننا في دولتنا شيء ومن سوانا شيء آخر. قتلنا غير قتلاهم، وأسرانا غير أسراهم، ومصالحنا غير مصالحهم، وجيشنا غير جيشهم، وجنسيتنا غير جنسيتهم، وهويتنا غير هويتهم.

لا أستغرب أن يفكر البسطاء المغرر بهم هكذا، وهذا التفكير الجاهلي -بالمناسبة- هو في عمق التخاذل المصري العام لغزة العزة، ولو شاء المصريون أن ينصروهم لفعلوا، ولكن استخفهم المستخفون بفكرة حماية (حدودنا) و(دولتنا) و(مصالحنا)، وأن رفح الغربية في ما يسمى بـ (جمهورية مصر) غير رفح الشرقية في ما يسمى بـ (فلسطين) لأن هذه دولة وهذه دولة مختلفة، وأن أفضل ما يمكن أن نقدمه في هذه (الأزمة) -هكذا يقولون- هو أن نرسل (مساعداً) إلى (إخواننا) في (فلسطين الشقيقة)، إلى آخر هذا الهراء. أفهم كيف وصل الوعي الإسلامي في مصر -كمثال على دول العالم الإسلامي- إلى هذا المستوى المتدني بعد قرن من (البرواجندا) القومية الزائفة في عشرات الصور والوسائل. وقد شهدت هذه العصبية الجاهلية الزائفة والانتماءات إلى تلك الكيانات السياسية الوهمية التي خطها أعداؤنا ببساطة على الخريطة منذ بدايات القرن العشرين ليقطعوا بها أوصالنا، شهدتها في صور كثيرة في طول العالم الإسلامي وعرضه، من غرب أفريقيا إلى شرق آسيا، ومن وسط أوروبا إلى وسط أفريقيا، ولم يعد مستغرباً أن نشهد هذه العصبية الضيقة الوهمية في سلوكيات العامة، فقد عم بها البلاء.

لكنني أستغرب أشد الاستغراب -بل أستنكر أشد الاستنكار- أن يفكر من يعملون للإسلام من أحزاب وجمعيات ومؤسسات إسلامية هكذا! كيف يستساغ أن ينظر حزب يدعي أنه (إسلامي) -والإشارة اليوم إلى (الإسلاميين) في تركيا تحديداً- على أننا حزب قومي نعمل في دولة قومية، وأننا نتكرم ونتفضل على غيرنا حين نتضامن مع قضية فلسطين -التي هي دولة مختلفة-، أو مع الأحزاب الإسلامية (الأجنبية)، أو مع الشخصيات الإسلامية (الأجنبية)، أو نستقبل لاجئين مسلمين (أجانب) من هنا أو هناك، أو نرسل مساعدات للمستضعفين، أو نحاول الوساطة بين متخاصمين من (الأجانب) ولو كانوا مسلمين. كيف

يستساغ أن ينظر العامل للإسلام إلى العالم هكذا؟ أو أن تكون هوية العامل للإسلام الأعمق هي العصبية القومية التي قال عنها النبي ﷺ: (دعوها فإنها منتنة)؟!

هذا غير مقبول، ولا يمكن أن ننتصر كأمة إسلامية إلا أن يتخلص الإسلاميون من هذا العيب الخطير، وتصبح -حقيقة لا رياء- كل بلاد الإسلام سواء في قلوبهم، لا فرق بينها وبين بلدهم القومي الذي فرضته معادلات السياسة الحالية، وأن يصبح كل مسلم أو مسلمة أيًا كان أخًا أو أختًا له مثل ابن بلده الذي هو من قبيلته أو عنصره أو لونه سواء بسواء، بل لا يستساغ إلا أن يكون ابن الإسلام الذي ينافح عن قضايا أمته أقرب لي من ابن بلدي الذي لا يلتزم بالإسلام ولو كان من عائلتي. إذا لم يصل أنصار الإسلام إلى هذا الشعور الإسلامي الأخوي فلنقل على قضايا الأمة الإسلامية السلام، ولنسلم لمستتر سايكس الإنجليزي ومسيو بيكو الفرنسي بالانتصار علينا وهما اللذان بدءاً تقسيمنا إلى تلك الدويلات الوهمية المتفرقة برسم حدودها بأقلامهم على الخريطة، فإذا بنا نسلم بعضنا البعض للموت -بدءاً من غزة وانتهاء بعبد الرحمن القرضاوي- بناء على الحدود الوهمية التي رسموها!

وأنتهم أن النظم السياسية الوطنية حتمت على الأحزاب (الإسلامية) أن ترفع شعارات وطنية وأن تحرص إذا كانت في الحكم على المصلحة الوطنية، إلى آخرها، ولا مانع من هذا العمل من أجل الصالح الوطني، بل يؤجر عليه الأخ المسلم العامل للإسلام لأنه نوع من الإصلاح في حدود الاستطاعة، ويكون كما قال شعيب عليه السلام: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت - هود ٨٨). إلا أن المعيار الحقيقي لإسلامية وصدق وتجرد هذه الشخصيات والأحزاب (الإسلامية) هو حين يتعارض الرصيد السياسي الوطني مع الواجب الإسلامي. هل نقدم الواجب الإسلامي فنعتبر أن الأخ الفلاني الذي هو من (دولة) مختلفة كأبناء بلدنا سواء بسواء؟ وماذا لو منحناه جنسية بلدنا ورحبنا به مواطنًا كامل الحقوق؟ هل نقسم الجنسيات إلى درجة أولى ودرجة ثانية حسب العرق والعنصر أم نعامل المواطنين كلهم على سواء؟ هل نحتمي الأخ المسلم الذي لجأ إلينا بنفوسنا ونذود عنه كما نذود عن أهلينا وأبناء عنصرنا وقوميتنا لأنه أخ مسلم في ذمة الإسلام؟ أم سنتبع العصبية المنتنة ونفرق بينه وبين أبناء عنصرنا وقوميتنا وننظر إليه على أنه أجنبي (ضعيف) يحملنا ما لا نطبق ويثقل علينا وهو مجرد (وافد) علينا ليس إلا؟

الحق أنه لا فلاح لهذه الأمة الإسلامية إلا أن تتخلص من هذه الجاهليات العفنة، وأن يقودها (الإسلاميون) ولن يقودها سواهم- إلى أن تتجاوز غسيل المخ وطمس الهوية الذي مرت بها أجيالها الأخيرة، وذلك بأن يضربوا المثل لغيرهم أن الإسلام هو الأم والأب، وأنه لا انتماء يعلو عليه. ورحم الله والدنا وأستاذنا الشيخ يوسف القرضاوي، والد الأخ عبد الرحمن فك الله أسره الذي هو شاعر فحل مقدام كآبيه ومن شابه أباه فما ظلم، وقد كتب أستاذنا قصيدته المشهورة بعنوان (مسلمون مسلمون مسلمون) فكان مما قال فيها:

يا أخي في الهند أو في المغرب ... أنا منك، أنت مني، أنت بي

لا تسل عن عنصري عن نسبي ... إنه الإسلام أمي وأبي

إخوة نحن به مؤتلفون ... مسلمون مسلمون مسلمون

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٧): نظامنا السياسي عصي على الإصلاح

أن الأوان لكي نعيد تقييم النظام السياسي الذي يسمى (إسلامي) برمته! فقد أثبتت الأحداث الأخيرة منذ طوفان الأقصى -ورحم الله شهداء المقاومة تيجان الرؤوس- أن هذا النظام السياسي الذي يسمى (إسلامي) فاسد بما يستعصي على الإصلاح، وأنه حتى وصول من يضعون أنفسهم في خانة (الإسلاميين) إلى السلطة لم ولن يحمي أمتنا من الكوارث كبيرها وصغيرها، وعمومها وخصوصها، إذ يجد (الإسلاميون) أنفسهم في حكومات بلادهم مضطرين إلى (البراغماتية) السياسية، وهي كالخمر إثمها أكبر من نفعها، وهي كالخمر رجس من عمل الشيطان يجب اجتنابه أصلاً. أن الأوان لمراجعة عميقة لنظامنا السياسية كأمة إسلامية بمناسبة الفواجع التي نعاني منها اليوم، ولا بد أن تحتل هذه المراجعة أولوية في ثوراتنا المجيدة، المستمرة إن شاء الله.

والفواجع اليوم، أعمّها وأكبرها الفشل الهائل لكل الدول التي تدعي أنها (إسلامية) في وقف المقتلة العظيمة لشعب الصفوة المصطفاة من أمة محمد ﷺ في غزة العزة، وأصحاب القرار في الدول التي تسمى نفسها (إسلامية) إما يلعبون مع القضية لعبة السياسة المحلية والدولية -أي يشربون خمر (البراغماتية) السياسية- من أجل مكاسب قومية ضيقة لا تسمن ولا تغني من جوع، وتستمر مقتلة غزة بل تتعاضم ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإما أصحاب قرار منافقون صرحاء -أعني النفاق العقدي الأكبر- يشاركون العدو فعلياً في الحصار والقتل والتنكيل والتضليل، ناهيك عن تكشف تفاصيل المهزلة التي حدثت في سورية خلال العقد الفائت يوماً بعد يوم، من قتل تحت التعذيب لمئات الآلاف من النفوس البريئة وتخريب البلاد والعباد تحت سمع وبصر (الأشقاء) في الدول التي تسمى نفسها (إسلامية)، والذين كانوا -علمانيون وإسلاميون- يلتقون مع طواغيت سورية فيوزعون الابتسامات الدبلوماسية ويتبادلون احترام (السيادة الوطنية) المزعومة، فضلاً عن مآسي دولنا الإسلامية الأخرى اليوم خاصة في السودان والعراق واليمن ومصر وليبيا وبنغلادش، والقائمة لا تنتهي، إلى أن وصلنا اليوم إلى أخصّ الفواجع وأكثرها إيلاًماً، وهي الفضيحة المدوية لكل الدول ذات العلاقة باعتقال والتعذيب إلى شفا الموت للأخ والصديق والشاعر / عبد الرحمن يوسف القرضاوي.

بمناسبة هذه الفواجع والفشل الذريع للنظم السياسية التي تسمى نفسها (إسلامية) في وقف القتل المستحرّ في أمة محمد ﷺ، من قتل مئات الآلاف من شعوبها الشريفة الحرة بدم بارد، إلى قتل الصفوة من نخبة مفكرها وشعرائها وعلمائها وشرفائها بدم بارد كذلك، فقد أن الأوان إذن لكي نعيد تقييم النظام السياسي الذي يسمونه (إسلامي) برمته.

ولنبداً بمنظومة (الأمم المتحدة) التي بناء عليها عُرِّفت تلك الدول (الإسلامية) كدول ذات (سيادة) -كما يدعون- واستمدت (شرعيتها) الموهومة وحدودها (الاستعمارية) منها. وجدير بالذكر -لمن لا يعرف الغرب

جيداً- أن منظومة (الأمم المتحدة) قد انهارت في نفوس الشرفاء في بلاد الغرب -أي الأوروبي والأمريكي-، وتعاضم ذلك الانهيار في السنة الأخيرة خصوصاً تحت معول الهدم الذي تمثل في دعم الإمبراطورية العنصرية الغربية المعاصرة غير المحدود للإبادة الجماعية في فلسطين، فكشف هذا الدعم للمواطن الغربي الواعي -خاصة بعد ما أدى إليه من أزمات اقتصادية وسياسية وأخلاقية كبيرة- كشف مدى فساد الحكومات الغربية (الديمقراطية)، وتغلغل جماعات المصالح -وخاصة من الكيان- في نظامها السياسي والأمني، لكي تشتري حرفياً -وأحياناً بأموال العرب!- ذمم السياسيين والأمنيين إلى أعلى المستويات في الحكومات التي يُفترض أنها (ديمقراطية). الإنسان الغربي الواعي يدرك اليوم بوضوح أن منظومة (الأمم المتحدة) و(حقوق الإنسان) و(سيادة الدول) و(القانون الدولي) كانت مجرد خدعة كبرى، وأن قانون الغاب هو سيد الموقف في النظام الدولي وفي السياق المحلي.

أما نحن في العالم (الإسلامي) فما زلنا نعيش في تلك الخدعة ونصدقها ونروج لها كمن هو ملكي أكثر من الملك، ورحم الله الشاعر المصري الشيخ الأزهري الأستاذ / علي السيد الجندي (١٨٩٨ - ١٩٧٣م)، الذي كتب قصيدة منذ ثمانين عاماً بالضبط (عام ١٩٤٥م) بمناسبة ما سمي بمؤتمر سان فرانسيسكو -الذي صدر عنه (ميثاق الأمم المتحدة)-، وكان عنده من الوعي السياسي والاستشراف الحضاري ما لم يتوفر لكثير من مفكري هذه الأمة وفقهائها وعلمائها على مدار تلك العقود إلى يومنا هذا، بل نجد صفوة من علمائنا ومفكرينا اليوم مع فواجعنا يستتجدون بما يسمى بـ (النظام الدولي) لإنقاذ غزة، ويستدعون (حقوق الإنسان) من أجل منع التعذيب والقتل، ويطالبون بالتزام (القانون الدولي)، إلى آخره، ولعلمهم يبررون لهذه المنظومة -التي سقطت حتى في عيون الشعوب التي صنعتها دولها- بحجة توافقها مع الإسلام أو تحقيقها لمقاصد الشريعة، أو غير ذلك من المبررات الوهمية. وقد كتب الشيخ علي السيد الجندي رحمه الله عن (ميثاق الأمم المتحدة) عام ١٩٤٥م يقول:

تَجْمَعْتُمْ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ وَأُمَّةٍ . وَلَوْ لِنُشْرِ السَّلْمِ هَلْ نُشِرَ السَّلْمُ؟!!

وَهَلْ رَفَعَ الْحَقُّ الذَّلِيلُ جَبِينَهُ . وَهَلْ نَحْنُ بَتْنَا لَا يُرَوِّعُنَا الظُّلْمُ؟!!

وِإِلَّا فَمَا بَالُ (الشَّامِ) دِمَاؤُهُ . تَسِيلُ وَأَنْتُمْ عَنْ مَنَاحِتِهِ صُمٌّ

وَيَطْلُبُ (ديغولُ) تَرَاثَ (أُمِّيَّةٍ) . وَلَيْسَ لَهُ فِي الشَّامِ خَالٌ وَلَا عَمٌّ!

سَمِعْنَا كَلَامًا لَدَّ فِي السَّمْعِ وَقَعُهُ . وَرُبَّ لَذِيذٍ شَابَ لَذَّتَهُ السُّمُّ

أَمَانِي كَالْأَحْلَامِ زَخْرَفَهَا الْكَرَى . وَقَلَّ عَلَى الْإِيَّامِ أَنْ يَصْدَقَ الْحُلْمُ

وَحَبْرٌ عَلَى الْقُرطَاسِ لَيْسَ بِعَاصِمٍ . ضَعِيفًا إِذَا هَمَّتْ بِهِ الْغَيْرُ الدُّهْمُ

أرى الدول (الكبرى) لها الغنم وحدها . وقد عادت (الصغرى) على رأسها الغرّم

يُخِيلُ لِي أَنَّ (الوفود) تفرقت . ولم يندمل من طيب الكلم الكلم
إذا ساءت النيات كانت عهودكم . (قصاصات أوراق) وللغالب الحكم
موثيق معناها يكذب لفظها . فظاهرها برُّ وباطنها إثم
وتأويلها عند القوي فمن لنا . بأن نضمن الإنصاف والحكم الخضم؟
إذا حل منها الأقوياء نفوسهم . تقيدنا الأخلاق والشيم الشم
وفاءً بدنيا -لا وفاءً لأهلها- . به شقيت في (شرقها) العرب والعجم
هي الحال ما زالت على ما عهدته . فويل لأقوام يغرهم الوهم
متى عفت الذبان عن لحم صيدها . وقد أمكنتها من مقاتلتها البهم؟
ألا كل شعب ضائع حقه سدى . إذا لم يؤيد حقه (المدفع) الضخم

وصدق، فما زالت أمم البشر بعد ثمانين عاماً من توقيع ميثاق الأمم المتحدة -وعلى رأسها أمة الإسلام- لا تصدق أن "للغالب الحكم"، وأن "قصاصات الأوراق" التي كتبت عليها تلك الميثاق الدولية المعسولة الكلام حبر على ورق لا يعني شيئاً إلا أن تحميه قوة عادلة، أو "مدفع ضخم" بتعبير الشيخ رحمه الله.

هذا عن منظومة الأمم المتحدة، وأما منظومة ما يسمى بدول التعاون الإسلامي، وما تدعي من مفاهيم الشعب والأرض وسيادة الدول، فهذه أسطورة أخرى أن الأوان لتفكيكها وإعادة صياغتها على أسس جديدة. أن الأوان لكي نعلم أن وصول (الإسلاميين) بمختلف ألوانهم إلى الحكم في النظام السياسي الحالي لا يسمن ولا يغني من جوع، وأنهم باسم (البراغماتية) السياسية سيضرون بقضايا الأمة أكثر من أن ينفعوها، إلا أن يثوروا على المنظومة الحالية، ويتجاسروا على رفع السقف، واستقلالية القرار، ووضع مبادئ الإسلام فوق كل اعتبار، والجهاد الحقيقي من أجل حكم إسلامي رشيد. أن الأوان لكي نستشرف كأمة إسلامية أفقاً جديداً ونظاماً مختلفاً. وللحديث بقية.

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٨): ربح البيع يا غزاة وخسر أعداؤك

فتح طوفان الأقصى أكبر سوق شهدناه في حياتنا للبيع والشراء -بالمفهوم الشرعي-، سوق تاجر الناس فيه فباعوا واشتروا على مدار خمسة عشر شهراً، فربح من ربح وخسر من خسر، وهذه مراجعة لمن ربح ومن خسر، حتى يستعد المؤمن للدورة التالية من البيع والشراء في هذا السوق العظيم، وهي آتية وقريبة، لا محالة.

أول وأكبر الرابحين في هذا السوق الشهداء، الذين باعوا النفوس لله تعالى فاشتراها منهم: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهد من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم - التوبة ١١)، وعلى رأس من باع نفسه لله من قتلوا وهم يجاهدون في سبيل الله مقبلين غير مدبرين، صابرين محتسبين، يجاهدون بالحديد ولا يفل الحديد إلا الحديد، وما أشرف أن يُقتل المرء وهو ينوب عن أمة كاملة ويقيم عنها فريضة معطلة، يدافع فيها عن شرفها بل عن وجودها، سواء على المستوى العسكري أو السياسي. بخ بخ يا أبا إبراهيم، ويا أبا العبد، ويا أبا محمد، ويا كل من رحلوا في هذه الحرب عن دنيانا ولكنهم: (أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون - آل عمران ١٦٩-١٧٠).

ومن الرابحين في هذا السوق العظيم من باع نفسه لله وهو يجاهد بالطب والتمريض والإسعاف، وما أشرف أن يُقتل المرء وهو يحيي النفوس ويضمّد الجرحى ويخفف الآلام ويقوم بأشرف المهن، ومنهم من باع نفسه لله وهو يجاهد بالإعلام والكلمة ونقل الحقائق للأمة وللعالم، وما أشرف أن يُقتل المرء وهو صوت للمظلومين والثكالى في هذه الظروف، وعون للمجاهدين الصامدين، ومنهم من باع نفسه لله وهو يجاهد بالإغاثة والكفالة وإيصال العون، وما أشرف أن يُقتل المرء وهو يطعم الطعام ويسقي الماء ويكسو العاري في هذا المقام، ومنهم من باع نفسه لله وهو يعلم ويربي، سواء من علّموا القرآن في المساجد فقتلوا وهم على هذا الحال، وما أشرفها من شهادة، أو من علّموا الطلبة في المدارس والجامعات فقتلوا وهم على هذا الحال، و(إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع)، وربح الضحايا الأبرياء الذين قتلوا فلحقوا بقافلة الشهداء ولو لم يكونوا في أي من تلك الصفوف، إذ أنهم قُتلوا في سبيل الله لا في سبيل غيره، وأخرجوا من ديارهم لا لشيء إلا أن يقولوا ربنا الله، قتلوا وهم الظهر والسند والذخر والرصيد والحاضنة الشعبية التي لا غنى عنها للمجاهدين على مختلف ألوانهم، ولا يقوم أمرهم إلا بهم، فهنيئاً لهم الشهادة على هذا الحال، (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين - آل عمران ١٤٠).

وهناك من ربح في هذا السوق العظيم ولكنه ربح دون ربح الشهداء الذين باعوا كل شيء، كل على شاكلته ونيته، منهم من ربحوا بالصمود في السجون مأسورين في سبيل الله بسبب هذه الحرب -سواء في فلسطين أو في غيرها من بلاد الله بما فيها بلاد المسلمين للأسف-، رغم آلة القمع والظلم الرهيبة، وما أثقل كل لحظة من فقد حرياتهم في موازينهم يوم القيامة إن شاء الله، ومن أهل غزة العزة من ربح بالصبر على الخوف والجوع والعطش والبرد الشهور الطويلة، والمرابطة في أماكنهم حماية للأرض والعرض والمقدسات رغم التهديد والحصار والخطر، والثبات على الدين رغم خذلان الإخوة في الدين إلا قليلاً، والتمسك بالإنسانية رغم ندرة الإنسانية. ربح بيعكم يا أهل غزة العزة، يا تيجان الرؤوس وشرف هذه الأمة في هذا العصر. بارك الله لكم في هذا الفتح المبين وإن كان نصرًا جزئيًا ومؤقتًا، ولكننا نسأل الله تعالى أن يتمه عليكم وعلى أمتنا كلها بتحرير الأقصى كاملاً، عن قريب إن شاء الله، وما ذلك على الله بعزيز.

وأما بقية الأمة، فهناك من ربح بالجهاد بالمال في سبيل الله، ولا غنى للجهاد بالنفس عن الجهاد بالمال في كل صوره، وهؤلاء شروا أنفسهم من الله تعالى بأموالهم: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد - البقرة ٢٠٧)، وهناك من ربح بالإسناد والدعم، وعلى رأسهم من دعم المجاهدين بما استطاعوا من قوة فعلية على الأرض، ولو جزئيًا، ولو نالهم في سبيل ذلك ما نالوا، وخسارة الداعمين المساندين للنفوس والأموال في سبيل الله لا تضيع عند الله تعالى، وهناك من ربح بالدعم في صور أخرى قدر استطاعتهم -والله أعلم باستطاعة كل إنسان-، وكانوا يذرفون الدمع على عدم استطاعتهم فوق ما قدموا، فكانوا كما قال تعالى في أمثالهم: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم. ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون - التوبة ٩١-٩٢)، فمنهم من نشر الوعي، ومنهم من تظاهر، ومنهم من جمع التبرعات، ومنهم من عبّر عن المعاني العالية بالفنون والشعر والإعلام، ومنهم من قال كلمة حق أو قدم شفاعة يساندهم بها، والله أعلم بعباده. عفا الله عنا وغفر لنا تقصيرنا وألحقنا بالصالحين والمجاهدين.

وأما الخاسرون، فما أكثرهم في تلك السوق العظيمة، وعلى رأسهم بطبيعة الحال المعتدين الطواغيت، أباطرة العصر الذين بنوا إمبراطوريتهم العنصرية في القرنين الأخيرين على سفك الدماء وإبادة الشعوب، والذين وجدوا في (صقور) الكيان فرصة لإذلال أمة الإسلام، ونهب ثرواتها، وضربها في قلبها النابض، وردع شعوبها عن الاستفاقة على جلاذيتها المستأجرين عندهم، ويلحق بهم من ساندهم ودعمهم في شتى الصور من أركان الدول العميقة في تلك (الديمقراطيات) الغربية الزائفة، ومعهم تجار الأسلحة وسحرة الإعلام وضباع الاستثمار وعملاء الأجهزة الأمنية وخونة المؤسسات التعليمية سواء بسواء، وهؤلاء كلهم خسروا أنفسهم في الدنيا ولو نالوا شيئاً من لعاعاتها أجوراً على القتل والإبادة، ولكن الأعظم من ذلك أنهم خسروا الآخرة: (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً - الفرقان ٣٤).

وأما الذين عارضوا من غير المسلمين هذا التوسع الإمبريالي العنصري وراعهم التعامل اللا إنساني واللا أخلاقي في هذه الحرب، فهؤلاء لم يخسروا إن شاء الله، بل ربحوا كرامتهم وإنسانيتهم وقيمهم الأخلاقية والمهنية في هذه الدنيا، بل وقد اعتنق كثير منهم الإسلام بمناسبة هذه الأحداث، إلى أن بلغت بعض التقديرات لمجموع من أسلم من غير المسلمين من أهل البلاد الغربية التي شاركت في العدوان في خمسة عشر شهراً، بلغت نصف مليون معتنق للإسلام أو يزيد، وخاصة بين الشباب والفتيات من عمر العشرين إلى الأربعين. وهؤلاء نسأل الله لهم الثبات وحسن الإسلام، وأن يكتب أجرهم ونورهم لأهل غزة العزة، وأن يغير الله تعالى بهم الموازين في بلادهم، وهو تغيير آت لا محالة إن شاء الله.

إلا أن أكبر الخاسرين في هذه السوق العظيمة ليسوا من خارج دائرة الإسلام، بل هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ويدعون الانتماء لديننا الإسلام، ولكنهم منافقون نفاقاً أكبر - أي يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر-، وهم قد والوا أعداء الله على خيرة عباد الله، وباعوا أنفسهم للشيطان وحزبه، وناصروا محاربي الإسلام على المسلمين، وأيدوا الطاغوت الظالم على الجهاد العادل، وهؤلاء المقصودون بقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين. ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين - المائدة ٥١-٥٣)، وهؤلاء وإن قبضوا في الدنيا أثمان يبيعهم لدماء وأعراض إخوتهم في الإسلام أو العروبة، إلا أن لهم في النار الدرك الأسفل: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً - النساء ١٤٥). أدال الله دولهم، وهد بنيانهم، وأرانا فيهم آياته عاجلاً غير آجل. آمين.

هذا، وعلى المؤمن الواعي أن يعدّ العدة للجولة التالية من الحرب، والدورة التالية من سوق البيع والشراء، فقد حكم كل ذي عقل وبصيرة أن العد التنازلي لتحرير الأقصى قد بدأ، وأن العقاب الإلهي على الإفساد والعلو في الأرض قد حان، وأننا اقتربنا من الجولة الحاسمة خاصة بعد تمايز المعسكرين والفريقين، فيسأل المرء نفسه: إذا لم أكن من الراجحين في هذه الجولة -والعياذ بالله- فأين أنا إذن من الجولة التالية؟

تفكيك منظومات الاستبداد (٤٩): اعرف عدوك .. ضد من حاربت وستحارب غزة؟

لولا الرجاء في الله تعالى أن نستشفع بالمجاهدين في أرض الرباط في فلسطين وخاصة في غزة العزة، لما جاز لنا أن نتكلم في هذا المقام، مقام الشهداء والأسرى والجرحى والمبتورين، مقام التضحيات والصمود والشجاعة، مقام الرجولة والإباء والشرف، مقام الإيمان واليقين والصدق، فتحية إجلال وإكبار وإعجاب لكل أبناء غزة العزة أطفالاً ونساءً ورجالاً، وتحية للشهداء وهم أحياء عند ربهم يرزقون. ودعاء لربنا الكريم الرحيم أن يعفو عنا ويغفر لنا تقصيرنا، ويلحقنا بالصالحين.

يا شباب الإسلام العظيم، اعرف عدوك! فمعركة الوعي لا غنى لأمة الإسلام عنها بالتوازي مع المعارك على الأرض، وهي معركة (الفقه) بمفهومه الشامل الواسع: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا - التوبة ١٢٢)، ولذلك فاعداء الأمة الإسلامية المعتدون ومعهم المنافقون الحاقدون ينفقون أموالاً وجهوداً طائلة -تتجاوز ما ينفقونه على الحروب نفسها- من أجل تزييف الوعي. لا يمكن أن تنتصر الأمة الإسلامية وهي لا تعرف أعداءها الحقيقيين، ولا تدرك من يقاتلها ولماذا يقاتلها؟ لا يُحتمل أن نَصِفَ الواقع بغير مسمياتنا الأصيلة ومفاهيمنا الدقيقة وتصوراتنا الصحيحة، وإلا خسرنا المعركة التالية قبل أن تبدأ، وهي آتية لا محالة.

يا شباب الإسلام العظيم، المعركة -الحالية والتالية- هي مع الإمبراطورية العنصرية المعاصرة، والتي يمكن توصيفها عرقياً بالإمبراطورية اليورو-أمريكية البيضاء، وتوصيفها اقتصادياً بالرأسمالية، وتوصيفها سياسياً بنظام مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وتوصيفها قانونياً بالقانون الدولي، وتوصيفها ثقافياً بما بعد الحداثة والتغريب، وتوصيفها عسكرياً بحروب الإبادة والتطهير العرقي الممنهج، وتوصيفها دينياً بالمسيحية الصهيونية، مع ملاحظة أن معتقدها الحقيقي هو الإلحاد. هذا هو العدو الذي حارب ويحارب وسيحارب غزة، يريدون من خلال هزيمة غزة وفلسطين والعرب تركيع أمة الإسلام كلها ونهب خيراتها وطمس معالم دينها وثقافتها وحضارتها.

وتاريخ تلك الإمبراطورية اليورو-أمريكية العنصرية تاريخ من المذابح طويل، بدأ بمذابح محاكم التفتيش الأسبانية في الأندلس ثم في القارة الأمريكية عن طريق السفاح كولومبوس، ثم مذابح الاحتلال البرتغالي في القارات الأمريكية وجنوبي آسيا ووسط وجنوب إفريقيا، ثم مذابح الاحتلال الإنجليزي في عموم أفريقيا ووسط وشرق آسيا، ناهيك عن مذابح الغزاة المعتدين من الهولنديين والفرنسيين والألمان والإيطاليين، ويأتي على رأسها مذابح الإمبراطورية اليورو-أمريكية الحالية، بدءاً بما قام به الأمريكيون من إبادة نحو مائة مليون نسمة من السكان الأصليين في القارة الأمريكية، خاصة على يد الجنرال جورج واشنطن الذي لقبه السكان الأصليون بـ (مبيد القرى) (تاون ديستروير بالإنجليزية)، وانتهاء بالحروب في العقود الأخيرة منذ حرب فيتنام، ثم مذابح أمريكا اللاتينية، مروراً بحرب العراق الأولى، ثم حروب

(الإرهاب) منذ ٢٠٠١م، وانتهاء بالحروب الأخيرة على غزة عن طريق البلاطجة المستأجرين في الكيان، مع إسناد من مستأجرين آخرين من منافقي العرب. فلنتصور الواقع تصويرًا دقيقًا، والحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وإننا إذا أردنا أن نستشرف أفقًا رحيبًا مشرقًا لأمتنا، بدأ العمل لتحقيقه إن شاء الله تعالى، فلا بد أن نعي أن القضية التي نحن بإزائها في فلسطين الحبيبة لا تقتصر على معركة (تحرير وطني)، بل هي في حقيقتها معركة وجودية بين الحضارة الإسلامية والحضارة الإلحادية المعاصرة، وهي في حقيقتها معركة اقتصادية مع الرأسمالية كنظام اقتصادي يحكم بقانون العنف، لا يصلح فيه قبول عمليات التحسين والتجميل لوجهها الربوي الاحتكاري الناهب لخيرات المستضعفين، لا سبيل للنصر التام المؤزر إلا بإزاحة طاغوت الرأسمالية عن اقتصادات عالمنا، وحماية هذا الكوكب من الانهيار البيئي والإنساني الذي تسببه الرأسمالية اليوم.

والمعركة الجارية هي أيضًا معركة سياسية ضد نظام سياسي وقانوني يسمونه (دولي) وهو في حقيقته سياسة القوة الغاشمة، وحكم الطاغوت، وقانون الغاب، يسانده غزو ثقافي يشنه الملحدون من أنصار التفكيك ما بعد الحدائثي على الإسلام، التفكيك -بمعنى نزع الشرعية والهدم والتقويض- للدين، والقيم، والأسرة، والأعراف، واللغات، والجمال، والخصوصية، والبيئة، والحرية، والكرامة، بل ويهدمون الإنسان نفسه عن طريق هدم كل الفروق، حتى بين الذكر والأنثى.

ولكل من هذه العناصر حديث يطول لا يتسع له المقام، ولكن الخلاصة المتغياة في النداء التالي:

يا شباب الإسلام المقاوم العظيم، اعرف عدوك، واعلم أن قوى الأرض كلها تجمعت لتحارب ضد المقاومة المؤمنة الباسلة الشريفة في غزة -سواء بالفعل أو عدم الفعل كنوع من أنواع الفعل-، ليس لأنها ضد حركة (تحرر وطني)، بل لأنها ضد المقاومة الإسلامية في غزة التي هي الشوكة الأخيرة في حلق الإمبراطورية الغازية، والقلعة الأخيرة من قلاع الإسلام في الدفاع عن حضارة الإسلام ونظام الإسلام الديني والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي والبيئي.

المعركة الحقيقية في غزة وما وراء غزة إنما هي مع دين الإلحاد، وسياسة مجلس الأمن، والاقتصاد الرأسمالي، وهو ما يستوجب منا الوعي بكل تلك الجبهات وامتداد المقاومة إليها: مقاومة الإلحاد، ومقاومة العنصرية، ومقاومة النظام الدولي الجائر، ومقاومة الاقتصاد الرأسمالي. (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ). صدق الله العظيم.

تفكيك منظومات الاستبداد (٥٠): رمضان .. شهر الجهاد والانتصارات

بمناسبة اقتراب شهر رمضان المبارك - وفقكم الله ووفقنا فيه لما يحبه ويرضاه - امتلأت الساحة الإعلامية بكافة أشكالها بحديث عن فضائل رمضان: شهر الصيام، شهر قراءة القرآن، شهر الصدقات والزكوات، شهر الصلة والمرحمة، شهر العفو والتسامح، شهر التراويح والذكر. وهذه الأوصاف والميزات كلها صحيحة وعليها أدلة من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ وما استقرت عليه أعراف مجتمعات المسلمين عبر الزمان والمكان، ولكننا لا ينبغي أن ننسى أو نغفل عن صفة أخرى مميزة لهذا الشهر الفضيل، وعُرف من أعرافها له تاريخ طويل كذلك، وله أهمية خاصة في واقعنا في سياق الحرب على أمتنا في قلبها النابض في أرض الرباط في فلسطين، ألا وهي: رمضان شهر الجهاد، وشهر الانتصارات الفاصلة في تاريخ أمة الإسلام.

لا ننسى أن (يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ - الأنفال ٤١)، الذي ذكره الله تعالى في القرآن، هو يوم بدر المجيد (سنة ٢ هـ)، يوم نصر الله المؤمنين المستضعفين وأعزهم بعد ذلة، كان يوماً من أيام رمضان، وهو نفس اليوم الذي قال تعالى عنه أيضاً: (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ - الروم ٤-٥)، وكان المجاهدون من المهاجرين والأنصار قليلو العدد والعتاد، ولكن علم الله ما في قلوبهم، وأراد أن يقضي أمراً كان مفعولاً، وحانت لحظة التحول التاريخي، فاننصر أهل الحق والإيمان على أهل الباطل والكفر، وبدأت الحضارة الإنسانية كلها دورة جديدة بيوم بدر المجيد.

ولا ننسى أن فتح مكة (سنة ٨ هـ): (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا - العصر ١-٢) - كان أيضاً يوماً من أيام رمضان، وشأنه في تاريخ الإسلام لا يخفى.

ولا ننسى أن المعارك الكبرى التي فصلت بين مراحل تاريخية مفصلية في تاريخ أمتنا كانت في رمضان. لا ننسى معركة القادسية (سنة ١٥ هـ) في رمضان، ورضي الله عن قائدها سعد بن أبي وقاص ومن كان معه من القادة والجند، وهي من المعارك الفاصلة بين المسلمين والفرس آنذاك، وفتح الله على أهل الإسلام فتحاً تاريخياً مبيناً.

ولا ننسى أن فتح الأندلس كان في رمضان (سنة ٩٢ هـ)، ورحم الله القائد الخالد طارق بن زياد حين خطب خطبته التاريخية التي كان منها: (أيها الناس، أين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مادب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم .. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص مبتاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ فيها بنفسي) .. فاننصروا، وكانت بداية لحضارة إسلامية من أجمل وأرقى الحضارات التي عرفتها الدنيا.

وكان فتح عمورية في رمضان (سنة ٢٢٣ هـ)، وكانت من هزائم الروم الكبرى أمام المسلمين، وبدأ القتال فيها استجابة لاستغاثة امرأة مضطهدة للخليفة آنذاك المعتصم: "وامعتصماه"، فاستجاب، وانتصر المسلمون انتصاراً تاريخياً عظيماً، فهل من "معتصم" مجيب اليوم لمثلها من استغاثات الحرائر التي تعالت؟

وكان تحرير بيت المقدس من الصليبيين بمعركة حطين أيضاً في رمضان (سنة ٥٨٤ هـ، على الراجح)، وقاده القائد الخالد صلاح الدين الأيوبي الكردي الذي بدأ وزيراً في الدولة الفاطمية، ولكنه استطاع أن يعيد صياغة تلك الدولة الفاسدة من الداخل، وينهي حكم الجبروت والبدع والخرافات، وتناسى المسلمون آنذاك العرقيات والمذاهبيات والحميات، وتوحدوا خلف راية واحدة -تماماً كما ندعو أن يفعلوا هذه الأيام مع دولهم ووطنياتهم وتحيزاتهم وراء الأشخاص لكي يواجهوا صليبيي عصرنا-، وكانت نقطة تحول تاريخية أخرى مجيدة في تاريخ أمتنا.

ومعركة عين جالوت المجيدة (سنة ٦٨٥ هـ) كانت في رمضان، حين جمع المصريون أمرهم -أخيراً- من أجل مواجهة مغول عصرهم -كما ندعو اليوم أيضاً أن يفعلوا لكي يواجهوا مغول عصرنا-، ونقوا صفوفهم من النفاق والمنافقين، وكتب سيف الدين قطز اسمه بأحرف من نور في تاريخ هذه الأمة، ولما كُسر المغول في مصر كان اندحارهم عن بقية أرض الإسلام مسألة وقت.

ولا ننسى معركة رمضان الثانية أخرى خاضتها بعض الجيوش العربية المعاصرة -شدها وشارك فيها جيل ما زال حياً اليوم- كانت في رمضان من عام ١٣٩٣ الهجري، الموافق لعام ١٩٧٣ الميلادي، حيث كانت النية الغالبة على الجنود والقادة الميدانيين هي نية الجهاد في سبيل الله وتحرير المسجد الأقصى، والنداء الغالب المسموع هو نداء "الله أكبر"، اللهم إلا ما كان من الساسة في تلك الحرب، فالساسة هم الساسة، والسياسة هي السياسة! ولذلك لم تستكمل جيوش العرب تلك الحرب حتى النصر الكامل للأسف، بقرار سياسي.

وبعد، ليت شعري هل أن الأوان لكي تستعيد هذه الأمة أمجادها في رمضان من عام ١٤٤٦ هجرية؟ هل أن الأوان لكي يتغلب في قيادات جيوشها العربية والإسلامية أهل الإيمان على أهل الخيانة؟ هل يعلو صوت الجهاد المتوكل الواثق على صوت النفاق المتخاذل الخائف؟ هل تنتصر حمية الدين على حميات الجاهلية؟ هل يتخذ قرار الاصطفاف مع المجاهدين الأبطال المقاومين في فلسطين في مقابل الاصطفاف مع الأعداء الملحدتين الملاعين؟

ندعو إلى ذلك ونتمناه، ولو أننا ندرك أيضاً سنة الله تعالى الغالبة، وهي: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ - يونس ٨١)، فالأيدي التي تلتخت بدماء وأعراض ومصائر وحرقات أفضل وأشرف وأنبأ من أنجبت هذه الأمة من علمائها ومجاهديها وقرائها ومثقفها وشعرائها وفاعلو الخير فيها وشبابها الحر وفتياتها

الماجدات، لا يمكن لنفس الأيدي أن تبايع الله ورسوله ﷺ على الموت في سبيل الإسلام والدفاع عن المقدسات. لن يحدث.

ولكن، هل يقوم الشرفاء الأخفياء في الجيوش العربية والإسلامية من الصفوف الخلفية كما قام قطز ثم بيبرس، ونور الدين ثم صلاح الدين، وغيرهم؟ هل يقوم من حالهم كحال مؤمن آل فرعون فيستلموا راية الجهاد قبل فوات الأوان؟ اللهم نسألك هذا، إنك على ما تشاء قدير، وأنت حسبنا ونعم الوكيل. (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - يوسف ٢١).

رمضان كريم.

تفكيك منظومات الاستبداد (٥١): في شهر الجهاد .. لن تهزم أمة مجاهدة

من أروع المشاهد التي نقلتها الهواتف في ما مر من هذا الشهر الكريم، مشهد تطوع الألوف للقتال مع الجيش السوري الوليد ضد انقلاب فلول العصابات الإجرامية التي كانت تحكم سوريا. هو مشهد أقص مضاجع أعداء الإسلام-المحاربين والمنافقين على حد سواء- كما لم يفعل أي مشهد آخر منذ فترة طويلة، فهؤلاء يعرفون جيداً أن هذه الهبة الشعبية المسلمة للجهاد أخطر عليهم من كل الجيوش المدججة المدججة، وأن تكرر هذا المشهد في العالم الإسلامي-خاصة في البلاد المحيطة بفلسطين- هو بداية النهاية، لا لمشروع الكيان المحتل فحسب، بل لكل الإمبراطورية الإبادية المهيمنة المتغترسة. يا شباب أمتنا النجباء، ويا شرفاء أمتنا النبلاء: هذا مشهد من المشاهد التاريخية المفصلية، لو كنتم تعلمون.

والشعوب التي تحارب، أي ينخرط شبابها -وكل القادرين- في التطوع مع جيوشها النظامية من أجل القتال، هي الشعوب المنتصرة، وهذا سر أمر الله تعالى في كتابه الكريم بالجهاد للمؤمنين عامة وليس للجيوش خاصة، فيقول: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ - الأَنْفَال ٦٥)، ويقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ - التوبة ٣٨)، ويقول: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعْيَةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ - التوبة ٤١-٤٢) ... هذا الخطاب العام عن الجهاد -ومثله في القرآن كثير- هو استنفار لعموم المؤمنين، لا لما يسمى بـ "الجيوش النظامية" فحسب، وتحقيقه في الواقع يكون بأن يُعلن النفير العام ويُفتح باب التطوع فينضم "المدنيون" للجيوش المقاتلة ويشاركوا في نصره القضية، تماماً كما شهدنا في سوريا هذه الأيام.

والحق أن هذه النصره مفتوحة في كل جيوش العالم، وخاصة جيش الكيان الغاصب، وما مئات الألوف التي تطوعت لحرب غزة الأخيرة ببعيد، ولا المستوطنين المسلحين الذين يتوغلون ويغيرون الواقع على الأرض تغييرات أكبر من قدرات جيشهم النظامي نفسه ببعيد. ولكن هذه النصره المدنية مغلقة -وبعنف شديد- في وجه جيوش المسلمين جميعاً. لم نسمع خلال عام ونصف من المأساة في فلسطين صوتاً واحداً يدعو لتطوع الشعوب من أجل نصرتها، ولهذا فقناعتي أن مشهد التطوع في الجيش السوري هذا الأسبوع مشهد مهم ومفصلي، لا في تاريخ الدولة السورية الحالية فحسب، بل في تاريخ أمتنا الإسلامية كلها. لا يتوهم أحد أن الجهاد في سوريا منفصل عن الجهاد على الطغيان في نظم الطغيان، ولا عن الجهاد ضد أعداء الأمة المحتلين الصائليين عليها في الأرض المقدسة، هي جبهة واحدة والله: الحق والباطل، الإيمان والكفر، العدل والطاغوت.

والفن والإعلام الفاسد في هذا الشهر الفضيل، من أكبر الأدوات التي يستخدمها أعداء الإسلام من المحاربين والمنافقين من أجل منع هذا المشهد من الحدوث، ومن أجل تركيع "أمة المليارين" التي لو تحرك واحد في المائة من شبابها لكان قوة لا غالب لها في العالم مهما فعلوا، ولذلك فقد حرصوا أشد الحرص على أن يكون الفن والإعلام في رمضان أسقط ما يكون في موقفه من الأخلاق ومعالي الأمور، وأشرس ما يكون على الدين وأهله، وأبهى ما يكون في زخرفه ولهوه، فتشغلوا أوقات المسلمين الثمينة في هذا الشهر الفضيل بأقاصيص الساقطين والساقطات، وتفاهات الخاملين والخاملات، وسفاهات المسابقات والأحجيات. هذه خطتهم للفساق وضعاف الدين ومنحرفي الأخلاق من شباب المسلمين.

وأما المتدينين من شباب المسلمين، فقد ضحى أعداء هذه الأمة -من المحاربين والمنافقين- بكشف بعض أكبر الخلايا النائمة من أصحاب اللحي والعمائم المستأجرة، وهم أناس باعوا أنفسهم لأعداء الأمة من قديم -ولو خفي هذا على كثيرين-، وكان دورهم إلى هذه المرحلة مقتصرًا على شغل أعمار أفضل شباب هذه الأمة بسفاسف القضايا وتفاهات المسائل ولغو المناظرات وفارغ الجدل، وزرع الفرقة والحدق الأعمى بين مشاربهم ومذاهبهم، مستغلين ضحالة تعليمهم وبساطة عقولهم وتغيب قداوتهم الحقيقية وراء القضبان في سجون المنافقين، فكشفوا هذه الكنوز الاستراتيجية المستأجرة التي أنفقوا على إظهارها بين الناس الغالي والنفيس -على مدار العقد الماضي- منذ انتهجوا تلك السياسات في دوائرهم الأمنية، كشفوهم من أجل تصعيد الهجوم وبعده على الجهاد وأهله، وهو ما يدل على حجم رعبهم من أخبار ومشاهد انخراط الشباب المسلم في الجهاد. (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

يا شباب أمتنا الكرام: لن تهزم أمة مجاهدة، أمة تجاهد شعوبها مع جيوشها، مهما كانت قوة عدوها.

تفكير منظومات الاستبداد (٥٢): ماذا حدث لشباب أمتنا العربية؟

تحتاج أمتنا الإسلامية -وخاصة الأمة العربية- إلى وقفة جادة لفهم ماذا حدث لشبابها! ما هذا الشلل التام لحراك الشباب العربي الجامعي وغير الجامعي في ظل ما يحدث؟ في مقابل شباب العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً؟ ما هذا؟ كيف وصلنا إلى هذا الغياب شبه التام لما يقوم به الشباب عادة في كل دين وملة وثقافة في مثل هذه الأوقات من الحروب الوجودية؟ ثم ما سر ندرة الشباب المجاهد ولو بكلمة حق عند سلطان جائر في عالمنا الإسلامي الواسع؟ في مقابل شباب العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً الذي ما زال فيه عدد لا بأس به من الصارخين بكلمة الحق والمغيّرين للشر بأيديهم وألسنتهم؟ تساءلت: ماذا حدث لهذا الجيل العربي الجديد بالمقارنة مع جيل أمثالي الذين تخطوا الستين أو قاربوا؟

قد عاصرت في مرحلة الشباب -أي ما دون العشرين وما بعدها- حروباً شنتها الأباطرة والطغاة المعاصرون على أمتنا، بدءاً من المذابح التي لا تتوقف في فلسطين، إلى غزو أفغانستان، ثم بعدها حرب العراق الأولى، وحروب الصومال، وكشمير، والبوسنة والهرسك، والعراق الثانية، إلى آخرها، وكنا كشباب جامعي عربي ننفجر غيظاً ونفيض حزنًا على ما نقرأ أو نشاهد من تقارير، رغم أن المعلومات والصور لم تكن بدقة ولا كثرة ولا بشاعة ما يُنقل لشباب اليوم عبر ما تسمح به برامج التواصل الاجتماعي، وكنا ندرك -على صغر السن وقلة العلم وبساطة الأحلام- أن هذه حروب على أمتنا الإسلامية وعلى وجودنا كمسلمين وعرب وشرق وجنوب!

وكان من الطبيعي التلقائي -وكنت في بدايات الثمانينات طالباً في جامعة القاهرة- أن نتظاهر بعشرات الألاف في الحرم الجامعي، بل نخرج إلى الشوارع لتوعية الناس وإغراق المدينة بالملصقات والمنشورات، إن لم يكن هناك رصاص حيّ أو مطاطي من الشرطة، ولكننا حتى ولو استخدمت الشرطة الرصاص واضطررنا للاختباء، فإننا نعود في اليوم التالي للتظاهر وتوزيع المنشورات على الطلبة، إلا أن يغلقوا الجامعة نفسها، وكنا -كقيادات لاتحاد الطلاب- نتجنب الاعتقال قدر الإمكان بأن نبني خارج بيوت أهلنا، في المساجد أو عند بعض الأقارب خارج المدن، حتى إذا مضت الأزمة أو تحسنت الأوضاع عدنا إلى الجامعة، وحتى ولو اعتقلنا كنا نمر بمحنة من أيام أو أسابيع نعود بعدها إلى الحياة الطلابية نفسها، وكان من زملائنا في الجامعة من قرر أن يذهب بنفسه ليحارب في أفغانستان أو البوسنة أو غيرهما، فمنهم من قضى نحبه هناك، ومنهم من استقر في الأرض الجديدة وتزوج وعاش، ومنهم من عاد إلى بلاد العُرب وانتهى به المقام -عاجلاً أو آجلاً- في السجن، أو غاب عن الوعي مع أعباء الحياة وجمع المال، ومنهم من استقر أخيراً لاجئاً أو مهاجرًا في بلاد الغرب ليسهم بعد ذلك في "الصحة الإسلامية في الغرب" منذ ثمانينيات القرن الماضي، وحتى أحداث سبتمبر ٢٠٠١م التي غيرت أحوال المسلمين في الغرب.

ولكنني أتساءل الآن: ماذا حدث للحركة الطلابية؟ كيف تغيرت الصورة في القاهرة التي عرفتتها شابًا، وللقاهرة أهمية استراتيجية خاصة؟ وماذا حدث في بقية حواضر وعواصم العالمين العربي والإسلامي؟ كيف وصلنا إلى هذا الشلل التام للحركة الطلابية والشعبية والمدنية والسياسية العربية حتى وصلت إلى الصفر، بل هي الآن حركة ضارة سالبة تحت الصفر؟ كيف قامت النظم الحاكمة بهذا التحول التاريخي الخطير؟ خاصة وأن تلك التحركات الشعبية المحدودة كانت تخدم مصالحهم ونظمهم (هكذا فهمنا بعد أن كبرنا وتعلمنا)؟ إذن، لمصلحة من يتم القضاء على الحياة السياسية والحركات الطلابية تمامًا، خاصة وأن أول المتضررين من ذلك هي النظم الحاكمة نفسها، والتي أصبح لا حجة لها لكي تُبقي على بعض ماء الوجه أمام الأعداء؟ ويعرف أهل السياسة من العرب عداوة الأعداء وكيدهم جيدًا مهما كان توجههم، يمينًا أو يسارًا، ملكيات أو جمهوريات، عروبيين أو وطنيين، فكيف نفسر الواقع العجيب الغريب؟

في رأيي -وباختصار كما يسمح المقام- أن الذي حدث هو انكشاف أقنعة النفاق العقدي والسياسي عند مراكز التأثير الحقيقية منذ "الربيع العربي"، فدخلت حكومات "الثورة المضادة" التي استطاعت البقاء -أو التي عادت بعد غياب مرحلي قصير بوجوه جديدة- في صراع وجودي وصفري مع الشعوب نفسها! تغيرت عقيدة الجيوش والنظم الحاكمة في كل العالم العربي -إلا في دويلات محدودة- من خليط من المشاعر الوطنية والأدلوجات العلمانية والمصالح الشخصية والعمالة الجزئية لبعض أجهزة المستعمر القديم، تغير كل هذا إلى مهمة واحدة واضحة وضعها الأباطرة المعاصرون بناء على مستشاريهم من شياطين الإنس خاصة في الكيان، وهي مهمة: "القضاء على الشعوب"، كل نظام مهمته في الحياة الآن هي القضاء على الشعب! صدق ما أقول أو لا تصدق، ولكن المنطق السليم لا يصل بالعاقل إلا إلى هذه النتيجة.

فمن رضي بهذا من أهل السياسة -على مختلف المستويات الحاكمة وأيًا كانت ملته- استمر في الحكم، والذي لا يرضى بها يُقتل ويؤتى بغيره، وإن استعصى ذلك تبدأ الدولة في التفكيك والتقسيم على طريقة "الكاويوي" التقليدية، كما رأينا ونرى في السودان واليمن وليبيا والصومال والعراق وسوريا، وهلم جرا. ثم أعطت مهمة "القضاء على الشعوب" الضوء الأخضر لقتل مئات الألوف من كل شعب بلا سقف.

"اقتل كل من يقول لا" هو شعارهم غير المعلن الذي وضعه لهم أسيادهم من المحتلين الجدد ومستشاريهم من دولة الكيان، خاصة في الشرائح التي استهدفتها الثورة المضادة كأولويات: العلماء والقذوات الحسنة وأصحاب الرأي والمتقنين والمؤثرين بكل ألوانهم وأنواعهم، والهدف الصريح هو قتل كل هؤلاء جميعًا، إلا من يرتد فيشرك بالله، ويعبد النظام لا معبود له سواه، أو المغفلين سفهاء الأحلام الذين يديرون تروسًا في دواليب الدول لا يعرفون إلا ما تؤدي ولا يرون الصورة الكلية بالمرّة.

ولكن الشياطين يعلمون أن القتل بلا سقف في عصر التواصل الاجتماعي -خاصة مع تنافس الصين فيه- قد يأتي بنتائج عكسية، سواء في استفاقة الجسم الأكبر من كل شعب إذا أحسوا بالخطر على حياتهم أو جاعوا طويلًا، فنتكرر مشاهد فيضانات الناس التي لا قبل لهم بها لاقتلاع الحكومات العميلة، أو النتائج

العكسية للقتل في تظاهرات في الدول الغربية تهتز لها بعض موازين السياسة عندهم على غير ما يرغبون لعنصرهم المتفوق في الرفاه والسلام الداخلي، أو لشبابهم في اللهو والترف، وبالتالي فقد حرص النظام العالمي الجديد على أن يتم القتل الجماعي لشعوب المنطقة سرًا -وسوريا مثال صارخ كاشف واضح-، أو القتل الجماعي بالتصوير البطيء جداً كما هو الحال في عموم السجون العربية، حيث "الداخل مفقود والخارج مولود" كما يقول المثل الشعبي المصري، ومع كل من يُقتل لابد أن يُقتل الآباء والأمهات والأبناء والأقارب الأقربين ولابد من اغتصاب الأخوات والزوجات والبنات -جسدياً أو معنوياً إن تعذر الاغتصاب الجسدي-، ولابد من هدم البيوت وسرقة الأموال، قولاً واحداً لا تراجع فيه وسياسة ثابتة محمية بكل أدوات القانون المحلي والدولي، إلا من بعض الحالات التي يسمحون بها على سبيل الدعاية الانتخابية في الدول "الديمقراطية". وأتى على رأس قائمة المطلوبين للقتل الشعب الفلسطيني الأبّي، خاصة شعب غزة، وهي المدينة الوحيدة التي ظلت حرة في العالم العربي وظل الإسلام فيها حياً لم ينهدم ولم يشيع فيها الزنا والخنا كما شاع في بقية بلاد العرب.

ومع آلة القتل تدور آلة أخرى -ولعرضها مقام آخر- وهي آلة الإلحاد والزنا والخنا والتجهيل والفتنة والتسطيح وتحويل الشاب المسلم العربي إلى مسخ لا عقل له، موظف ممتاز أو موظفة نشيطة في منظومة نادي الواحد في المائة الرأسمالية الاحتكارية، ليس إلا، وفيما عدا ذلك يعيش كدابة ويموت كدابة، بل هم أضل سبيلاً. وهل بعد هذا الفيض الهائل هذا العام من المسلسلات الرمضانية الفاسدة المُفسدة من دليل على حجم المؤامرة؟

هذا البطش الشديد والقتل الحاسم والتجهيل الخطير لكل أصحاب الوعي من الشعوب العربية هو في تقديرنا ما يفسر الشلل السياسي التام الذي يعاني منه عالمنا العربي، خاصة الغياب التام للحركة الطلابية إلا من مسوخ من الشباب والشابات من عبء الطاغوت، وهذا "تفسير تأمري" بامتياز لا يكاد يصدقه العاقل، ولكن الواقع يصدقه كل يوم ألف مرة. المهمة الجديدة للنظم العربية هي: "القضاء على الشعوب العربية بالقتل أو المسخ لكل العقلاء والشرفاء والمسلمين الحقيقيين فيها".

ولكن التحولات التاريخية العميقة ستأتي على أي حال، مهما استمرت الأمور على هذا الحال المزري، وأتوقع أن ينفجر بركان التغيير في العالم العربي -ومن ورائه العالم الإسلامي- خلال سنوات معدودة إن شاء الله، وقد بدأت إرهاباته فعلاً شرقاً وغرباً -ولهذا حديث آخر-، وحينها ستعود الشعوب الكبرى هادرة حين تدرك أنها إما تحارب جلاذيتها وأعداءها الحقيقيين، وإما أن تستكمل الذبح فيها إلى آخر مؤمن أو شريف أو عاقل أو كريم فيها. وإن ذبحتم هذا الجيل كله -ولا أظنه يحدث إن شاء الله- فقد أُنذركم أن الجيل القادم سيكون جيلاً غليظاً لا يعرف الرحمة ولا التعايش ولا الوسطية ولا التدرج.

فهل ينهض "مؤمنو آل فرعون" في بلادنا العربية ليدركوا الوضع المتردي قبل فوات الأوان وانفجار البركان؟ أرجو ذلك وأدعو به، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - يوسف ٢١). لك الله يا فلسطين!

تفكيك منظومات الاستبداد (٥٣): جماعة الإخوان وخيار الجهاد الاستراتيجي

لم أكن قد وُلدتُ بعد، حين قتل "الضباط الأحرار" عمي الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله وتقبله في الشهداء عام ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م، ولكن حكى لي إحدى عماتي رحمها الله عن حوارات حكاها لها الأستاذ عبد القادر، دارت بينه وبين عبد الناصر الطامح للرئاسة المصرية في تلك الأيام، فهتت من مجموعها أن أصل الخلاف كان حول استراتيجية المرحلة آنذاك، والتي كان من أبرز ملامحها الموقف من "اتفاقية الجلاء" التي بموجبها انسحب الجيش الإنجليزي عسكرياً من مصر بدءاً من عام ١٩٥٤م، والتي كان يسميها الأستاذ عبد القادر "اتفاقية الاستسلام"، ويرى أنها في حقيقتها صفقة ثمنها فلسطين للصهاينة في مقابل شرعنة السلطة المصرية الجديدة تحت قيادة عبد الناصر ضمن النظام الدولي الجديد في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان الخيار الاستراتيجي المقابل في رأي الأستاذ عبد القادر هو الاستمرار في الجهاد على جبهتين لتحقيق هدفين: أولهما إنهاء نفوذ الإنجليز في مصر تماماً -وكل نفوذ الإمبراطورية الغربية في العالم الإسلامي-، وثانيهما إنهاء الاحتلال لفلسطين الذي مكنته تلك الإمبراطورية، وجدير بالذكر أن الأستاذ رحمه الله كان ضمن قيادات كتائب الإخوان التي حاربت عام ١٩٤٨م، والتي كانت تحت قيادة الشيخ محمد فرغلي، الذي أعدموه معه وأعدموا معهما -أو سجنوا- كل من قاد المقاومة في فلسطين: يوسف طلعت ومحمود عبد اللطيف وغيرهم ممن شارك في الحرب. إذن، إعدامات وسجون الإخوان عام ١٩٥٤م كانت بالأساس لإجهاض العودة إلى الجهاد في فلسطين، وإجهاض استمرار المقاومة للمستعمر الأوروبي حتى التحرر الكامل دون شروط ولا ذبول، كخيار استراتيجي لمصر، بل وللعالم العربي والإسلامي.

وأتفق مع من رأى أن تصفية جماعة الإخوان وقتل قياداتها الفكرية والسياسية والعسكرية كان من الشروط غير المعلنة لاتفاق "الجلاء" نفسه، ويدل على هذا أدلة كثيرة على رأسها إصرار عبد الناصر ورفاقه على قتل قادة الجماعة خاصة قادة المقاومة في فلسطين تحديداً، وقتل أوعى الفقهاء والسياسيين بطبيعة المعركة مع الاستعمار الغربي، حتى أنهم لم يستحووا في أن يستخفوا بعقول الناس ويلفّقوا حادثة المنشية الهزلية -والمحاكمات الأكثر هزلية بعدها- من أجل تبرير ذلك القتل. على أي حال، (تلك أمة قد خلت) كما قال تعالى، ورحل القاتل والمقتول وعند الله تجتمع الخصوم.

أما ما يعيننا اليوم، فهو أن جماعة الإخوان على مدار العقود التالية منذ منتصف القرن الماضي، قد تحولت تدريجياً من استراتيجية الجهاد للمستعمر الأوروبي حتى الجلاء التام دون شروط، والجهاد للاحتلال في فلسطين دون تنازلات، إلى استراتيجية "الاندماج" في الدول لكي تصبح جزءاً من أغلب النظم السياسية "الوطنية" بما فيها النظم المستبدة، فمثلاً: كانت الجماعة المصرية تتفاوض وتتفق قبل الانتخابات على عدد الكراسي التي سوف تحوزه في البرلمان المصري لكي تلعب دور المعارضة، وكانت

الجماعة تلعب دور الداعم للدولة حين "تفشّل" -بالمصطلح السياسي- في مسؤولياتها، بتفريغ الغضب الشعبي في تظاهرات غير مؤثرة حين تفشل الدولة في القيام بمسؤولياتها السياسية والعسكرية خاصة في قضايا الأمة الإسلامية وعلى رأسها قضية فلسطين، وتارة تدعم الجماعة الدولة بإنشاء المشافي الخيرية حين تفشل الدولة في القيام بمسؤولياتها الصحية، وتارة تدعم الدولة بالقيام بأدوار التربية الإسلامية والتوجيه الأخلاقي للشباب حين تفشل الدولة في القيام بذلك، خاصة وأن الدولة كانت ولا تزال تسير في الاتجاه السلبي بالإفساد الأخلاقي والثقافي المنهج من أجل أغراض السياسة، وقس على ذلك: القوافل الإغاثية، والصلح الاجتماعي، والصناعات الصغيرة، وتزويج الفقراء، وقضاء الديون الصغيرة، ومساعدة المزارعين الصغار، وتوزيع الزكاة والصدقات، ومحاربة الإدمان، ومحو الأمية، ثم جاءت مرحلة الإعلام الذي سُمّي بالإسلامي، إلى آخرها. وفي مقابل ذلك أعطت لها تلك الدول التي تحالفت معها قطعة -محدودة- من "الكعكة" الاقتصادية والسياسية والإعلامية.

وأما إذا فكّرت الجماعة أو فكّر بعض أعضائها النافذين في العودة إلى خيار الجهاد الذي أصرّ عليه رواد الجماعة الأصليين وقُتلوا دونه، بشقيه -هما هما-: الجهاد ضد نفوذ الإمبراطورية الغربية -التي تقود جيوشها اليوم أمريكا ويتحكم في ثرواتها نادي الواحد بالمائة-، والجهاد ضد الاحتلال في فلسطين الذي مكنته تلك الإمبراطورية، فهذا معناه عودة الدول "الوطنية" إلى الاتفاق القديم الجديد مع المستعمر القديم الجديد، ومفاده كالتالي: سنقتل لكم الإسلاميين المجاهدين وكل من يؤيدهم، ونتنازل عن الجهاد في فلسطين، في مقابل أن تدعمونا لنبقى في السلطة. والتاريخ يعيد نفسه، وما أشبه الليلة بالبارحة!

أما "كيف" فله حديث ومقام آخر، ولكن السؤال الأهم اليوم هو: ألم يأن للجماعة الرائدة التي طالما نادى شبابها: (الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا) أن تعي قياداتها السياسية طبيعة الصراع مع الإمبراطورية المعاصرة، وطبيعة المعركة الصفرية التي وصلت إليها قضية فلسطين، فترتفع إلى مستوى المرحلة؟ أيها الإخوان، الأمة بحاجة إلى قيادتكم فكونوا كما كان مؤسس جماعتكم رحمه الله يستشهد بشعر طرفة في معلقته:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خَلْتُ أَنْبِي ... عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَنْبَلِّ

تفكيك منظومات الاستبداد (٥٤): غزة تموت جوعاً .. رسالة إلى (أولي الأمر) من المسلمين

إن كنت حاكماً مسلماً أو ذا سلطة في دوائر الحكم على المسلمين، فاعلم أن قرار "الامتناع عن الفعل" في مقابل حرب التجويع على إخوانك في دين الإسلام في غزة، حتى الموت بمئات الألوف من النفوس البريئة، هو شرعاً في حقه "اشتراك في جريمة قتل" لكل نفس تقتل من هذه النفوس، مما يستوجب المسؤولية في الدنيا والعقوبة في الآخرة! عدم الفعل الذي قد يمنع القتل -ولو لنفس واحدة- مع القدرة عليه يعتبر اشتراكاً في القتل يعاقب عليه الشرع، ولا يبرؤك من مسؤوليتك الكلام وإنما لابد من الفعل والعمل الحقيقي من خلال السلطات الكثيرة والكبيرة التي تفوضها الشعوب -في كل النظم السياسية- لحكامها. وإن ظننت أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً بالمرّة، فاستقل من منصبك حتى لا تلقى الله تعالى يوم القيامة وعلى يديك دماء المسلمين، ولعل من يخلّفك في منصبك يمتلك من الإيمان والقيادة والحزم ما لا تملك، فينقذ نفوس المسلمين من الموت جوعاً ليبرئ ذمته أمام الله كحاكم مسلم.

وكونك حاكم على بلد آخر غير فلسطين، أو مملكة أو جمهورية أو دولة أو أيّاً كانت التقسيمات السياسية التي قسّمنا بها المستعمرون القداماء، فلا تعفيك حدود دولتك من مسؤولياتك الشرعية عن دماء المسلمين في فلسطين، خاصة في مثل هذا الموقف. أنت حاكم على مسلمين، والمسلمون أمة واحدة مسؤولون عن دماء بعضهم! وإذا كان حكام الدول الأوروبية -مثلاً- لا يقبلون بإهدار دم أوروبي في أي من بلاد قارتهم، فضلاً عن تجويع شعب من شعوب أوروبا إلى الموت -مثلاً-، فنحن في أمة الإسلام أولى منهم بالتضامن والإنسانية والرجولة!

إن كنت حاكماً مسلماً أو ذا سلطة في دوائر الحكم على المسلمين، فاعلم أن هذا جزء أصيل من مسؤولية وأمانة وثمر أن تكون حاكماً على بلاد المسلمين! ليس هناك موازنة مصلحة، ولا تخريجة فقهية، ولا عذر حقيقي أمام الله تعالى لأي مسلم بيده قرار عسكري أو سياسي أو اقتصادي أو أممي أو مائي أو غيره من السلطات التي تحتكرها الدولة اليوم، وهو تارك لإخوانه في غزة اليوم يموتون جوعاً بمئات الألوف فلا يفعل شيئاً إلا كليّات "دبلوماسية" يقولهن على استحياء، أو مزاعم بخطط طويلة المدى لمواجهة العدو بالتدريج، أو مزاعم بحماية السيادة الوطنية، إلى آخر هذا الكلام الذي لا يليق بالموقف -دون فعل أي شيء في الواقع لمجرد توفير كسرة خبز أو شربة ماء للذين يهلكون جوعاً بمئات الألوف من المسلمين!

مر قرابة الشهرين ولم نر أفعالاً لمواجهة هذا التجويع إلى الموت لشعب من أمة محمد ﷺ، على الهواء مباشرة! ولا حتى بإلغاء معاهدات "السلام" و"التطبيع" الباطلة أصلاً، ولا حتى بالدخول في المحاكمات الدولية ضد الإبادة الجماعية ولو حسب المعايير المنقوصة لـ "القانون الدولي الإنساني"، ولا حتى بتعليق اتفاقات التجارة المتبادلة، ولا حتى بوقف التنسيق الأمني والتدريبات العسكرية المشتركة، ولا حتى بتجميد

الشركات الغازية للأسواق المحلية، ولا حتى بالكف عن التعاون والتآلف والتشابك الثقافي، ولا حتى بمنع الإمدادات الحيوية والآلات الحربية التي تقتل المسلمين من المرور من المياه والبر والجو في نطاق ما يسمى بـ "السيادة الوطنية"، ولا حتى بفتح الأبواب -خاصة في دول الطوق- لمؤسسات المجتمع المدني ولا المؤسسات الأممية التي تحاول أن تقدم شربة ماء أو كسرة خبز للجوعى المحاصرين من غير المقاتلين! ماذا بعد؟ ليس بعد هذا إيمان ولا إسلام ولا إنسانية.

وإننا نشهد في هذه الأيام النحسات انقسام مواقف الدول التي تسمى "إسلامية" إلى فريقين: الفريق الأول من المنافقين -لا يمكن أن نصفهم بإنصاف إلا بهذا وقد بدت منهم علامات النفاق جميعاً-، وهؤلاء عندهم عداوة أصلية مع الإسلام وأهله، اللهم إلا المسلم الذي ليس للإسلام أثر في حياته إلا في خويصة نفسه فلا يهدد سلطتهم، ولو أن الأفضل عندهم أن لا يكون المسلم مسلماً أصلاً. هؤلاء المنافقون يتظاهرون هذه الأيام ببعض الاحتفالات والشعائر والشعارات الإسلامية، وقد ينفقون بعض الفتات -من أموال الشعوب التي سرقوها- على بعض المظاهر والمعمار الإسلامي ذراً للرماد في العيون، ولكنهم -والله- أسعد الناس بقتل المجاهدين، وهم أكثر الناس ترحيباً بقتل عموم الشعب الفلسطيني الذي انتخب "الإسلاميين" ومنحهم حاضنة شعبية، تلك الحاضنة التي ورطت المنافقين في بطانات الحكم وكشفت نفاقهم، بل كشفت كثيراً من الحقائق والكوارث المخفية لشعوب الدنيا جميعاً أمام دولها التي كانت تحسبها نزيهة، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

وأما الفريق الثاني من حكام المسلمين ومن في دوائر التأثير حولهم، فيتعللون بمقاصد الشريعة في اتخاذ موقف قريب من موقف الفئة الأولى، والشريعة ومقاصدها من تمحلاتهم براء. قد نتفهم أن تغلب موازنات درء المفسد وجلب المصالح على بعض القرارات السياسية أو السياساتية في واقع الدولة الحديثة، فيرتكب أخف الضررين وأهون الشرين، وقد نتفهم أن يتبنى من ينتمون إلى الإسلام في عالم السياسة بعض الشعارات القومية أو حتى بعض الأدلوجات العلمانية أو يلتزمون ببعض الاتفاقات الموقعة مسبقاً من باب الحفاظ على المكاسب السياسية أو تحقيق بعض المصالح العامة في ظنهم، اتفقنا أو اختلفنا معهم. ولكن الذي يحدث لا ينطبق عليه تلك التوصيفات والتكليفات! الذي يحدث هو تجويع لإخوة في دين الإسلام حتى الموت بمئات الألوف! مما يستوجب شرعاً وعقلاً وإنسانيةً الفعل -أي فعل- لمنع هذه الكارثة. ليس مقبولاً في دين الله من الحكام ذوي السلطات الواسعة في الدولة الحديثة أن لا يكون هناك فعل، أي فعل! بل عدم الفعل مع امتلاك أدواته هو اشتراك في جريمة قتل عمد مكتملة الأركان، بل هي جريمة حرابة على المسلمين، مكتملة الأركان.

يا من تصديتكم بكامل إرادتكم لمسؤوليات الحكم أو "ولاية الأمر" في بلاد المسلمين: لا عذر لكم أمام الله تعالى! قرار "الامتناع عن الفعل" مع تجويع مئات الألوف من المسلمين إلى الموت، بلا ذنب إلا أنهم اختاروا أن يدافعوا عن أرضهم وديارهم وأعراضهم، وعن المسجد الأقصى قبله الإسلام الأولى نيابة عن

أمة محمد ﷺ، وخاصة النساء والأطفال والشيوخ والعجزة والجرحى والمرضى، قراركم بـ "الامتناع عن الفعل" ليس من دين الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ في شيء، ولا من السياسة في شيء، ولا من التفكير الاستراتيجي في شيء، ولا من الأمن القومي في شيء، ولا حتى من المصلحة الشخصية لبقائكم على كراسيكم في شيء! عدم محاولة وقف هذه المقتلة الهائلة للمسلمين في أرض الرباط من الجوع على الهواء مباشرة، وأنتم من حكام المسلمين هو في شرع الله -لمن يعبأ منكم بشرع الله- نفاق، واشتراك فعلي في جريمة قتل ستلقوا الله تعالى بها ودماء القتلى على أيديكم!

اللهم فاشهد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تفكيك منظومات الاستبداد (٥٥): صلاحيات الحكام في المال العام في الإسلام

سؤال بمناسبة ما نراه بأم أعيننا في هذه الأيام النحسات، من كميات هائلة من الأموال العامة في بلاد المسلمين التي ينفقها حكام المسلمين، لا على بذخ وترف وسفه القصور والحاشية والمركبات والطائرات والموائد فحسب، بل أصبحوا يدفعون من أموال المسلمين العامة في يوم واحد ما يوازي موازنات دول كاملة في سنوات، لخطب ود الأباطرة المعاصرين، هؤلاء الأباطرة أنفسهم الذين يغزون أرض الإسلام ويقتلون -في نفس اليوم واللحظة- أشرف من في أمة محمد ﷺ حرماً وهدماً وتجويعاً وتعذيباً، ينفق حكام المسلمين هذه الأموال الطائلة تحت حجج واهية من "التنمية" و"الاستثمار"، في وقت لا يجد فيه أشرف من في هذه الأمة كسرة خبز، فضلاً عن تضييعهم "التنمية" و"الاستثمار" في الشعوب الإسلامية التي أصبحت يغلب عليها الفقر والفاقة، إلا الطغاة وأملائهم، والمحتركين وخدامهم. والسؤال هو: هل تجوز هذه التصرفات؟ أو بتعبير آخر: هل يحق للحاكم في شريعة الإسلام أن يتصرف في المال العام دون قيد أو شرط؟ وخالصة الإجابة: اللهم لا. وهاك بعض التفصيل:

قال تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - البقرة ١٨٨). و(أموالكم) أي مال الأمة، و(أموال الناس) أي المال العام بالتعبير المعاصر، و(أكله بالباطل) يعني أخذ الحكام للمال العام بغير حق شرعي أو إنفاقه في غير وجه شرعي. وهذه الآية تمثل أصلاً لفقه تعامل "الحكام" -أي أصحاب السلطة بكل أشكالها في الحكومات بكل أشكالها الجمهورية والملكية والفيدرالية وغيرها، في تعاملهم مع المال العام بكل أشكاله.

وقد بين النبي ﷺ في سنته تطبيق هذا الأصل في عصر الرسالة، فحرم تحريماً صريحاً لا لبس فيه أن ينتفع صاحب السلطة من منصبه نفعاً خاصاً خارج ما خصص له من راتب أو نفقة بالمعروف، كالذي رواه أبو حميد الساعدي الأنصاري رضي الله عنه: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْأُنَيْبَةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فَقَالَ ﷺ: (فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أُمَّ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقْرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيَعَّرُ)، ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطِيهِ وَقَالَ: (اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ)، ثَلَاثًا (البخاري ٢٥٩٧). وفي رواية ابن خزيمة (٤/١٢٨) قال: (فَإِنْ سُئِلَ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ قَالَ أُهْدِيَ لِي).

ويمكن أن نلخص معايير (الحق) في مقابل (الباطل) في ما يتصرف فيه الحكام من مال الله -أو مال الأمة أو المال العام- من مجموع الأدلة في هذه المبادئ السبعة:

(١) مبدأ الحصول على راتب ونفقات جارية تكفي حاجات الحكام بما يقتضيه المقام والظرف: وحتى لو تغير الزمان والواقع واحتاج الحكام في مناصبهم المختلفة لمخصصات ورواتب ومباني ووسائل أعلى من

المستوى الذي حصل عليه الخلفاء الصالحون في تاريخنا، قاصدين بذلك عونهم على أداء مهامهم، فلم ذلك ولكن بالقسط وفي المعدل الأعلى مما يكتسب موظفو حكوماتهم، وليس في معدل أعلى مما يكسبه أغنى التجار كما نرى في واقعنا حيث أصبح الحكام -خاصة من المسلمين- لا تُقارن ثرواتهم أصلاً بثروات أغنى التجار في العالم في إحصاءات الثروات.

(٢) مبدأ عدم الإسراف في ما يبني أو يشتري الحكام من مرافق من المال العام لأغراض الحكم: الحق أنه قد حدث انحراف في هذا الشرط منذ القرن الأول الهجري ببناء القصور الفخمة واتخاذ الحاشية، وكان التبرير منذ ذلك الوقت أن هذه من دواعي الولاية حتى يحترمها الناس ولا تقوم الفتن، إلى آخره، إلا أن الإسراف -رغم الإقرار بنسبيته في الزمان والمكان والظرف- له حدود يعرفها العقلاء في كل زمن، فإذا وصلنا إلى تشييد وتزيين القصور والمركبات والسفن والطائرات بالجواهر والذهب والأحجار الكريمة والأثاث والزخارف واللوحات بما يقدر بمئات الملايين، فضلاً عن شراء الجواري والشعراء والندماء -في صورهم المعاصرة- بالأثمان الباهظة، وطعام وشراب مترف يُشحن من بلاد بعيدة، ونفقات باهظة للتشريفات والخدم والحراسة، بحيث يتلعب كل هذا ما يزيد عن المخصص من المال العام لموازنة الدولة نفسها، كما نرى في دول إسلامية عديدة في واقعنا، فقد أكل مال الله بالباطل. هذا فضلاً -وبداهة- عن أن يكون هذا الإسراف في إنفاق المال على أعداء الأمة قاتلي مجاهديها ومستبيحي أراضيها وهاتكي أعراض أهلها، فهذا الإسراف على أعداء الأمة إثم على إثم.

(٣) مبدأ أن لا يمتلك الحكام المرافق العامة التي تشيّد من مال الله ولا يورثوها لأبنائهم: وهو أحد المعايير الأصلية لتقييم سيرة الحاكم أو المسؤول، ورحم الله أبا بكر رضي الله عنه الذي أوصى عند وفاته أن تُضم أرض له إلى بيت المال تعويضاً عن ستة آلاف درهم فرضوها له من بيت المال، ورحم الله علياً بن أبي طالب رضي الله عنه الذي كانت تركته ثمانمائة درهم، ورحم الله عمر بن عبد العزيز الذي كانت تركته ثمانية عشر ديناراً، إلى آخر الأمثلة، في مقابل كثير من الحكام منذ ذلك الزمان إلى عصرنا الذين ملكوا ثم ورثوا ما قيمته ذهباً مما يعد بالأطنان، دون وجه حق إلا أنهم حكام أكلوا مال الأمة بالباطل.

(٤) مبدأ عدم تعدى الراتب إلى مخصصات للأقرباء لمجرد قرابته من الحكام دون عمل يعملونه في الدولة: فالمشروع في الإسلام أن يأخذ الحاكم ما يكفيه ويعطي منه من يعول فحسب. أما أن تحصل عائلة أو قبيلة كاملة على مخصصات هائلة لمجرد قرابته من حاكم أو مسؤول دون عمل في الدولة فهو أكل لأموال الناس بالباطل يدخل تحت النهي وينطبق عليه قول النبي ﷺ المذكور آنفاً: (هلاً جلس في بيت أبيه وأمه فيهدى له؟)، وقوله: (من أين لك هذا؟).

(٥) مبدأ عدم استغلال النفوذ أو السلطة فيما يمارس الحكام من تجارة: قد يقول قائل إن الذين يجمعون الثروات من التجارة من الحكام يجمعونها بجهدهم في أعمال أخرى غير الحكم، وهذه شبهة قديمة جديدة، تصرف معها الخلفاء الراشدون إما بمنع الحكام في الدرجات العليا من سلم الحكم من التجارة أصلاً،

كما فعل عمر بن عبد العزيز مثلاً، وتفعله دول نزيهة معاصرة بحكم القانون، أو بمقاسمة المال معهم بعد التأكد من جمعه من حلال كما فعل عمر الأول رضي الله عنه، فيعود نصف ما يحقق المسؤول من ثروة من التجارة إلى "مال الأمة" أو المال العام. وقضية استغلال النفوذ دقيقة ومركبة، وتحتاج في عصرنا إلى سياسات مناسبة في الفقه الإسلامي من أجل التعامل معها، نظراً لأن استغلال النفوذ لا مفر من وقوعه خاصة إذا كان الحاكم يتاجر وهو في منصب حساس في الدولة.

(٦) مبدأ أن تكون جباية المال من الرعايا وحتى من الأعداء حسب الشرع: والحق أن هذا الشرط قد حدث فيه أيضاً تجاوزات تاريخية ومعاصرة كبيرة، فيروي التاريخ في حقب مختلفة كيف أثقلت النظم المستبدة على الرعية بالضرائب التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي صرفوها ليس في الصالح العام بل في أملاكهم الخاصة ثم إخماد الفتن والثورات الداخلية التي كان سببها الأول بغيهم وظلمهم للناس. وليس هناك شرعية لجمع الدولة للمال من الناس في الإسلام إلا الزكاة والجزية والغنيمة والفيء والإقطاع، وذلك في حدود شروط وضوابط واضحة مفصلة في النصوص الشرعية، ولمصلحة الدولة لا لمصلحة الحكام وأهوائهم. وأما ما وراء ذلك من ضرائب فلا تباح إلا للضرورات، وبعد أن يعيد الحكام ما أخذوه بالباطل من أموال الناس أي أموال الأمة، ورحم الله سلطان العلماء الإمام العز بن عبد السلام، الذي رفض أن تُفرض ضرائب على الناس في عهد ممالك مصر رغم ظرف الحرب مع التتار وقتها، قبل أن يتوبوا من أكل أموال الأمة بالباطل ويردوها، فكانت فتواه المشهورة للمماليك حكام ذلك الزمن، والذين كانوا غارقين في الترف من مال الأمة -وما أشبه الليلة بالبارحة-، فقال لهم العز: "إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والكبابيس المزركشة وأسقاط السيوف والفضة وغير ذلك، وأن تبيعوا مالكم من الحوائص الذهبية [أي التي مع جواريتهم] والآلات النفيسة [أي التي في بيوتهم]، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه، ويتساووا هم والعامّة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا" (السيوطي في تاريخ الخلفاء، ١/٤٣، ابن كثير في البداية والنهاية، ١٣/٢١٥).

(٧) مبدأ أن يكون التصرف في المال العام بقصد المصلحة العامة للأمة لا المصلحة الخاصة للحاكم: وهذا بدوره شرط دقيق يقتضي التجرد للحق، ويبيح التصرف في المال العام للحفاظ على هيئة الدولة، مراعاةً لمصلحة الناس لا لمجرد أن يبقى الحاكم على كرسيه وهو لا يقوم بواجبات الحكم ولا يدافع عن مقدسات الأمة ولا نفوس ذراريها وضعفائها كما نشهد اليوم، ولا بد أن تكون الدولة -بداية- دولة شرعية من أصلها، ويغلب عليها الحكم بالعدل وقصد الإصلاح في عموم تصرفات حكامها، وإلا فليس هناك شرعية لاستخدام مال الأمة العام لتثبيت دعائم حكم فاسد، فضلاً عن تثبيت دعائم حكم أعداء الدين ومستبيحي حرمان الأمة ومقدساتها!

تفكيك منظومات الاستبداد (٥٦): عاد موسم الحج .. وليسجل التاريخ

ها هو موسم حج ثاني يعود علينا والمشاعر مختلطة في النفوس بسبب الأحداث المرعبة في فلسطين، بين الاستبشار بنصر من الله قريب إن شاء الله، وتحقيق (وعد الآخرة) بإساءة وجوه المجرمين المفسدين في الأرض وتبشير ما علوا من بنيانات الطغيان تنبيهاً - وكلها نظام واحد-، وهو وعد من الله حق آت لا محالة، بين هذا وبين حزن وغم وألم في قلب كل مؤمن صادق -بل وكل إنسان حر شريف- للمشاهد اليومية البشعة لاضطهاد أشرف وأنبأ من في أمة محمد ﷺ من الناس، والتي لا تزداد مع الأيام والشهور إلا بشاعة، والتي تظهر قسوة أعداء الإسلام الكافرين -ومعهم المنافقين من بني جلدتنا- في انتقامهم من أهل الإسلام الذين أيدوا المرابطين في أكناف بيت المقدس، فتجاسروا على قول "لا" للنظام العالمي الجديد ولـ "صفقة القرن" المرتقبة، انتقام لا يزيد إلا ضراوة بعد أن نجحوا في كتم أصوات الحق -شرقاً وغرباً- عن طريق ممارسة "إرهاب الدولة" التي سموها "وطنية"، وخاصة كتم صوت العلماء الربانيين الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فنشعر في الحلق بغصة لا يزيدها حلول موسم الحج وعيد الأضحى علينا إلا شدة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

عاد موسم الحج، وليسجل التاريخ حال أمة الإسلام، فقد قطعها أعداؤها إرباً حتى ما بقيت شذرة من أرض أو عنصر في قوم إلا وجعلوا له دويلة ضعيفة، تقوم إذا أبقث نظام الاستعمار الغازي القديم الجديد كما هو، لتخدمه وتبيع قضايها وتقتل أحرارها وأسودها من أجله، وتنهار إذا خرجت عن الخط المرسوم فيرفعوا عن حكامها الحماية، ويتركوهم لشعوبهم الغاضبة من ظلمهم لتسقطهم بثورة! وأعداء الأمة بتلك الخدعة الماكرة قد روضوا حكامها -منافقين وغير منافقين- على العبودية للإمبراطورية البيضاء الجلد، الحمراء اليد والأنياب من دماء المسلمين، وأضحى كل حاكم مسلم -إلا القليل النادر- لا يُسمح له إلا بالتنافس مع من حوله على الزعامات الشخصية والخلافات الطفولية والتكاثر في الأموال ووسائل الترف وتوريث الحكم لأولاده أو للطغمة التي ساندته ودعمت أركان حكمه، ولا تخلو دويلة واحدة من دويلات أمة الإسلام -من غرب أفريقيا إلى شرق آسيا- من التنازع مع جيرانها على "حدود" مزعومة أو "سيادة" مكذوبة، في الوقت الذي استأجر فيه الأباطرة المعاصرون بلاطجة غلاظ شداد من أجل أن يكونوا رأس حربتهم في قلب أمة الإسلام، في أرض الرباط في فلسطين وما حولها من بلاد العرب، خاصة في بلاد الأعراب الذين هم أشد كفراً ونفاقاً.

عاد موسم الحج، وليسجل التاريخ أن الشعب البطل الصابر المرابط من إخواننا وأخواتنا في فلسطين -أطفالاً ونساءً ورجالاً وشيوخاً- يُقصفون ويُحرقون ويُسجنون ويُجوعون ويُهَجَّرون على مرأى ومسمع من العالمين، وبعون وإسناد لأعدائهم من بني جلدتنا من المنافقين، إسناد وصل ببعضهم إلى التعاون العسكري والمشاركة في القتال والسلاح، فضلاً عن الإسناد الاقتصادي الذي لم تبرأ منه ولا دولة إسلامية واحدة اليوم، وليشهد التاريخ!

وليشهد التاريخ أنه لا يعارض هذه المهزلة معارضة مؤثرة شيئاً ما، إلا فئة من شباب الجامعات والجمعيات الشرفاء، وبعض السياسيين والإعلاميين وأصحاب الفكر ومتطوعي العمل الخيري، سواء في البلاد الغربية التي تشارك حكوماتها في العدوان، أو في بلاد العرب على خوف من الفراعين وأملائهم أن يفتنهم، أو في بلاد آسيا التي يتفرج حكامها على انهيار الإمبراطورية الغربية السريع بكل سرور فيشجعون شبابهم على المعارضة من باب الكيد لها.

عاد موسم الحج، وليسجل التاريخ أن شريحة معتبرة -ولو كانت أقلية عددية- من المواطنين الغربيين يتظاهرون كل أسبوع في عواصم بلادهم، ليعارضوا الإمبراطورية الغربية نفسها، خاصة وأن نظمهم السياسية تركّز نحو الفاشية من أجل حماية الكيان، وإن كانت فاشية إلكترونية هذه المرة سلاحها الأقوى هو الذكاء الصناعي وشركات التواصل الاجتماعي! وهؤلاء المواطنون الغربيون الشرفاء قد تحملوا الأذى والفصل من العمل والاعتقال التعسفي، بل وقُتل بعضهم في سبيل وقوفهم مع الإنسانية والعدالة. ثم ها هم في موسم الحج قد ركبت صفوة منهم البحر المتوسط في قوارب صغيرة، يخاطرون بحياتهم المرة تلو المرة حتى يوصلوا أدنى ما يمكن توصيله من إغاثة إلى غزة العزة، ويقولون إنهم إن لم يفعلوا ذلك فقدوا إنسانيتهم، فليسجل التاريخ من فقد إنسانيته ومن لم يفقد، وليسجل تاريخ الإسلام من فقد دينه ومن لم يفقد! مع العلم بأن الله تعالى قد هدى إلى الإسلام خلال العام الماضي فقط أعداداً منهم، تقدر اليوم في نهاية عام ١٤٤٦ هـ بمئات الألوف في كل بلد عربي، بفضل الله ثم بفضل المثال الحي للإسلام الذي يقدمه أبطال فلسطين، فيرى الغربيون -والشركيون كذلك- الإسلام على حقيقته الناصعة فيسلمون أفراداً وجماعات.

وليسجل التاريخ أيضاً أن من عارض أو كان سيعارض المقتلة الهائلة للمسلمين في فلسطين قد غيبتهم غياهب السجون العربية في كل بلاد العرب - بلا استثناء إلا النادر-، وأن هذه السجون باتت وسيلة للقتل البطيء ليس إلا، ولم تعد سجوناً بالمعنى الذي تعرفه البشرية، لا يشاركها في هذا الوصف إلا سجون الاحتلال في فلسطين، وليشهد التاريخ -وأصبحت تلك الحقيقة اليوم واضحة لكل ذي عينين- أن السجون العربية كانت قد امتلأت على مدار العقد الماضي استعداداً لتطبيع الدول العربية كاملةً مع الكيان وتمهيداً لـ"صفقة القرن"، تماماً كما تجري الآن لا ينحرف تنفيذها عن المخطط المرسوم لها منذ عشر سنوات، وليشهد التاريخ أن السجون العربية في عيد الأضحى لعام ١٤٤٦ هجرية قد امتلأت بالألوف المؤلفة من العلماء الأتقياء والرجال الشرفاء والنساء الحرائر، خاصة الشباب الذين قادوا الحراك الشعبي بالأمس القريب ينادون فيه بنهضة هذه الأمة بين الأمم، وخاصة أصحاب الفكر والأدب والفقه والشعر والعلم والتعليم، وكل من فهم القضية الإسلامية على حقيقتها!

وليسجل التاريخ أن المسلمين في موسم الحج عام ١٤٤٦ هجرية يحجون بالملايين في المشاعر المقدسة، وهم على بعد ساعة واحدة بالطائرة من حيث يُقتل شعب فلسطين المسلم ويجوع إلى الموت بمئات الآلاف،

فلا يُسمح لحاج يقوم بجهاد النساء أن يدعو إلى جهاد الرجال، ولا حتى أن يجهر بالدعاء للمستضعفين من أمة محمد ﷺ، فالدعاء ممنوع في موسم الحج عام ١٤٤٦ هجرية لأنه تدخل في شؤون السياسة وسلطات ولاة الأمر! وليسجل التاريخ أيضًا أن الحج في عام ١٤٤٦ هجرية أصبح القائمون عليه يسمونه "سياحة دينية"، وأصبحت ضرائبه من المكوس المفروضة تكلف ما لا يطيقه الفقراء ولا حتى متوسطو الدخل في بلاد الإسلام ولو كانوا من الذين يعيشون في البلاد المجاورة.

وليسجل التاريخ أن خطبة عرفات عامًا بعد عام أصبحت تُذكر فيها "مقاصد الشريعة" -أي: حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال- فارغة من مضمونها، ومقاصد الشريعة مما يقولون عنها براء، فيُذكر "حفظ الدين" دون أن تُذكر قبلة الإسلام الأولى، المسجد الأقصى الذي بدأ الاحتلال في خطوات هدمه وأعلن عنها رئيس وزراءهم بصراحة منذ أيام والمسلمين مجتمعين في موسم الحج! ويُذكر "حفظ الدين" دون أن تُذكر الخطط الممنهجة للتلاعب بعقائد الإسلام وأخلاقه وثوابته في بلاد المسلمين، ونشر الإلحاد والفواحش والزنا والخنا على بعد كيلومترات قليلة من حيث يقف الحجاج! ثم في ما وراءها من بلاد الإسلام.

وليسجل التاريخ أن خطبة عرفات عامًا بعد عام يُذكر فيها "حفظ النفس" دون أن تُذكر مئات الآلاف من نفوس الشهداء الذين قضوا في حرب الإبادة على فلسطين، وفي غيرها من بلاد المسلمين الذين قُتلوا ظلماً وطغياناً خاصة في اليمن والسودان وسوريا والعراق وكشمير وغيرها، ويُذكر على صعيد عرفات "حفظ النفس" دون أن يُذكر القتل البطيئ الممنهج في السجون العربية لأنظف وأعلم وأشجع وأحكم من أنجبت هذه الأمة، ودون أن يُذكر الذين تآمروا على قتلهم من حكام المسلمين المنافقين، بل يُدعى لهم على صعيد عرفات بالنصر والتأييد وطول العمر وحفظ الأولاد والأموال!

ويُذكر فيها "حفظ العرض" دون أن تُذكر المغتصبات من نساء المسلمين في سجون الاحتلال، بل وفي سجون البلاد العربية من زبانية نظم الطاغوت، ويُذكر على صعيد عرفات "حفظ العرض" دون أن يُذكر الأبطال المجاهدون الذين يدافعون عن عرض الأمة ومقدساتها ويحاولون استعادة أسراها وأسيراتها.

ويُذكر فيها "حفظ المال" دون أن تُذكر التريلونات -وهي بالمناسبة ملايين الملايين- التي دفعها أمراء العرب جزيّةً للمحتلين الغزاة لكي يُبقوهم على كراسيهم، بل وبعضهم دفعها على شرط أن يكملوا المهمة بقتل إخوانهم وأخواتهم المجاهدين في فلسطين حتى لا تقوم لغرمائهم من "الإسلاميين" -كما يسمونهم- قائمة، ويُذكر "حفظ المال" على صعيد عرفات دون أن يُذكر إنفاق الحكام ببذخ من أموال المسلمين العامة على القصور واليخوت وملاعب الغولف الخضراء والسرف والترف والحفلات الماجنة والجواري والندماء والراقصين والراقصات واللاعبين واللاعبات والزنديقين والزنديقات، في الوقت الذي يموت فيه أطفال المسلمين جوعاً وعطشاً على بعد ساعة بالطائرة في فلسطين والسودان واليمن وغيرها من بلاد المسلمين.

ولكننا -أخيراً- نشهد الله تعالى أننا رغم الألم نستقبل يوم الحج الأكبر دون يأس من رحمة الله، بل بوجه بشوش وأمل عريض وأكفّ مرفوعة ضارعة إلى الله تعالى. اللهم استعملنا ولا تستبدلنا. اللهم نصرك الذي

وعدت هذه الأمة الشهيدة على الناس. اللهم مكن لأهل الجهاد في أمة الحبيب محمد ﷺ من تحرير المسجد الأقصى المبارك، وضرب المعول الأخير في وثن الحضارة الطاغية المعاصرة.

اللهم يسر لهذه الأمة أمر رشد وخير يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك ويؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر. اللهم إنا نجعلك في نحور أعدائنا ونعوذ بك من شرورهم. اللهم بدد شملهم وفلّ حدّهم وفرّق جمعهم وشتت كلمتهم وأدل دولهم. اللهم انصر من نصر دين محمد ﷺ واجعلنا منهم، واخذل من خذل المجاهدين من أمة محمد ﷺ ولا تجعلنا معهم. اللهم يا منزل الكتاب ويا مجري السحاب ويا هازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكل عام والمؤمنين الصادقين من أمتنا بخير.

تفكيك منظومات الاستبداد (٥٧): نداء إلى أمة محمد ﷺ .. خذوا على أيدي حكامكم

نشرت (مقالة رأي) في هذه السلسلة على هذه الصفحة، في اليوم السابع والعشرين من شهر أكتوبر ٢٠٢٣م -أي بعد عشرين يوماً من بدء الحرب على غزة-، كان عنوانها: (إما اعتدلت وإما اعتزلت - دعوة لإحياء الربيع)، وكتبت فيها أقول: (في مثل موقف الحرب التي يراد بها الإبادة الجماعية لمئات الألوف من الناس -وهو ديدن لا يتخلف عن الحروب الصليبية كما قلنا في المقالة السابقة- تأتي لحظة إثبات أحقية القيادة .. المعادلة الشرعية ليست هي "التغلب" على الشعوب المستضعفة بالسلاح لكي يحكمها حكامها حكم كسرى وقيصر .. شرعية الحكام -وسلطاتهم وامتيازاتهم وعدم الخروج عليهم- منوطة بإثبات أنهم حريون بهذه المكانة ويقومون بأبسط واجباتها، وإلا عزلتهم الأمة أو أهل الحل والعقد فيها من العلماء الشرفاء وأصحاب الرأي وأصحاب الدين والشأن والخبرة والنسب، حسب السياقات المختلفة للدول المختلفة. هذا هو مقتضى فقه السياسة الشرعية، وهذا ما ننادي به اليوم).

ثم نشرت (مقالة رأي) بعد نحو عام من المقالة الأولى، في اليوم الثامن من شهر أكتوبر ٢٠٢٤م، كان عنوانها: دعوة مجددة إلى إحياء الربيع العربي، كتبت فيها أقول: (ما زالت الدعوة إلى إحياء الربيع العربي هي في تقديري الدعوة الوحيدة التي يمكن أن تعكس المسار الكارثي التي تتجه إليه أمتنا. إذا لم تقف الشعوب العربية -والمسلمة بشكل عام- وقفة جادة مع حكامها، تحاسبهم على مسؤوليتهم في وقف هذه المهزلة التي تتعرض لها أمة الإسلام -خاصة في دول الطوق المحيطة بفلسطين-، فلينتظروا أن تحكمهم (إسرائيل الكبرى) قريباً، وأن تطرد سنن الله تعالى في استبدال جيل الهزيمة من الفاسقين بجيل النصر من المؤمنين، ولكن بعد أربعين سنة من التيه).

واليوم بعد واحد وعشرين شهراً من الحرب، وأربعة أشهر من التجويع لأهل غزة العزة، وخطاب أكرم الناس على الله وأولى الناس بالإسلام في عصرنا هذا، أهل الرباط في فلسطين، على لسان أبي عبيدة، بتحميل أولياء أمور المسلمين -وأهل العلم منهم- دماء أطفالهم ونسائهم وشيوخهم وشبابهم في رقابهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا يسع المرء إلا أن ينادي بما يمليه عليه ضميره الحر، ويؤدي إليه التفكير المنطقي، وتوؤل إليه معطيات الأحداث، ويدل عليه التاريخ المظلم للمعتدين وطريقتهم في احتلال الأرض وإبادة أهلها -وما إبادة سكان الأمريكتين الأصليين، ولا من عارض احتلالهم في أفريقيا، ولا مذابح الأندلس ببعيد-، والنداء هو:

يا أمة محمد ﷺ .. الأمم التي لا تقاوم الغزاة تباد عن بكرة أبيها، والتاريخ القريب للإمبراطورية العنصرية التي تغزو الأمة اليوم خير شاهد. وإذا لم يكن في (أولياء أمور) أمتنا من يقوى على المعارضة ولو للإبقاء على هامش محدود من الحياة والكرامة الإنسانية -كما كنا خلال العقود الماضية-، فلا بد من الأخذ على أيديهم وخلعهم إذا وقفوا في صف الأعداء، كما يقف معظمهم اليوم عملياً، لا يخفى ذلك على عاقل. وهذا

لا يعني فوزى عمياء ولا ثورة عشواء، وإنما يعني الضغط على الشرفاء - وهم أقلية نادرة ولكنهم حتماً موجودون - في نظم وحكومات وجيوش المسلمين من أجل النهوض والأخذ بزمام المبادرة، ومحاولة إنقاذ مليوني إنسان في غزة العزة، بل وإنقاذ العالم العربي - والإسلامي من ورائه بطبيعة الحال - من نفق مظلم من الاحتلال وانتزاع الإسلام - الحقيقي الأصيل أعني - من دين وثقافات وتشريعات وتعليم وإعلام شعوبه. إذا لم تقف جيوش الأمة وقفة جادة اليوم فنحن مقبلون على هدم المسجد الأقصى بالتزامن مع مقتلة مليونية لأهل فلسطين، ثم مقتلة هائلة لكل من أراد أن يبقى على الإسلام - الحقيقي الأصيل أعني - في بلاد العرب، ثم في بلاد الإسلام. ليس هناك منطلق سليم يقود إلى توقع غير هذه التوقعات الكارثية، إلا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي كل شيء علماً.

يا أمة محمد ﷺ. يا شباب الإسلام خاصة. خذوا على أيدي حكامكم في كل أنواع وأشكال الحكومات، الأقرب فالأقرب، لعل بعض الشرفاء من آل الطواغيت - الذين يكتمون إيمانهم - ينهضون فيمسكوا زمام الأمور ويعكسوا التيار الجامح لتلك الكوارث الثقيلة المقبلة على أمتنا.

استجيبوا لدعوات (العصيان المدني)، ولا تتراجعوا عنها إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

اللهم هذه حجتنا. اللهم فاشهد.